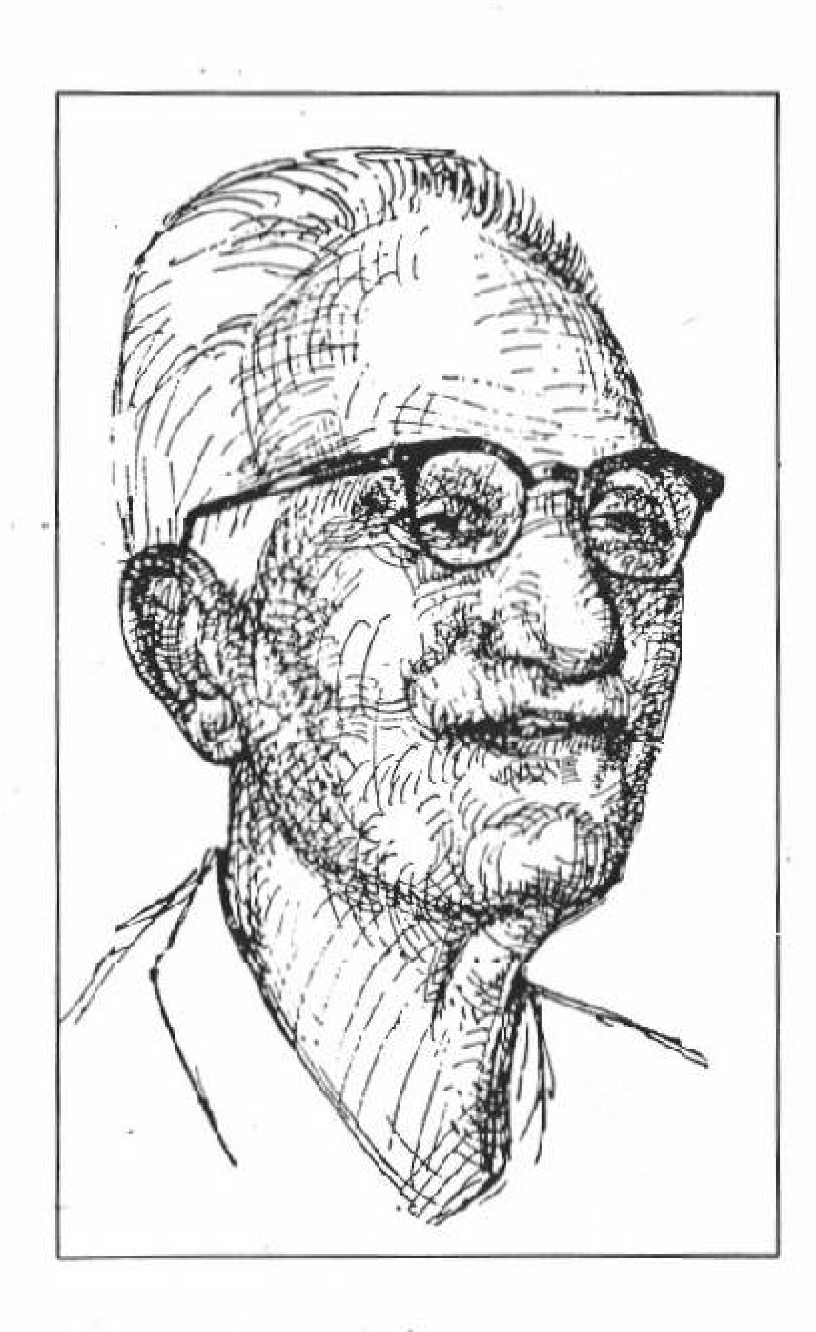
رِجَالٌ عَرَفْتُهُمْ

عباس محمود العقاد



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



بسم اللہ الرّحمٰن الرّحیم

تقـــديم

فى الصفحات التالية تعليقات متفرقة على سير طائفة من الأعلام الذين كنا نسميهم بالشيوخ أو الأقطاب حين بدأت حياتى الصحفية قبل الحرب العالمية الأولى بسنوات ، ومنهم من لم يكن من الشيوخ والأقطاب فى تلك الفترة ، ولكنهم لحقوا بهم فى الطريق وعرفناهم كما عرفنا الأولين ، ووصفنا معرفتنا بهم كما وصفنا معرفتنا بأولئك الشيوخ والأقطاب ، من زاوية خاصة تتيح لنا أن نقول عنهم ماليس فى التاريخ العام الذى يقال فى كل تعليق أو تقدير .

وأكثر هؤلاء الأعلام من الصحفيين أو الذين كانت لهم مشاركة موجهة فى الكتابة الصحفية ، ونسمى كتابتنا عنهم بالتعليقات ولا نسميها بالسير أو التراجم أو التحليلات لأننا لم نكتبها لنستقصى الحوادث أو نحلل «الشخصيات» من وجهتها العامة ، ولكننا كتبناها لنبدى لهم رسومًا قريبة من الزاوية التى اتفقت لنا معرفتهم فيها ، وتوخينا فى هذه الرسوم أن تكون كصور الساحة التى يلتقطها صاحب الصورة الشمسية لبعض المناظر أو بعض الشخوص حيثما مرت به فى رحلاته ، فليست هى أطلسًا جغرافيًا للمواقع والبلدان ، وليست هى شرحًا تاريخيًا للشخوص والأعلام ، ولكنها بمثابة المذكرات المدونة فى الطريق لتسجيل المعالم الخاصة من زاويتها العارضة ، وإن لم تخرج بهذا التخصيص عن مجال التعميم .

وقد اتفق التقاء هذه الزمْلة المختارة فى مجموعة واحدة كما يتفق التقاء الصور المتفرقة فى جعبة واحدة من هذه الرحلة أو تلك ، بغير مفاضلة مقصودة بين الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم ممن نعرفهم كمعرفتنا بهؤلاء الأعلام والأقطاب .. وربما جمعت المناسبة بين طائفة أخرى كهذه الطائفة فى مكانها وحق الكتابة عنها ، فلا تحسبها مسألة تقديم وتأخير ولا مسألة موازنة وترجيح ، وإنما رحلة أخرى من رحلات الحياة الصحفية أو الأدبية أو السياسية ، ولا مفاضلة بين معالم الرحلات فيما يعرض لها من أسباب التقديم والتأخير .

وحسبنا عند أصدقائنا القراء أن تكون هذه المجموعة «حفلة استقبال» اجتماعية : نعرفهم فيها بأقطابها كما عرفناهم على سنة التحية فى مجالس الأصدقاء . وذلك نحو ما نبغيه .

عباس محمود العقاد



على يوسف

علـى يوســـف

١

تجرى المقارنة أحيانًا بين الكاتب الصحفى الذى كان يكتب فى صحافتنا العربية قبل سبعين أو ثمانين سنة ، وبين كاتبنا الصحفى الذى يكتب الآن فى صحافتنا ، بعد أن بلغت مع الصحافة العالمية آخر أطوارها ، من وسائل الطباعة والتحرير إلى وسائل الإدارة والتوزيع .

وقد نوجز هذه الفوارق التى يمكن أن تتعدد إلى غير نهاية فنقول : إن الفارق هنا هو الفارق بين « روبنسون كروزو » فى جزيرته وبين رحالة من سياح اليوم ترتسم له طريقه من رقم الكرسى فى الطيارة إلى رقم الحجرة فى الفندق إلى أسماء الخطوط الجوية والبحرية فى كل مدينة وكل فندق ، وكل يوم من أيام الرحلة ، منذ « قطع التذكرة » إلى تسليم البطاقة عند باب المطار الأخير ، مع سلامة الإياب .

وفارق آخر ربما أوجز لنا تلك الفوارق على نحو آخر من المشابهة : وهو الفارق بين طبيب القرن التاسع عشر وطبيب القرن العشرين .

إن طبيب القرن العشرين يعرف عمله المطلوب من خلال عشرين كشفًا وتحليلاً وأداة طبية أو كيماوية بين يديه ، ويستوحى وصفه للدواء من تحليل الدم وتحليل المواد الجسدية على اختلافها ، ومن كشف الأشعة ورسامة القلب وشهادات للأحوال الخاصة والعامة يرجع إليها فى سجلاتها إذا شاء .

ولم تكن لطبيب القرن التاسع عشر وسيلة من هذه الوسائل الميسورة اليوم فى أكثر العيادات ، فربما أعوزته الساعة فلم يعتمد فى جس النبض على وسيلة غير الإصغاء بأذنيه ، وهو بعد ذلك يعالج العلل جميعًا فلا يتخصص لعلة واحدة يستعد منذ عهد المدرسة « لتشخيصها » وتدبير علاجها .

وكتّابنا الصحفيون من أعلام القرن التاسع عشر كثيرون ...

ولكننا إذا نادينا أسماءهم من الذاكرة ، لم يكن منهم من هو أسرع تلبية للنداء العاجل من اسم « على يوسف » صاحب « المؤيد » أخيرًا . وصاحب « الآداب » قبل ذلك .

إن « على يوسف » كان يصنع « صناعته » الصحفية ليتعلمها الناس منه ، ولم يكن يتعلم تلك الصناعة على أساتذتها فى الشرق والغرب ، ولا على أدواتها التى تمليها عليه .

لم يكن يعرف لغة للصحافة غير العربية ، ولم يكن يعرف من العربية غير ما اعتمد فى معرفته على نفسه ، بل غير ما اعتمد على نفسه قبل ذلك فى اختيار أستاذه الذى يراجعها عليه .

وكان يسمع ، ولا شك ، بالصحافة الأوربية ويعرف منها بالسماع أكبرها وأشهرها ، ولكنه لم يعرف من صحافة الغرب صحيفة واحدة لينهج على منهجها ، ولم يكن من غايته ولا طاقته أن يعرف « التيمس » أو « الطان » ليحكى هذه أو تلك فى طبعها وتحريرها ، ولكنه – هو وأقرانه من كتاب عصره – كانوا يبتدئون فى الصحافة طريقًا آخر غير تلك الطرق التى تقدمتهم فيها الصحف الأوربية : طريقًا يستطيعونها وتستدعيهم إليها ، وقد تكون الطريق لكل صحفى منهم غير الطرق الأخرى التى يستقيم عليها سائر زملائه .

كان « على يوسف » يرتجل صناعته الصحفية فى كل شىء : فى التقاط الأخبار ، وفى جمع الآراء ، وفى تحرير المقالات ، وفى سياسة الجمهور وسياسة ولاة الأمور .

وظهر من قضية « التلغرافات » التى سيق من أجلها إلى القضاء أنه كان يستطلع أخبار الحملة على السودان قبل وصولها إلى ديوان الوزارة ، لأنه كان على صلة بموظف المكتب الذى يتلقاها ، ولم يكن أحد يعرف « الواسطة » التى تحمل النبأ من مكتب البرق إلى مكتب التحرير .

وكانت تعبئة الآراء قبل هذا الجيل لازمة وعسيرة فى وقت واحد ، بل كانت إدارتها كلها مجهولة يخترعها كل صاحب صحيفة على سنته فى اختراع هذه الأدوات المرتجلة .

أما « على يوسف » فقد كانت وسيلته لتعبئة الآراء أن تكون شخصية بينه وبين نفسه وصحبه ، ومن يرجع إليهم فى حياته الخاصة أو يرجعون إليه .

فلما اتهم لبيرد كرومر هذه الأمة بالتعصب الدينى وعداوة الأجانب ، جمع « الشيخ على يوسف » نماذج الآراء التى تدفع هذه التهمة عن كل صاحب صفة ترشحه لإبداء الرأى فيها ..

قال الخواجة ميماراكى اليونانى : « أشهد أننى ما شعرت قط فى معاملاتى مع المصريين بأننى أعامل أناسًا يخالفوننى فى العقيدة » .

وقال الفرنسى وكيل مصرف الكريدى ليونيه الفرنسى : « إننا لا نشعر بهذا التعصب الذى اتهمت به الأمة المصرية .. اللهم إلا إذا كان التعصب موجودًا فى غير الدائرة التى إليها معاملاتنا » .

وقال شكور بك الإدارى اللبنانى : « إننى أفضل أن أمشى وحدى ليلاً فى جهات السيدة زينب والنحاسين. على أن أمشى وحدى ليلاً فى جهات مونمارتر بضواحى باريس » .

وقال إسكندر عمون المحامى : « إن المصرى أكثر إكرامًا للغريب من سائر الشعوب » .

وقال باسيلى تادرس باشا : « لا صحة لما يقال من وجود التعصب الدينى أو الجنسى فى مصر » .

وحين سأل الشيخ كلاً من السيد عمر مكرم والشيخ محمد بخيت من رجال الدين الإسلامى لم ينس أن يسأل رجلاً ينكر الأديان جميعًا وهو الدكتور شبلى شميل الذى قال : « إن التعصب غير موجود فى مصر على الإطلاق » .

أما المقالة فهى الصحفة المختارة على مائدة الشيخ على يوسف بغير جدال .

وقد تكتب المقالة فى موضوعها بأسلوب أجمل من أسلوبها ، وعلى نمط من اللفظ والمعنى أبلغ من نمطها فى لفظها ومعناها ، ولكن مقالة « على يوسف » هى مقالة على يوسف التى لا يكتبها غيره ولا يؤدى الغاية منها أحد كما يؤديها بقلمه ورأيه .. فهى من الكلم المفصل من حسب قياسه جملة جملة وسطرًا سطرًا من فاتحتها إلى ختامها ، وليست من الكلم « الجهير » على قياسه ولو على وجه التقريب الذى يحكمها إحكام التفصيل .

وإذا أردنا أن نجمع لهذه « الشخصية » النادرة مفتاحها فى كلمة واحدة . فهى كلمة « العصامية » ؛ حيث تصل العصامية أحيانًا إلى حدود المغامرة .

لقد كان لـ « على يوسف ومصطفى كامل » طريقتان مختلفتان – بل مختلفتان جدًا – فى الكتابة الصحفية وفى الخطة السياسية ، وفى الدعوة الوطنية .

ولقد فرق النقد بين الطريقتين ، فكان الفرق بينهما عند أناس أن طريقة مصطفى كامل هى طريقة التطرف والحماسة ، وأن طريقة على يوسف هى طريقة المحافظة والاعتدال .. وكان الفرق بينهما عند أناس آخرين هو الفرق بين التعليم الحديث والتعليم القديم ، أو هو الفرق بين الشباب والكهولة . أو الفرق بين السياسة القومية وسياسة القصر والحاشية الخديوية . أو الفرق بين الخطيب المنطلق والكاتب الحصيف .

لكن الواقع أن الفرق الوحيد الذى يحتوى جميع هذه الفروق هو « شعور العصامية » فى نفس الرجل الذى كان مثله الأعلى فى الحياة أن يصل باجتهاده وحيلته إلى مكانة السيد الموقر ، ليرعى له السادة الموروثون للسيادة كرامة الرأى وكرامة « الخاطر » كما نقول فى عرفنا المأثور .

وكان من حق العصامية الناجحة عند على يوسف أن يتكلم مع ذوى « الاعتبار » كما يتكلم ذوو الاعتبار ، ولا يخف به القلم خفة الحديث المتعجل أو الحديث المستثار .

وإذا قال ، كما كان يقول كثيرًا ، إنه لا يرضى السياسة على مذهب الرعاع .. فليست كلمة الرعاع هنا مقابلة عنده لكلمة النبلاء أو « الأرستقراطيين » .. وليس إنكاره لـ « مصطفى كامل » إنكارًا لإنسان دونه فى المقام والمكانة الاجتماعية ، لأن « مصطفى كامل » كان له نصيبه من الألقاب التى خلعت على الشيخ على يوسف ، وإن لم تغلب عليه .

وإنما كانت المقابلة عنده مقابلة بين خفة النزق والعجلة ورصانة « العقلاء » من ذوى الرأى والحنكة فى كل طبقة ، ولهذا كان يكثر من تلقيب « مصطفى كامل بالطائش » ، ويكثر من وصف سياسته بالطيش ، ويجذبه عرق الدراسة العتيقة فيقول معتذرًا من تكرار كلمة الطائش إنها تطابق اسم مصطفى كامل فى حساب التنجيم ؛ لأن مجموع الحروف بحساب الجمل فى كلمة طائش وكلمتى مصطفى كامل واحد .... وهو «٣١٩» .

وهذه القيمة – قيمة العصامى الذى بلغ فى المكانة الاجتماعية مبلغ ذوى الرأى – هى هى التى جعلت لكتابته السياسية صبغة كصبغة اللغة الدبلوماسية بين وزراء الخارجية والسفراء ؛ وهى هى التى جعلته يعتزل الصحافة بعد أن أسندت إليه وظيفة « سيد السادات » أو شيخ الطريقة الوفائية .

وقد كان يكتب عن خصوم القصر الخديوى جميعًا ، فيبيح لقلمه من المغامز فى الكتابة عنهم ما يرضى القصر ويستجيب لأمره وإيعازه ، ولكنه كان يأبى كل الإباء أن يحمل على رجل ممن أحسنوا إليه فى نشأته الأولى ، كمحمد عبده ، وحسن عاصم ، وسعد زغلول ، لأن هذه المحافظة على سمت الرجل الكريم تدفع عنه سبة النعمة المحدثة والمقام المدخول .

فإذا جاء بين تضاعيف الأخبار فى صحيفة « المؤيد » شىء يمس هؤلاء مرضاة للحاشية الخديوية ، فإنما كان يترك كتابته لغيره أو يفرغه فى القالب الذى يوافق مظهر الكرامة وينفى عنه شبهات العتب والملام .

غير أن المحافظة على المظهر شىء ومطاوعة الحيلة والدهاء من وراء الستار شىء آخر .. ففى الوقت الذى كان فيه التشهير الصريح باسم محمد عبده محرمًا على أقلام المؤيد ، كان وكيل المؤيد بالآستانة يتطوع لصاحبة الشيخ المفتى الغريب عن المدينة ، فيقحمه من مواطن الفرجة ما يتحاماه أمثاله ، ويتواطأ بذلك مع رؤساء الشرطة ليفجأوا الشيخ والوكيل بين مواطن

الريبة .. ثم ينتهى الأمر إلى « وصمة » شائنة تصيب الشيخ فى دار الخلافة الإسلامية ، فلا يشق على الخديو بعد ذلك أن يعزله من منصبه الدينية برخصة من مقام الخليفة الأعظم ، ويتراجع أمامها مجلس الوزارة فى مصر ، فلا يعتبر عزل المفتى فى هذه الحالة إخلالاً بنظام العزل والتوظيف .

* * *

وقد عمت الصبغة الدبلوماسية كل منحى من مناحى تفكيره وعمله فى السياسة وفى علاقاته بالسياسيين الوطنيين وغير الوطنيين . وظهرت فى كل تصرف من تصرفاته العامة حتى فى صياغة المبادئ الوطنية التى قررها لحزبه أساسًا للمطالبة بحقوق الأمة ونظام الحكومة . فقد أوشك أن يجعل هذه المبادئ توريطًا دبلوماسيًا من كلام المحتلين أنفسهم ليسكتهم ولا يفتح لهم بابًا للاحتجاج على ولى الأمر أو اتهامه بتحريض الصحف والأحزاب عليهم . إذ كان انتساب الشيخ على يوسف إلى القصر الخديوى أمرًا مفروغًا منه ، مفهومًا بالتواتر بين دوائر السياسة الشعبية والرسمية فى القاهرة وعواصم الدول ذوات الامتيازات فى هذه البلاد ، وكان وكلاء « المؤيد » يزورون الدواوين – خارج القطر – كأنهم ملحقون بسفارات القصر ، قبل أن توجد له سفارات ..

فالمحتلون كانوا يسمون أنفسهم بالمصلحين ، ويقولون إن إصلاح الأداة الحكومية غرض من أغراضهم الأولى التى ينجزونها قبل مغادرة البلاد .

والشيخ على يوسف يسمى حزبه بحزب الإصلاح . فأى اعتراض للدولة البريطانية عليه أو على الخديو إذا أقام قواعد حزبه على المطالبة بالإصلاح ؟ ..

والمحتلون كانوا يقولون إنهم يدربون المصريين على حكم أنفسهم ويحولون بين الأمير والاستئثار بالسلطة فى مسائل الإدارة والمال على الخصوص .

والشيخ على يوسف يقيد الإصلاح بأنه « إصلاح على المبادئ الدستورية » ، ولا يذكر الدستور على إطلاقه لأنه قد يزعج الدولة العثمانية صاحبة السيادة التى لم تكن فى بلادها حكومة نيابية ، وقد يزعج الإنجليز أصحاب السلطان الفعلى كما يزعج الخديو صاحب السلطة الشرعية .

ولما ذكر « الاستقلال » ذكره مشروطًا بالمعاهدات التى ارتبطت بها بريطانيا العظمى ، وقال إن تحقيقه تنفيذ لوعود هذه الدولة بالجلاء ، وقد زادت هذه الوعود على السبعين .

وكل مقالة من مقالات «المؤيد» فى السياسة العامة فهى على هذا النمط، مذكرة رسمية لا يأبى السفير أن يوقعها باسمه راسم ولى أمره ورئيس حكومته، فإذا جاوزت هذا الحد إلى شىء من الشدة فى التعبير فغاية خطبها أن تكون بمثابة المقال «الموعز به» إلى لسان حال رسمى من ألسنة الحكومات التى تسمى أحيانًا «بالصحف الشبيهة بالرسمية».

وقد اشتد الشيخ على يوسف غاية شدته فى الحملة على لورد كرومر بعد اعتزاله، أو عزله، من منصب المعتمد البريطانى فى القاهرة، وكان الشيخ على حريصًا على ترويج الظن الذى شاع فى البلد عن نجاح الخديو فى مساعيه عند بلاط سان جيمس لعزل كرومر وتعيين رجل من أصدقائه فى مكانه، ولكنه كان على حذر شديد من إعلان هذه الدعوة مخافة أن يغضب الدولة البريطانية ويضطرها إلى الأخذ بناصر عميدها المخذول صيانة له من مهانة الشماتة وصيانة لها من الاعتراف أمام الناس بخذلانها لرجالها وخدام سياستها.

فإذا بالشيخ على يوسف يخلص من هذا المأزق على أحسن حال من الكياسة والإنصاف، فيتهم كرومر نفسه بأنه فضح حقيقة الموقف بثورته المحنقة فى خطاب الوداع، ويسأل: لماذا كل هذا الحنق والرجل لا يفارق قصر الدوبارة على الرغم منه كما يقال؟..

وإذا بالشيخ يعترف لعميد المعزول بكل مأثرة من مآثره المدعاة، فلا ينكر عليه حسنة واحدة يعتبر إنكارها عليه إنكارًا على دولته كلها من ورائه.

ثم يعمد الشيخ اللبق إلى الخطبة الكرومرية نفسها، فلا يضيف إليها حرفًا من عنده، بل يأخذها بنصوصها للإيقاع بينه وبين المحتفلين بوداعه وبين المتشيعين لسياسته والمسخرين أو المتبرعين بالشهادة لحكمه وحكم أعوانه ومستشاريه.

كان الأمير حسين كامل على رأس المدعوين للاشتراك فى حفلة التوديع، فلم يكن تعليق الشيخ على يوسف نقدًا للأمير – عم الخديو – بل كان إبرازًا واضحًا لإساءة كرومر إليه، مرة بالإنحاء على أبيه إسماعيل ومرة بالسكوت عن الإشارة إليه كأنه من سقط المتاع، وهو حاضر أمام عينيه:

«هذا الأمير الجليل الذى والى جناب اللورد بالصداقة زمنًا طويلاً وخصه باحترامه دائمًا، وكان له فى عهده أعظم أثر فى خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية لم ير اللورد أنه خليق بكلمة ثناء يوجهها إليه فى جنب ما وجه من عبارات الثناء من الأحياء والأموات».

ولم يتحدث الشيخ على عن أحد من المحتفلين باللورد كأنه خصم يحاربه وكأنه صديق اللورد وموضع حظوته، بل كان حديثه عنهم جميعًا كأنهم ضحاياه وضحايا سياسته وسوء خلقه فى حاضره وماضيه.

قال كرومر عن رياض باشا إنه علق الجرس فى عنق الهر، فكان ثناء على يوسف على رياض باشا أكبر من ثناء اللورد عليه، ولكنه استدرك قائلا إن اللورد:

«لم يقل إن رياض باشا لما أراد فى زمنه هو، أن يعلق الجرس فى عنق الهر قطعت يده وحلف اللورد ألا يعود إلى خدمة الحكومة ما دام هو فى البلاد، وزاده عنوة فرفض ابنه من وكالة الداخلية فى اليوم التالى من استقالة أبيه.. فكان المستبد إسماعيل أخف وطأة على رياض باشا من المستبد كرومر».

وأثنى كرومر على بطرس غالى باشا ومدحه بسعة الحيلة فى حل المشكلات فقال الشيخ على:

«نعم.. ولكنها المشكلات التى كان يخلقها اللورد بينه وبين الجناب العالى، وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى..».

وتساءل الشيخ على:

«لماذا أعرض اللورد عن ذكر بقية الوزراء كأنهم ليسوا نظارًا فى الحكومة وليس لهم عمل مطلقًا فيها؟».

وقد أشاد كرومر بالوفاق الإنجليزى الفرنسى الذى تم على يديه فسرد له «الشيخ على» سلسلة من الإساءات إلى الثقافة الفرنسية والخبراء الفرنسيين، وأنه يفعل ذلك «ليس حبًا فى مصلحة مصر، ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدمًا إنجليزية».

ولم يكن كرومر ليعدل عن هذه الخطة مرة إلا إذا جاءه الأمر من رؤسائه فى العاصمة البريطانية.

والحق أن براعة على يوسف فى التعقيب على أقوال كرومر كانت هى البراعة «الموصوفة» للرد على كل كلمة فيها بما يناسبها ويقلبها على صاحبها عند أنصاره قبل خصومه والشامتين به وبعهده، وقد قلنا – فيما تقدم:

– إن مقالة على يوسف هى مقالة على يوسف التى لا يكتبها غيره وإن كتب ما هو أجمل منها وما هو أبلغ منها وأوفى..

فهذه المقالات فى توديع كرومر هى بعض الشواهد على هذه « الخصوصية اليوسفية » .. إذ لم يكتب أحد من مودعى كرومر نظيرًا لها بهذا الأسلوب « الدبلوماسى العصامى » الفريد ، وإن كتبوا على أساليبهم ما هو جدير بالإعجاب من ناحيته فى عبارته وفحواه .

ولم يستغرق هذا الأسلوب الدبلوماسى قلم الشيخ الألمعى فى كل ما كتب من مقال أو خبر ، فقد كان للكاتب « الإنسان » قلمه الذى يجرى على هذه الطبقة من الفصاحة وحسن الأداء ، ويجرى كذلك مع العاطفة التى كان يأبى لها أن تقوده فى مواقف السياسة والمطالب العامة ، ولكنها العاطفة فى نفس « العصامى » الذاكر لعصاميته ، كيفما تقلبت به الحال بين الرضا والغضب ، أو بين الفرح والأسى .

وله فى رثاء ولده الوحيد عمر كلمات كتبها يوم نعيه ويوم تشييعه ، لم يحتفل لها بعدة من عدد البلاغة غير الشجن والتجلد والتسليم للواقع الذى بطلت فيه حيلة الألسنة والأقلام كما بطلت فيه حيلة العقول والقلوب .

نعاه قلمه فقال :

« فقد صاحب هذه الجريدة الساعة السادسة بعد ظهر أمس ولده الوحيد – عمر يوسف – فى الحادية عشرة من عمره ، بعد مرض قليل الأيام كثير الآلام . فإلى الله مآبك ياعمر ، وإلى الله مآبك أيها الزهر الذى قطفه الموت فى أزكى شذاه .

« إلى الله مآبك أيها الكبد الذى يمشى على الأرض ، ثم هوى إلى حفرة أبدية يسمونها القبر ، ولو استطعنا لكان فى القلب ، بل هناك قلبان أولى بهما أن يكونا قبره : قلب والده الحزين وقلب أمه الثكلى ... »

وعاد من تشييع جنازته فكتب الخبر بقلمه وهو يمحو سطوره بدموعه ، وقال بعد كلمات :

« خرجنا به من الدار التى ولد فيها ، فألفها منذ كان طفلاً يحبو إلى أن صار فتى يمشى بها مشية الخيلاء : من الدار التى كان يضيق فناؤها على سعته به ، فيذهب إلى الشارع وإلى المتنزهات تحيط به الخدم أن يصيبه أذى ، إلى ذلك اللحد الضيق الذى لا يستطيع أن يعيش فيه إنسان ساعة من الزمان ولكنه – مع ما به من وحشة ووحدة – أوسع المنازل بعد الموت وآنسها لمن يلقى الله طاهرًا مثل عمر .

« خرجنا به ، لا كما يخرج فى عربته إلى المدرسة يصحبه خادمه ، بل محمولاً على الأعناق مودعًا بجماهير المشيعين ، فى سرير كما تزف العروس مغشى بالحرير الأبيض مجللا بالزهور ،

ولكنه كان زفافًا محزنًا يعلوه جلال الموت خطيبًا يصيح : الصبر أجمل .. والناس يصيحون . سار مشيعوه جميعًا مطرقى الرؤوس كأن عليها الطير وتخاف أن يطير . إلا رأسين كانا يلتفتان إلى النعش بنظرات الملهوف : رأس والده الحزين فى مقدمة الجنازة . ورأس والدته الثكلى فى مؤخرتها .. فيها أربع أعين هامية ، ودونها قلبان مستعران ومهجتان زافرتان .

ويشاء القدر لهذه العصامية التى لم تفارقه فى تشييع فلذة كبده ، وأعز أهله عليه . أن تلازمه إلى أخريات حياته ، وأن تسلبه كثيرًا كما وهبت له كثيرًا . فقد صحبتها دفعة الثقة بالنفس فى مغامراتها ، فغامر فى طلب الحب كما غامر فى طلب الكسب ، فلم تكتب له السعادة فى هذا ولا ذاك ، لأنه شقى بالحياة الزوجية التى حسبها غاية الأمل نعمة وشرفًا .

وشقى بالمال الذى اقتناه فضاع كله بين عثرات الجد وعثرت الطموح والإقدام ..



٢

من المصادفات التى عرضت لى فى حياتى الصحفية ، أننى جلست على مكتب على يوسف أيامًا فى أثناء نيابتى عن الأستاذ أحمد حافظ عوض الذى كان يتولى رئاسة « المؤيد » فى تلك الأيام ، وقد دعى الأستاذ أحمد حافظ عوض لصاحبة الخديو فى رحلته التى طاف فيها بأقاليم الوجه البحرى على سبيل المظاهرة أمام الإنجليز ، لأنه أحس أنهم يفكرون فى خلعه وتعديل نظام الخديوية وولاية العهد فى الأسرة العلوية ، وقد كانت سفرته الأخيرة من مصر بعد الطواف بالأقاليم وزيارة الوجهاء والنواب فى مساكنهم واستقبال الشعب فى المنازل والطرقات والتهويل على الدولة المحتلة بمظاهر الولاء التى أراد أن تحف به قبل رحيله من الديار ، ولكنه خلع فعلاً بعد سفره بثلاثة أشهر ، واحتج الإنجليز لخلعه بانضمامه فى العاصمة التركية إلى دول أوربة الوسطى ، متابعة للدولة العثمانية .

وقد عهد إلىّ الأستاذ أحمد حافظ عوض أن أتلقى رسائله ورسائل وكلاء الصحيفة أثناء تلك الرحلة ، وأفهمنى أنه يعد العدة لتأليف كتاب عنها يقدمه إلى الخديو بعد عودته إلى الديار . .

وتقدرون فتضحك الأقدار ! . .

فلا الخديو عاد إلى الديار ، ولا عاد إليها كتشنر الذى رسم الخطة قبل سفره من مصر لتغيير نظام الحكم كله فى هذه البلاد . ولا الكتاب « المنتظر » كتب فيه حرف واحد ، لأنى رفضت العمل فيه ، واستقلت من تحرير « المؤيد » أثناء اشتغال الأستاذ حافظ بجمع الصور والتواريخ لتأليفه وتنسيقه .

ومن المصادفات أن يتفق لى الجلوس على ذلك الكرسى ، وأن أكتب على ذلك المكتب الذى لم أكد أفرغ من حملاتى على صاحبه وعلى سياسته أثناء حياته وبعد مماته ، ولا أذكر أننى لقيت فيه صاحبه غير مرة واحدة كانت هى المرة الوحيدة التى حييته فيها لكلام كتبه فى السياسة الوطنية .

وكان كثير من الشبان المصريين قد تفرقوا بين الأحزاب السياسية فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، فمال معظمهم إلى جانب الحزب الوطنى لاقتراب السن والتعليم بين

مصطفى كامل « الحقوقى » وطلاب مدرسة الحقوق الذين كانوا أكثر الطلاب اشتغالاً بالسياسة ، ومالت طائفة منهم إلى حزب الأمة وهم فى الغالب أبناء الأسر الذين تألف الحزب من آبائهم وذويهم ، ولم يجنح أحد من الشبان إلى حزب الشيخ على يوسف وهو حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، لأن خطة الحزب كانت إلى « الدبلوماسية » أقرب منها إلى السياسة أو إلى الدعوة الوطنية ، وكان « المؤيد » يتبع فى كتابته أسلوب الصحيفة التى تعتبر لسانًا شبيهًا بالرسمى للقصر والخاصة الخديوية ، وليس هذا الأسلوب بالذى يروق الشباب أو يرافق حماسته الفتية ، ولم يكن الإعراض عن « المؤيد » من جانب واحد لأنه إعراض متبادل من الطرفين ، وكان على يوسف يأبى على الطلاب أن يشتغلوا بغير الدراسة فى سنوات التعليم ، وكان مذهبه أن ينتظر رجال الغد إلى أن يأتيهم غدهم الذى هم رجاله . . أما قبل ذلك فكل ما كان يرتضيه الشيخ منهم أن يدينوا بشرعة الولاء لأمير البلاد .

وكنت من فريق الشبان القلائل الذين نفروا من الأحزاب منذ اللحظة الأولى ، فلم يكن لى حزب أتعصب له وأنتمى إليه ، ولم تكن لى صحيفة أتشيع لسياستها ومنهجها فى كتابتها ، ولكننى كنت أفضل « الجريدة » فى جانب الثقافة ، وأفضل « اللواء » فى شدته على الاحتلال والوزارة ، وأقرأ « المؤيد » لمقالاته الشرقية والإسلامية ، وأعتقد أن الخطة المثلى هى خطة « مصر للمصريين » تمييزًا لها من خطة المحافظة على السيادة العثمانية ؛ وكان بعضهم يترخص فى تسمية هذه الخطة وأصحابها باسم « حزب المفتى » لأن الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله كان أشهر المعروفين بذلك الرأى فى تلك الفترة ، ومعه فى ذلك سعد زغلول وأحمد لطفى السيد . .

على أننى - فى المعارك القلمية - كنت أجد نفسى إلى جانب مصطفى كامل كلما نشبت الخصومة الحامية بينه وبين على يوسف . وكنت أكتب إلى اللواء منتصرًا له كلما دخلت المعركة فى دور من أدوار المساجلة الأدبية ، ومن ذلك أن الشيخ على يوسف كان يكثر من تلقيب مصطفى كامل بالطائش ؛ ويتخذ لهذا اللقب شفيعًا من حساب الجمل لموافقة مجموع الحروف فى كلمة طائش واسم مصطفى كامل بذلك الحساب . . وكنت يومئذ أدرس حساب الحروف والطوالع فيما كنت أحاوله من فضول الاستطلاع ، فلفقت لعلى يوسف لقبًا مساويًا لاسمه بذلك الحساب ، وهو لقب « نورى » بفتح النون أو ضمها على السواء ، ومعنى نورى بالفتح أنه من شذاذ الآفاق المعروفين باسم النور . . وكان هو متهمًا بالانتساب إليهم كما كان يقال عنه إنه من « المسبانية » الدخلاء من ناحية جده الأول . . وواجهه خصومه فى قضية الزوجية بهذه

الدعوى أمام القضاء الشرعي ، ليثبتوا أنه غير كفء للزواج من بنت « السادات » ويؤيدوا بذلك طلب التفرقة بين الزوجين.

• • •

ثم حدثت المعركة القلمية التي جمعت الرأي العام كله على تعدد ألوانه وأذواقه في وصف واحد مع الشيخ علي يوسف ، والتي سمع فيها صاحب المؤيد هتافًا بحياته بعد عشر سنوات مضت من أيام قضيته التي شهرت باسم قضية « التلغرافات » وظل فيها الشيخ علي « بطل الساعة » في حومة الصحافة بضعة شهور ، وقد كان الهتاف بسقوط « المؤيد » وحياة « اللواء » يتكرر ويتواتر في المظاهرات الشعبية حتى أصبح على حد تعبير الظرفاء من أولاد البلد كليشيهات مسموعة ، وحتى اضطر الشيخ إلى التسليم بها وعمد إلى الشعر لتعزية نفسه ومكابدة خصومه ، كلما واجهوه بمظاهرة من مظاهراتها ، فنظم هذين البيتين :

يدعـــون للـــواء بالحيـــاة لأنـــه يعـــد في الأمـــوات
ويهتفـــون : يسقـــط المؤيـــد لأنـــه نحو السمـــاء يصعـــد

أما المعركة القلمية التي عادت الهتاف بالحياة والتحية إلى مسمع الشيخ ، فهي معركة عنيفة دارت بين الصحف ورجال السياسة حول توديع اللورد كرومر بعد خطابه الذي ألقاه على ملأ من كبار الموظفين وأصحاب المقامات « الرسمية » من المصريين والأجانب والشرقيين ، ولعل الشيخ علي يوسف قد « صعد إلى سمائه » في هذا الأفق لأنه أفق الكتابة « الدبلوماسية » ولأنه استطاع بالأسلوب « الدبلوماسي » أن يعزل اللورد كرومر وحده في ذلك الموقف بين مختلف التيارات السياسية ، واستطاع أن يكون دبلوماسيًا وحماسيًا إلى الغاية في دفاعه عن ولي نعمته « الخديو عباس الثاني » خصم كرومر اللدود.

كتب الشيخ علي مقاله في السابع من شهر مايو « ١٩٠٧ » وهو اليوم التالي لإلقاء الخطاب ، فاشترك في التهليل له والإعجاب به قراء الصحف من كل طائفة وطبقة ومن كل مشرب ونزعة ، وأهدى إليه « جوهري » كبير محبرة من الفضة المذهبة : وازدحمت رحبة « المؤيد » بالمتظاهرين والهاتفين من الطلاب وجمهرة الشباب .. ومنهم أزهريون ، ودرعميون ، وحقوقيون ، وموظفون .. وتلقى « المؤيد » رسائل التأييد ممن لم يكن يؤيده أو يطيف به من قريب أو بعيد ، فأصبح « المؤيد » لفظًا ومعنى ، وكان « أولاد البلد » يأبون عليه أن يكون كذلك إلا بالقاف القاهرية.. لأنه « يقيد » قلمه بقيود الأمير..

وفي هذه المعركة كتبت للمؤيد كلمة التأييد التي كنت في المعارك السابقة أكتبها ضده ، وقلت عن تلك المقالة الطنانة إننا :

« تلوناها كلمة كلمة وسطرًا سطرًا ، فكنا كلما قرأنا كلمة أزالت تأثير لمحة من تلك الخطبة ، وكلما تلونا سطرًا انهزم سطر منها ، حتى جئنا على آخرها ، فكأنه حل ثقل وارتفع ، أو هم جهام وانقشع ، ولا غرو أن كانت مسهبة طويلة ، فإنها تذيب سابًا كالقار أسود لا ينصهر إلا على أشد حرارة النار ».

لقيت صاحب المؤيد في مكتبه للمرة الأولى والأخيرة لأسلمه تلك الكلمة ، فاستقبلني مع رهط من الزوار والمحررين ، ورأيته يكتب وهو يحمل الورقة في يده ويلتفت إلى محدثيه خفة ثم يعود إلى ورقته بسطر فيها كأنه لم ينقطع عنها ، ثم وضع الورقة على المكتب بعد الفراغ منها ، وسألني : هل أنت طالب ؟..

ولم أكن يومئذ طالبًا ولا موظفًا بل كنت بين طالب وموظف ، لأنني كنت أستعد للعمل بمصلحة التلغراف وأتلقى دروسًا في الكهرباء والكيمياء بمدرسة الصناعة ، فقلت : بين طالب وموظف !

فابتسم واستفسرني ، وأوجزت له تفسير هذا العمل الجامع بين طلب العلم والوظيفة ، وقد نبهته ذكرى « التلغرافات » على ما يظهر فأقبل على التحدث إليّ وعاد يسألني : وما الذي أعجبك في المقال ؟.. فقلت : أعجبني المقال كله ، وبخاصة موقع الاستشهاد فيه بهذين البيتين ، وهما من شعر أبي العلاء :

ربما أحرج الحزين جوى الحز ن إلى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما ن ، فأنحى على رقاب الجياد

فقال وهو يقطع الكلمات : إذن أنت طالب .. وموظف .. وأديب ، ووعدني بنشر الكلمة فنشرها بهذا التقديم « من حضرة الفاضل صاحب الإمضاء » :

وكان الإمضاء « ع . م . العقاد » على عادة التوقيع بأوائل الحروف في المجلات الأوربية التي كنا نقرؤها .

وتشاء المعارك القلمية – والحرب سجال كما يقال – أن يقرأ الشيخ بعد ذلك هذا التوقيع تحت مقال عنه بعيد جدًا من مقالات الثناء والتأييد لأنني كنت أوقع به كتابتي في صحيفة « الدستور » صاحبها الأستاذ محمد فريد وجدي ، وفيها كتبت وصفًا مجملاً للمظاهرة

بدائية » التى لقيها الشيخ بدار الجريدة بعد سنة من تاريخ خطاب اللورد كرومر ، ولها قصة
زها فيما يلى :

« شرع المحتلون بعد عهد كرومر فى تنفيذ سياستهم الجديدة التى سميت بسياسة الوفاق بينهم
ن الخديو عباس ، فكف المؤيد عن انتقادهم ومحاسبتهم ، وتجوز المجاملة أحياناً إلى الرضا
تأييد ، وسرت فى الأمة يومئذ حركة قومية تطالب الأحزاب جميعاً بتعيين موقفها من
سياسة الجديدة ، فأعلن الأستاذ الجليل - أحمد لطفى السيد - فى خطاب شامل يلقيه بدار
الجريدة » فى شارع غيط العدة ، بياناً لموقف حزب الأمة من السياسة المصرية على العموم
مايو سنة ١٩٠٨ » .. واكتظت دار الجريدة بمئات من المستمعين بينهم كثير من الطلبة
الشبان ، ونجح الأستاذ الجليل فى اجتذاب الأسماع إليه ، ولكنى سمعت إلى جانبى همهمة
متواصلة فى أثناء إلقاء الخطاب ، ورأيت خمسة أو ستة من الشبان يخرجون ويعودون ومعهم
قراطيس ملأى بالطماطم والبيض ، ومع اثنين منهم حمائم يخفيانها تحت سترتيهما ، وهما
متحفزان .

« وكان المقصود بهذه الحركة كلها إبراهيم الهلباوى بك ، ولكنه تناولت الشيخ على يوسف
اتفاقاً حين رآه الحاضرون فى الاجتماع ، ولم يكن منظوراً أن يشهده لما بين حزبه وحزب الأمة
من الخلاف الشديد .. فما هو إلا أن فرغ الأستاذ لطفى السيد من خطابه حتى انطلقت فى جو
المكان تلك الحمائم وانطلق معها هتاف كالرعد بسقوط جلاد دنشواى .. ثم تلاه الهتاف
بسقوط المؤيد وصاحبه أو سقوط سياسة النفاق ، ونال الرجل من قذائف الحاضرين يومئذ
أذى غير قليل .. وقد وصفت الحفلة فى صحيفة الدستور فقلت إن مظاهرة غيط العدة نسخت
مظاهرة قضية التلغرافات ، وإن الشعب المصرى إذا كان قد حيّا صاحب المؤيد عند الحكم
ببراءته فى تلك القضية فقد سحب تحيته الأولى بهذه الثورة عليه ..

« ولقيت الشيخ على يوسف مرة أخرى فى تلك السنة بفندق شبرد على الأرجح ، حيث
أقيمت حفلة توديع لوفد من أعيان البلاد اعتزموا السفر إلى لندن لإقناع وزارة الخارجية بتوسيع
نصيب مصر من الحياة النيابية ، وكان هذا الوفد مؤلفاً من إسماعيل أباظة باشا ومحمد الشريعى
باشا ومحمود سالم بك والسيد حسين القصبى وعبد اللطيف الصوفانى بك وناشد حنا بك
والدكتور إبراهيم الشوربجى وبعض المترجمين والمحررين .. وحضرت هذه الحفلة منتدباً من
جريدة « الدستور » ولم تكن راضين عن مخاطبة الإنجليز فى مسألة الدستور . ولكن الصحيفة
ندبتنى لتسجيل ما أراه فى تلك الحفلة أو الوليمة على الأصح ، لأنها كانت مقصورة على من

ذكرنا من الأعيان وبعض الصحفيين ومنهم الشيخ على يوسف عن « المؤيد » وفارس نمر باشا
عن « المقطم » وآخرون .

« وفى تلك الوليمة بدا لى أن صاحب المؤيد لم ينس كلمتى عنه فى التعليق على اجتماع دار
الجريدة فسألنى : أنت ع . م . العقاد ؟ .. قلت : نعم .. قال : هل بينك وبين السيد حسن
موسى العقاد قرابة ؟ .. قلت : هى مشابهة أسماء .. فضحك ضحكة غير خالصة وقال : بل
لعلها مشابهة فى غير الأسماء أيضاً .. وهو يعنى - على ما اعتقدت - ثورة السيد حسن موسى
وتمرده ، لأنه كان فى أكثر أحواله مغضوباً عليه من المؤيد وشيعته الساسية » .

ولا أذكر أنى قابلت الشيخ فى مجلس من المجالس الخاصة غير هذه المقابلات أكثر من
مرتين ، يحضرنى فى إحداهما حديث عن الرتب والنياشين بمكتب أحمد زكى باشا السكرتير
العام لمجلس النظار ...

وكنا مع زملائنا الصحفيين فى طوفتنا اليومية بين « نظارة » الداخلية ومجلس النظار لتسلم
نشرات الأخبار الرسمية التى تطبع فى الدواوين وتوزع على مندوبى الصحف فى مواعيدها
اليومية ، وقد نشر فى ذلك اليوم خبر الإنعام على أحمد زكى باشا برتبة من رتب التشريف
أظنها الباشوية ، فخطر لنا - نحن زمرة الصحفيين - أن نمر به مهنئين باعتباره زميلاً كبيراً فى
صناعة القلم ، فوجدنا عنده الشيخ على يوسف يهنئه ويحدثه فى مسألة من مسائل المجلس ،
وكان معنا الأستاذ جورج طنوس مندوب « الوطن » لصاحبه جندى إبراهيم ، وكان جورج
مشهوراً بين زملائه وعارفيه باللجاجة وقلقلة الحديث ، فتطوع للنيابة عنا وافتتح التهنئة مخاطباً
السكرتير العام على النغمة التى كانت مألوفة فى ذلك المقام ، فجعل يقول له بصوته الجهورى
كلاماً فى هذا المعنى : « إن الرتبة تزدان بك ولا تزينك ، وإن الباشوية لقب يفخر به صاحب
العزبة وصاحب الثروة من المال والعقار ، وأما صاحب القلم فهو يذكر باسمه - أحمد زكى -
وكفى ، وبهذا نناديك أيها الكاتب الكبير ولا نزيد .. » .

وقاطعه الشيخ على متململاً ، وتوقعنا أن يقول شيئاً يرد به على تهنئة الزميل اللجوج لأكثر
من سبب .. فإن رجلاً يعلم الناس أنه لسان حال القصر بأبى له « دوره » السياسى ، إن لم تقل
شعوره النفاق ، أن يوصف أمامه إنعام الأمير بأنه تحصيل حاصل ونافلة من النوافل التى لا
يحفل بها أصحاب الأقلام ، وإذا سكت على يوسف - لسان حال الأمير - عن هذا
الاستخفاف بألقابه ونعمه فمن العسير أن يسكت عنه على يوسف « موزع » الرتب والنياشين ..
إذ كان للرتب والنياشين موزعون معروفون يبيعونها بأسعارها من رتبة الميرميران الرفيعة بألف جنيه

إلى رتبة البيكوية من الدرجة الثانية بثلثمائة أو أربعمائة جنيه ، لأن بخل عباس الثانى كان يأبى عليه أن يسخو بالإعانة من ماله على كبار الأعوان أو يسخو بها على إدارة الصحف الكبرى كما احتاجت إلى المال الكثير ، وكانت لصغار الصحفيين إعاناتهم من « ميزانية المعية السنية ، ومن هبات ديوان الأوقاف ..

أما « المشروعات الصحفية الواسعة » فقد كان المعول فى سداد نفقاتها على أثمان الرتب والنياشين ، وكان لها موسمها كل عام فى مناسبات الأعياد والمهرجانات الخديوية ، فكانت الحصة الأولى من هذا المحصول السنوى للشيخ على يوسف وأعوانه فى الإسكندرية وعواصم الأقاليم ؛ وكان سكوت الشيخ عن تهوين شأن هذه « السلعة » على مسمع منه غير معقول ولا منتظر ، ولعل صاحبنا جورج طنوس لم يقل كلمته تلك إلا وهو يتعمد إثارة الشيخ واستفزازه للرد عليه ، ولم يمهله الشيخ – فعلاً – أن يتم كلامه إلى نهاية ثرثرته التى لم تكن لها نهاية . فاسوقفه متبرمًا وقال وهو يخاطبه خطاب من يعرفه ولا يجهل عاداته بين زملائه : « مهلاً .. مهلاً .. يامعلم .. إن الرتبة تقدير من ولى الأمر وتقرير لفضل صاحبه بين من يعرفونه ومن يجهلونه ، وهل ترفضها يامعلم جورج ؟ .. » .

ثم التفت إلى السكرتير العام فأعاد عليه التهنئة وهو يقول : سيهنئك أصحابنا هؤلاء بمزيد من الرتب إلى أعلاها وأرفعها إن شاء الله ! » .

* * *

أما مقابلات الطريق فقد كانت مركبة الشيخ تصادفنا أحيانًا فى طريقنا مع أصحابنا من العباسية حيث أسكن إلى الحى الحسينى حيث نلتقى بأكثر إخواننا الأدباء ، أو إلى مقهى عابدين إلى جوار مدرسة الحقوق القديمة حيث كنا نلتقى بطائفة من الطلاب الحقوقيين وغير الحقوقيين ، وليست هذه المقابلات العرضية وسيلة من وسائل التعريف تفيدنا كثيرًا فى كلام نكتبه عن الشيخ كما عرفناه ، ولكن إحدى هذه المقابلات ربما عرفتنا بالشيخ فى خليقة من خلائقه التى أثرت عنه طوال حياته وهى خليقة « المحافظة » على السمت القديم كما نشأ عليه ، وربما عرفتنا مقابلة أخرى بهوى من أهواء نفسه أو أهواء قلبه التى كادت تشغله كما شغلته المحافظة على شارة السمت والوقار .

ورأيناه مرة فى طريقه إلى قصر عابدين فى يوم من أيام التشريفات فرأينا عجبًا من أزياء الرتب المدنية ، لأنه حافظ على العمامة مع كسوة التشريفة التى تؤهله لها رتبته الرفيعة ؛ ولم يشأ أن يغير عمامته كما غيرها الكثيرون ممن يلبسون كسوة الباشوية وكان يبدو وهو جالس كأنه يلبس

العمامة على « بدلة الأفندية » من لابسى السترة والبنطلون ، وهو زى كان يتزيى به فى القاهرة أبناء طائفة واحدة هى طائفة عمال شركة النور الذين كانوا يخرجون إلى الشوارع فى المساء بستراتهم الملونة وسراويلهم الافرنجية لإشعال مصابيح النور ، وقد سخر إخواننا الشبان بهذه المفارقة وتنادروا بها غير قليل ، ولكننى فى الواقع أعجبت بالرجل لهذه المحافظة وهو يتحدى العرف والسخرية ، وأحسست فيها عصامية تأبى أن تفصل مظاهر الألقاب بينها وبين ماضيها ..

ومرة أخرى رأيت الشيخ مع السيد توفيق البكرى قادمين فى مركبة واحدة من قصر السيد بالخرنفش إلى ناحية باب الحديد ، فإذا هما فى زى واحد من ملابس النزهة الفضفاضة على غاية من الأناقة التى يقصدها القاصد من لابسى هذا الزى التقليدى فى القاهرة الفاطمية ! .. وزاد المشبهة فى لون الكساء وتفصيله وهندامه أن الشيخ والسيد كانا نمطًا واحدًا فى البنية والقامة وصورة الوجه الدقيق والرأس الصغير ، فكأنما كان الشيخان فى تلك « الطلعة » الانيقة فتيين من فتيان الحسينية الظرفاء يتبادلان المجاملة بهذه المراءاة « الودية » فى معرض من معارض الصبوة .. ولكنها صبوة فى حدود « التقاليد » على سنة « المشيخة » من أئمة الطريق .. وكلا الرجلين كان من أبناء « الطريق » فى مقام الرئيس أو مقام المرشح للرئاسة !

ولا ننسى أن « قضية الزوجية » قد عملت عملها المنتظر فى الاندفاع بالشيخ إلى هذه الطلعة العاطفية .

إن السيد البكرى كان طراز القدوة المختارة بين أبناء طبقته وزيه فى الوسامة والقسامة ووجاهة المركب والشارة ، وقد طمح الشيخ إلى البناء بأكرم الكرم ثم من بيت السادة الوفائية ؛ فهل تطيب نفسها أن تراه ، وتراه أترابها معها ، فى طلعة دون طلعة الطراز المرموق من سلالة السادة البكرية ؟ !

على أنها فتنة « عاقلة » لم تجاوز حدودها التقليدية فى نطاق المشيخة كما تقدم ، ولم يسلم حافظ إبراهيم من غلو الشعر حين قال فى وصف تلك الصبوة من الشيخ الكهل أنه :

أتاه الغرام بسن الشيوخ فجن جنونًا ببنت النبى

فإن الصبوة لم تخرج الرجل قط عن سمته الذى طبع عليه طبعًا وتكلف ما لم يطبع عليه منه تكلفًا طويلاً ؛ وماكان لمثل تلك الصبوة أن تنسى الرجل كل ماكان يشغله فى بواكير شبابه إلى خاتمة حياته : وهو شاغل « المقام » الملحوظ بين ذوى الشرف الموروث من علية السادة وذوى القدر والمهابة ، وربما كان تخففه المتأصل فيه هو الذى ألزمه ، على غير اختيار منه ، ديدن

المحافظة إلى حد الاحتجاز ، أو الاحتجاز إلى حد الانزواء ، أو الانزواء إلى حد الاستكانة التى لم تفارقه بعد ارتفاعه بالجد والجهد معًا إلى حيث أراد من دنياه .

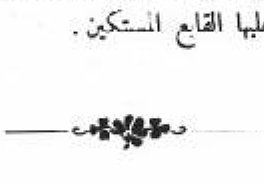
كتب الأمير شكيب أرسلان فى عدد يناير من المقتطف (١٩٢٧) فى روايته لبعض ذكرياته عن صاحب المؤيد :

« كنا نجتمع دائمًا فى مجلس المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وأكثر ما نسمر عند صاحب الدولة سعد باشا زغلول وهو يومئذ سعد أفندى زغلول المحامى الشهير بمصر ، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الحلقة اسمه الشيخ على يوسف ، يأتى فيجلس فى الآخر ويلبث أكثر المجلس ساكتًا مستمعًا ونكاد نرثى له لضعفه ومسكنته .. » .

ولا نستغرب أن يرى « على يوسف الشاب » فى إبان فقره وانقباضه وخفاء ذكره على سمة توصف بالمسكنة التى يرثى لها من يراه ، لأن الناظر إلى صاحب المؤيد بعد ارتفاع الشأن وذيوع الصيت كان يستطيع أن يصفه باستكانة تشبه المسكنة إذا نظر إليه وهو صامت ساكن بين الجلساء والنظراء ، لولا أن الاستكانة صفة لا يوصف بها المرء وهو يملأ الدنيا بما يقوله وما يقال فيه ... !

وإنما هو مزاج أصيل فطر عليه هذا العصامى الناجح وعرفه من ذات نفسه فعرف ما خلق له وما لم يخلق له من أول مسعاه ، فلم يضيع جهده عبثًا فى غير ما يستطيع .

إنه خلق لكل ما يبلغ المرء بالذكاء والحيطة ولباقة القلم وحضور الخاطر وحسن التفاهم مع القلاقل المعدودين من النافعين والمنتفعين ، ولم يخلق للسيطرة الغالبة فى جلبة الزحام ولا للعظمة المزهرة بالطنين والخيلاء ، فانتهى إلى غايته وهو يبدو فى زاويته كالقابع المستكين ، لولا أنه يقدر على خطوب لا يقدر عليها القابع المستكين .





مصطفى كامل

مصطفى كامـــل

☐ ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤ ، وكان عمره ثماني سنوات عندما احتل الجيش الإنجليزي القلعة في الحي الذي نشأ فيه ..

سنوات ثمان تسمى بحق سنوات الثورة ، ولكنها أحق من ذلك أن تسمى سنوات الخطابة ، لأن الثورة قد اشتعلت اشتعالها الأكبر قبل ختامها . أما الخطابة فقد كانت في أوجها عند مولد الزعيم ، وبلغت قمة ذلك الأوج عند دخول جيش الاحتلال ..

كان حي الصلبية الذي ولد فيه الزعيم الخطيب أحد الحيين الكبيرين اللذين تنافسا على الوطنية القاهرية عدة أجيال ، وكان هذا الحي أحفل بمعالم الحركة الوطنية من الحي الآخر الذي كان ينافسه « الفتوة » على عهد الحملة الفرنسية ، لأنه حي القلعة التي كانت مسكن الوالي ثم صارت معسكر الجيش المحتل وبقيت إلى جوارها ساحة المحافل القومية من ركب المحمل إلى ركب الولاية بعد مبايعة الأمير . إلى ركب العروض العسكرية .

وكانت مساجد هذا الحي أعمر المساجد بالخطباء الثوريين ، ولم يكن في القاهرة مسجد أعمر منها غير الجامع الأزهر في تلك الفترة . وهو في المكان الأوسط بين طرف الصليبة من ناحية وطرف الحسينية من الناحية الأخرى .

كان مصطفى كامل في الخامسة أو السادسة يوم كان « عبده الحامولي » يسأل : أين نسمعك هذه الليلة ؟ فكان يجيب مازحاً : أنا الليلة سهران مع عبد الله نديم في فرح آل فلان ..

ولم يكن « عبد الله نديم » وحده خطيب هذه الحفلات ، بل كان معه عشرات الخطباء المعممين والمطربشين يتداولون منابر المساجد والأعراس ، ممن لم يشتهروا شهرة عبد الله نديم .. وكان يصحب أستاذهم الأكبر تلميذه الناشيء « مصطفى ماهر » في سن تكبر سن مصطفى كامل ببضع سنوات : وهو التلميذ الذي قال عن النديم مرة إنه أخطب من « غلادستون » ، لأنه تكلم في أربعة موضوعات وغلادستون لا يحسن أن يتكلم في أكثر من موضوع !

وانقضت سنوات الصدمة الأولى بعد الاحتلال في ركود من حركة الخطابة ، وفي ركود من كل حركة سياسية أو اجتماعية ، ولكنها كانت بمثابة فترة الانتقال بين اختفاء الخطباء الأول

ولاح لى أن « الباشا » لم يسترح لهذا التعقيب ، ولم يتقبل منه الإشارة إلى خطئه فى اختياره ! وإن لم يكن فى الأمر غير فكاهة تتلاقى فيها التخطئة والتصويب .

صورة مصطفى كامل التى بقيت فى خلدى مدى الحياة هى الصورة التى انطبعت فيه من أثر هذه الرؤية الأولى ..

حركاته كلها كانت تنم على إحساسه بدقة تكوينه ، يبدو ذلك من شموخه وزهوه كما يبدو من طول طربوشه وارتفاع كعبه ، ومن سترة « البنجور » التى كانت لا تلائم سنه وهو دون الثلاثين ..

وهذا البيت من قصيدة أبى لعلاء - أليس فيه تعريض بالأجسام التى تسد عين الشمس فتحجب الضياء ولا تجود بقطرة من الماء ؟

وربما شغلته دقة تكوينه بسمت الوقار ، فلم تسمح له بمجاراة روح الفكاهة ولاسيما الفكاهة على حسابه . والفكاهة التى فيها تخطئة لاختياره .

وقد كان من شأن المواقف الأخرى التى اقتربت فيها من شخص مصطفى كامل أن تؤكد هذه الصورة ولا تمحو عندى ظلاً من ظلالها ..

كنت أحرر صحيفة « الدستور » مع صاحبها الأستاذ محمد فريد وجدى ، وكان الأستاذ وجدى أحد الأعضاء الذين دعوا إلى تأسيس الحزب الوطنى قبل وفاة مصطفى كامل ببضعة أشهر ، فلما انتهى رئيس الحزب من عرض برنامجه اقترح إرسال تبليغ بالبرق إلى وزارة الخارجية البريطانية لإعلانها تأليف الحزب الوطنى ومطالبتها بالجلاء فأقره الأعضاء جميعًا على اقتراحه ماعدا الأستاذ « وجدى » الذى كان من رأيه أن يعمم إرسال التبليغ إلى جميع الدول ، دفعًا لشبهة « المركز الخاص » الذى تدعيه بريطانيا العظمى باحتلالها هذه البلاد ، فأبى مصطفى تعديل اقتراحه وأصر على طلب قبوله بصيغته التى عرضه بها على الأعضاء ، وكاد أن يقاطع صاحب « الدستور » فلم يتبادلا الزيارة بعد ذلك .. إلى أن توفى مصطفى فخرج صاحب « الدستور » من قطيعته ورثاه بمقال حزين جعل عنوانه : « مال أكبر رأس فى مصر . إنا لله وإنا إليه راجعون » .. فلم تزل كلمة « أكبر رأس » تعلق بذاكرتى منذ ذلك اليوم إلى أن ذكرتها فى كلمتى عن « الملك أحمد فؤاد » بمجلس النواب : أكبر رأس تحطم الدستور ..

• • •

كنت أحرر صحيفة الدستور مع صاحبها كما تقدم ، وكان صاحبها عضوًا فى الحزب

الوطنى .. والصحيفة لسان من ألسنة هذا الحزب القليلة فى ذلك الحين بين الصحف اليومية والأسبوعية .. كانت « الدستور » لسان الحزب الثانى و« اللواء » لسانه الأول ، ولكنى لم أشترك فى الحزب بعد إعلان تأليفه كما اشترك فيه زملاؤنا الصحفيون .. ولا يخطر لى الآن ، ولم يخطر لى قبل الآن أن تلك الصورة التى ارتسمت فى ذهنى من لقاء مصطفى كامل للمرة الأولى هى التى أخرتنى عن طلب الاشتراك فى حزبه ، فلم يزل مصطفى كامل أحب المجاهدين إلينا فى حومة القضية الوطنية بين أصحاب الصحف وأعلام القضية المصرية يومذاك ، وكنت أتشيع له إذا نشبت المعركة بينه وبين خصومه كما تقدم فى الكلام على الشيخ على يوسف - صاحب « المؤيد » - وبعد أن عرفت من حقائق الدعوة الوطنية وحقيقة نفسى ما لم أكن أعرف أستطيع أن أقول إن اختلاف الطبيعة البعيد قد رسم أمامى مثالاً للإمامة المذهبية غير هذا المثال ، فإن مصطفى كامل كان من أصحاب الطبيعة الخطابية الشعورية وكانت الطبيعة الأدبية والفكرية أقرب إلىّ وأحرى بالاتباع ، فضلاً عن نفور أصيل عندى من التقيد بالحزبية فى الرأى أيًا كان مقصدها فى السياسة أو الأدب أو الثقافة على الإجمال .

واختلاف الطبيعة هو الذى جعل لى سبيلاً فى المسائل القومية غير السبيل التى كان يختارها مصطفى كامل فى كثير من مواقفه العامة ..

فلم يعجبنى موقف المصرى المتوسل أمام تمثال فرنسا يناجيها ويناديها :

يا فرنسا يا من رفعت البلايا عن شعوب نهوها ذكراك

أنقذى مصر إن مصر بسوء وارفعى النيل من مهاوى الهلاك

ولم يكن أدب فرنسا ، ولا ما اطلعنا عليه من تاريخ ثورتها ، داعياً عندنا للثقة بنجدتها واستعدادها لإنقاذ مصر أو سواها ، ولم تكن طبيعتى التى تأبى طلب المعونة من القادرين عليها كما تأبى طلبها من العاجزين عنها مما يقتنع بإمكان التعويل فى قضية الاستقلال على معونة دولة قط ، من الدول الكبار أو الصغار .

ولهذا أيضًا لم يعجبنى تعليق الاستقلال المصرى بالسيادة العثمانية . لأننا على عطفنا الدائم على الدولة العثمانية فى مكافحتها للتعصب الأوربى لم نكن نفهم أن هذا العطف ينتهى بجهادنا إلى الرضا باستقلال تشرف عليه سيادة دولة أخرى ، وقد كان مصطفى كامل يمزج كثيرًا بين المصرية والعثمانية حتى فى أحاديثه الخاصة .. كما قال فى جوابه لسؤال الجنرال « بارنج » شقيق لورد كرومر : هل أنت مصرى أو عثمانى؟ فكان جوابه : مصرى عثمانى . وعجب الجنرال بارنج فعاد يسأله : كيف تجتمع الجنسيتان ؟

قال مصطفى : ليس فى الأمر جنسيتان ، بل فى الحقيقة جنسية واحدة ، لأن مصر بلد تابعٌ للدولة العلية ، والتابع لا يختلف عن المتبوع فى شىء من أحكامه .

ولقد أوشكت ثورة مصطفى كامل أن تنحصر فى الثورة على الاحتلال ، ولا تنظر إلى تبديل شىء من النظم السياسية أو الاجتماعية .. فلم يكن فى نزعات نفسه ، ولو قبس ضعيف من الثورة على المساوئ الخديوية ، ولم يختلف فى كثير ولا قليل عن أبناء عصره فى تعظيم الألقاب الرسمية واعتبارها « إنعامات » مشرفة لمن يتلقاها ، بل كان على صلة بالقصر الخديوى فى التوسط بين طلابها وبين الأمير لتوزيعها على من يتطلع إليها ، ولا شك أنه كان أنظف الساسة الذين كانوا يومئذ يتوسطون مثل هذه الوساطة ، لأنه كان ينفق منافعها على خدمة الدعوة الوطنية لحاجته إلى المال فى هذه الدعوة وبخل الخديو بالمال الكثير أو القليل بغير هذه الوسيلة ، ولكن إيمان مصطفى كامل بشرف هذه الرتب والألقاب ربما كان أدعى إلى النقد من وساطته فى توزيعها ، فقد بلغ من إيمانه بها أنه لم يصدر « اللواء » يوم جاءه خبر الإنعام عليه بالباشوية من دار الخلافة إلا بعد تغيير « الكليشه » الذى كان اسمه فيه متبوعًا بلقب الباشوية .

جاء فى الجزء الثالث من مذكرات أحمد شفيق باشا وهو أحد رؤساء الحاشية الخديوية :

« إن الرتب أصبحت كالسلع السهلة . وكان لهذه التجارة وسطاء كثيرون ، منهم الشيخ على يوسف ، وحسين بك زكى ، وأحمد بك العريس ، وإبراهيم بك المويلحى وهو مقيم بالآستانة يأتى كل شتاء لأخذ بضاعته من مصر ، وأحمد شوقى بك الشاعر ومصطفى كامل الذى كان ينفق ما يأخذه فى الدعاية لقضية مصر . » .

ولا شك فيما قاله صاحب المذكرات من تخصيص مصطفى كامل بين سماسرة الرتب والنياشين بالإنفاق من منافعها على الدعاية الوطنية ، ولا سيما الدعاية فى العواصم الأوربية ، ولكن حرص « الباشا » على الوجاهة التى لا تقل عن وجاهة الأمراء ربما كلفته هناك أضعاف نفقة الدعاية .

ولم تخف دخائل هذه الأحوال على طائفة الصحفيين ، والمشتغلين بالسياسة الوطنية ، ولكنها لم تنقص من قدر الزعيم الشاب ، ولم تشكك أحدًا فى إخلاصه لدعوته وغيرته على قضية بلاده ، وبلوغه بالشعور الوطنى مبلغ الهوى الذى يملك على العاشق لبه ويجرد هواه للأوطان من تقدير الوطن بحساب المبادئ والواجبات أو حساب المطالب والآمال ، فقد كان مصطفى كامل من أكثر المجاهدين شفيعًا إلى قلوب أنصاره وخصومه ، لنزاهة أخطائه جميعًا من شائبة الغرض المتدنى والنفاق اللئيم .

إن الزعامة السياسية لا تخلو من أخطاء فى الحياة العامة أو الحياة الخاصة ، وربما كانت زعامة مصطفى كامل أقل الزعامات خطأً فى أوائل دعوتها . ولست أذكر أننى تبينت هذه الأخطاء أو تبينت غيرها من الأخطاء السياسية بحثًا وتفكيرًا وإمعانًا فى تحقيق المطالب الوطنية وتحقيق أساليب العمل لها والوصول إليه . فإن هذا البحث جهد لا يطيقه عقل صبى فى الخامسة عشرة أو شاب فيما دون العشرين وهى سنى يوم عملت فى الصحافة اليومية ، فلا أذكر – إذن – أنى أحجمت عن الاشتراك فى حزب مصطفى كامل بعد البحث المفصل والموازنة الواعية بين مقاصد الزعامات السياسية وطرائق الزعماء فى ذلك الحين ، ولكن الذى أذكره جيدًا أننى كنت أقرأ مقالات مصطفى كامل وأسمع خطبه فأحمد له غيرته وأعجب بصدقه فى جهاده ، ولكننى أرانى أمام منهج من الكتابة والقول غير المنهج الذى أتلقى منه رسالة الفكر والعاطفة وتستجيب إليه بديهتى المتطلعة إلى الوعى والمعرفة . فإن ذلك الأسلوب « الخطابى الشعورى » الذى كان له أبلغ الأثر فى جمهور مصطفى كامل لم يكن هو ذلك الأسلوب المختار لدى عهدته فيما اطلعت إليه من كلام مقروء أو كلام مسموع .

ولعل أشهر الأمثلة للأسلوب « الخطابى الشعورى » الذى كان ذريعة التأثير الكبرى فى خطب مصطفى كامل قوله فى خطبة زيزينيا الكبرى وهى أقوى خطبه وآخرها قبل وفاته إذ يقول :

« بلادى .. بلادى .. لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يامصر ... »

فإن هذا الإطناب وما شابهه لا يعطينى ما أتطلبه من الإقناع ولا من العبارة الأدبية عن العواطف ، وإنما هو أشبه بدقات النفير تكرر على وتيرة واحدة لتحتفظ بأعصاب السامعين فى طبقة من درجة من الانفعال والتنبه ، سواء كان هذا الانفعال للوطنية أو لغيرها من العقائد الشعورية .

وأحسب أن قدرة مصطفى كامل على هذا النوع من التأثير كانت تطغى على كل قدرة خطابية فيه ، ومنها القدرة على الإقناع .. فلم تبلغ قدرته على الإقناع فى كلام قرأته له أو سمعته عنه مبلغًا يسوقه إلى الإعراب عنه أو إعطائه نصيبًا من أسباب التأثير إلى جانب الحركة الخطابية الشعورية ، وأسميها « الحركة » ، لأنها فى الواقع أقرب إلى بواعث الحركة « اللاإرادية » من مجامع الأعصاب .

ولا يظهر ذلك فى الخطب كما يظهر فى الأحاديث الخاصة والمساجلات الشفوية ، فلم يكن


محمد فريد

مصطفى كامل المتحدث مقنعًا للجزال « بارنج » حين سأله هذا : هل هو مصرى أو عثمانى ؟ فقال له إنه مصرى وعثمانى معًا لأن التابع يشبه المتبوع فى أحكامه .. فماذا لو قال له الجزال : ولكن التابع لا يحسن به أن ينتهى التبعية وأن « يتحمس » لها ويصر على البقاء .. وقد يحمد من المتبوع أن يستبقى علاقته بتابعه ولا يحمد من التابع أن يستبقى تلك العلاقة برضاه .. !

وإنه لمن ضعف الإقناع أن يفوت الزعيم الوطنى المتحدث أن يجيب « بارنج » سائلاً : هل أنت إنجليزى أو بريطانى ؟ .. فكل جواب لهذا السؤال محرج للمجيب موافق للمصرى العثمانى من وجهة نظره فى مناقشات السياسة مع البريطانيين الإنجليز.

وخلاصة ما بقى فى نفسى من أثر لهذا الزعيم المجاهد – كما عرفته – أنه كان نعم الزعيم على منهجه وسجيته ، ولكن زعامته كانت تتسع فى عصره – وبعد عصره – لزعماء آخرين على مناهجهم وسجاياهم ، لأن الوطنية المصرية كانت تشمل مصطفى كامل بكل ما احتواه من غيرة وحماسة ، ولكنه رحمه الله لم يكن يستغرق الوطنية المصرية بكل ما تحتويه أو ينبغى أن تحتويه . ٥

يسوقها إليها الاحتفاظ بالسيادة على أمم البلقان . فكتبت فى مجلة « البيان » – سنة ١٩١٢ – مقالا بعنوان « مستقبل الدولة العثمانية » قلت فيه : « كذلك زلزلت الصدمة قلوب العثمانيين ييئسوا من الدنيا ، كأن أوربا هى كل الدنيا . ولو كانت الدولة العثمانية شجرة لا تنبت إلا فى أوربا لحق لهم ألا يرجوا منها بعد الآن ثمرًا . ولكننا شرقية المنبت ، وهذه أرومتها لا تزال فى الشرق ، وما هذه الولايات الأوربية إلا فروع منها لا يميتها انفصالها منها . وقد كان يمكن أن يدور التاريخ دورة غير التى دارها فلا تتحول أنظار محمد الفاتح البتة إلى القسطنطينية .. » .

وهذا رأينا القديم فى مسألة السيادة العثمانية على الأمم الأجنبية ، فأحرى به أن يكون هو رأينا الأقدم فى مسألة السيادة على هذه البلاد .

لقد كنت أومن بهذه العقيدة وأنا أشد ما أكون غيرة على الدولة العثمانية واهتمامًا بماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ومن أجل ذلك شغلت نفسى بقراءة مئات الصفحات فى ذلك التاريخ وأنا لا أعدو الرابعة عشرة ، ومن أجله كتبت ما كتبت عن مستقبلها لأنه – على ما اعتقدت – هو المستقبل الوطيد الذى تستقر فيه على أساس المنعة والتقدم والسلام .

وجئت إلى القاهرة وأنا أسمع اسم « محمد فريد » الوطنى المخلص ، ولا أنسى اسم « محمد فريد » العالم المؤرخ !

ولقيته مرات فى المجتمعات الكبيرة والمجتمعات الصغيرة ، ولكنى لم أتحدث إليه فى مجلس خاص غير مرة واحدة .

وكان ذلك فى مكتب صحيفة « الدستور » ..

كان هذا المكتب فى منزل بدرب الجماميز إلى جوار ديوان المعارف العمومية .

وكان الدور الأرضى منه مخصصًا للمطبعة ، والدور الثانى على قسمين : أحدهما مسكن الأستاذ الجليل محمد فريد وجدى بك صاحب الدستور ، والآخر مكتب التحرير والإدارة ..

وكان الأستاذ وجدى بك يؤثر الكتابة فى مسكنه ، وقلما يجلس فى مكتبه إلا لاستقبال زائر أو مراجعة عمل من أعمال الصحيفة .. وإذا بـ « محمد فريد بك » يحضر إلى الدار ذات يوم على غير موعد ، فجلست معه نتحدث إليه ريثما يرتدى الأستاذ وجدى بك ويحضر للقائه ..

ولست أذكر تاريخ اليوم على التحقيق ، ولكنى أذكر أنه كان بعد أوائل شهر مايو سنة ١٩٠٨ لأن حديثى مع « سعد » رحمه الله كان مدار الكلام فى تلك الفترة ، وقد جرى حديثى

مع « سعد » حول ذلك التاريخ ، وكان أول حديث لصحفى مصرى مع أحد الوزراء المصريين .

قال « فريد بك » رحمه الله بعد أن عرفنى ! « إنك لتحفظ لجارك فى درب الجماميز حق الجوار » .

ففهمت ما أراد ، وقلت : « وهو حقيق بحفظ الجوار » .

ثم انتقل الكلام إلى تعليم اللغة العربية ، فقلت : إن تحويل التعليم من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية فى جميع مراحل التعليم لا يتأتى فى شهر واحد ولا فى سنة واحدة ، لأنه خطوة لابد أن تسبقها خطوة أخرى من تخريج المعلمين وتأليف الكتب أو ترجمتها .

ووافق ما قلت أن سعدًا قد أمر فى تلك السنة نفسها بتعيين المتخرجين من مدرسة المعلمين للتدريس فى المدارس الثانوية ، والابتداء بالتعليم باللغة العربية فى السنة الأولى من تلك المدارس ، ثم فى السنة الثانية .

ولاح لى أن « فريد بك » لا يصر كثيرًا على قوله فى هذا الموضوع ، ويحيل فيه إلى ما يذكره الشيخ عبد العزيز جاويش .

ثم حضر الأستاذ وجدى واستأذنت فى الذهاب إلى مكتبى ، وانصرف فريد بك بعد قليل .

تلاحقت الضربات على ذلك الزعيم الكريم وذهب الاضطهاد الطام بثروته العريضة ، وهى تقدر يومئذ بمئات الألوف .

وغادر الرجل القطر ليستطيع العمل فى حرية وطلاقة ، واستقر به المطاف فى عاصمة الدولة العثمانية .

وهنا تتجلى بطولة « فريد » ..

لقد كان « فريد » يناصر الدولة العثمانية وهو فى غنى عنها ، ولعلها هى التى كانت فى حاجة إلى مناصرته .. وكان رأيه فى علاقة مصر بالدولة العثمانية ذلك الرأى الذى أعلنه حزبه فى تقريره عن حوادث سنة ١٩٠٧ : وهو أولاً ، استقلال مصر كما قررته معاهدة لوندرة فى عام ١٨٤٠ وضمنته الفرمانات السلطانية ، ذلك الاستقلال الضامن عرش مصر لعائلة محمد على ، والضامن للاستقلال الداخلى للبلاد » .

وهو أخيرًا « بذل الجهد لتقوية علاقة المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية » .

ولقد غادر « فريد » وطنه والعداء بينه وبين الخديو عباس على أشد ما يكون العداء . وقد علم وهو فى الآستانة أن العسكريين من رجال الدولة يقصدون بالحملة على مصر فى أثناء الحرب العالمية الأولى أن يغيروا نظام الحكم فى البلاد المصرية ويتعرضوا لحقوقها وحقوق عرشها .. علم هذا وهو فى قبضة أيديهم ، ولعله فى حاجة ماسة إلى كل معونة منهم ، ولا ملاذ له من غضبهم فى مصر لأنها موصدة أمامه ، ولا فى أوربا لأنها تضطرب بأهوال الحرب فى كل بقعة من بقاعها ، فلم يحفل بشىء مما يصيبه من جراء غضبهم ، وراح يعلنهم باستنكاره لخططهم واحتجاجه عليهم ، وعلق فى عروة كسائه شعار « مصر للمصريين » وقد كان أبغض شعار إلى القائمين بالأمر فى الآستانة يومئذاك !

حدثنى صديقى الفاضل الدكتور حسين همت بك – وهو ممن شهد تلك الأيام فى الآستانة أن طلعت باشا – أخطر رجال الدولة التركية فى عهده – كان يتمعض كلما لمح ذلك الشعار الذى يحمله فريد وصحبه ، وكان يعجب لأنهم ينكرون على الترك حكم مصر ، وأنهم ليتكلمون التركية خيرًا مما يتكلمها أهل الآستانة !

ومع هذا ظل فريد وصحبه يحملون شعارهم ، ويعلنون استنكارهم حتى تعذر عليه البقاء فى العاصمة التركية ، فهجرها إلى أوربا ليتنقل بين ربوعها على غير هدى ، ويشق بتلك المعيشة الضنك فى ظلمات تلك الغاشية العالمية ، بغير أمل وبغير عزاء ..

نعم المثل للوطنية الصادقة ذلك الشهيد الكريم ..

رحمه الله ، وخلد ذكراه ..

مصطفى لطفى المنفلوطى

مُصطفى لطفي المنفلوطي

□ في فترة من تاريخ ثقافتنا ، وفي أيام لا تتجاوز أيام الحرب العالمية الأولى ، كان السائل يسأل : من أكتب الكتاب في لغتنا العربية ؟ فيسمع الجواب من الكثرة الغالبة بين قراء تلك الفترة : إنهما اثنان : الشيخ على يوسف والشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي !

وربما حرص المجيب على تقديم لقب الشيخ على الاسم ، خلافا للعادة في تداول أسماء المشهورين ..

وكانت عصبية لاشك فيها ، قد نسميها بالعصبية الأحرية ، أو العصبية المحنية ، أو العصبية الفخرية ؛ ولكنها - بأي الأوصاف وصفناها - وزنة لازمة لتصحيح التقدير في موازين الأدب والأدباء ، فلا تصح هذه الموازين ولا تعرف الحقائق التي كمنت زمنًا وراء أسباب الإقبال والإعراض على مدارس الكتابة عندنا بغير الوقوف على معنى تلك العصبية .

ونسأل : ما معناها ؟

فلا نستطيع أن نقول إنها عصبية بين المعممين والمطربشين ، لأن السيد توفيق البكرى والشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ حفني ناصف قبل ذلك كانوا من المعممين . ولكنهم لم يحسبوا في عداد الزمرة التي تجنح إليها تلك العصبية وتخصها بالتنويه والتفضيل .

كذلك لا نستطيع أن نقول إنها عصبية السبق إلى موضوع الكتابة المختارة . فإن المويلحي الكبير والمويلحي الصغير قد سبقا معًا إلى الكتابة في موضوع المقالة الإنشائية والمقامة الأدبية ، وكتب كلاهما في الصحف السياسية كما كتب على يوسف دائمًا وكما كتب المنفلوطي أحيانًا ، ولكنهما لم يحسبا في عداد تلك الزمرة ، ولم يسمع لكتاب « عيسى بن هشام » ذكر بين نماذج الإنشاء التي اختارها للتلاميذ مدرسو اللغة العربية كما اختاروا مقالات « النظرات » و « العبرات » و « المختارات » و « مجدولين » و « في سبيل التاج » ، وكل كتاب ألفه المنفلوطي أو ترجمه بمعونة غيره .

ولم تكن العصبية عصبية المعهد الذي انتمى إليه على يوسف والمنفلوطي ، لأنهما أزهريان لم يتما التعليم الأزهري والمدرسون الذين يزكونهما في دروس الإنشاء أو يتشيعون لهما في « الحزبية الأدبية » أكثرهم من خريجي دار العلوم ؛ وبينهم وبين إخوانهم الأزهريين منافسة لا تخفى .

والتفت إلى الطلبة قائلاً: من كان منكم يحزن فى عينيه فائضًا من الدمع فالبصل أولى بمهمة تصريفه من كراسة الإنشاء !.

* * *

ولا يحسبنى القارىء العصرى الحديث أننى بالغت فى شعورى بإفراط المنفلوطى فى البكاء أو بإفراط فئة من شباب تلك الآونة فى النعومة والفتور، فإننى لم أقل عن دموع المنفلوطى بعض ما رثاه به شوقى وهو يقول من أبيات كثيرة:

من شوء الدنيا إليك فلم تجد ... فى الملك غير معذبين جياع
أبكل عين فيه، أو وجه، ترى ... لمحات دمع أو رسوم دماع ؟

أما الشباب الناعم فقد كان موضوعًا مألوفًا مطروقًا بين موضوعات التمثيل الفكاهى والأحاديات المسرحية «المنولوجات».. وكان أشهر الممثلين المغنين سلامة حجازى يخصهم بغير قليل من نغماته، وإحداها قصيدة الدكتور شدردى التى نظمها بعنوان: «فتى العصر» وقال فى مطلعها:

بالله قل لى يا فتى العصر ... ماذا تركت لربة الخدر

فلم تكن سورة «السوبرمانية» ولا البطولة المعبودة هى التى كانت تحضرنى حين رأيت الكراسات أمامى تفيض بكلمات «النظرات» و«العبرات»، وبعضها منقول بحروفه من مقالات هذا الكتاب أو ذاك.

وقد عرفت أسلوب المنفلوطى فى الصحف قبل التقائى بأسلوبه المنقول فى كراسات الإنشاء، ولكننى كنت أتناوله من جانب المطالعة الأدبية العامة ولم أنظر إلى الجانب «التربوى» ولا شعرت بالاتصال بينه وبين غاشية الضعف عند ناشئتنا قبل أن أشهد هذا الأثر فى أكبر معاهد التعليم «الأهلى» فى تلك الآونة.

* * *

وسرعان ما وصلت قصة الدموع والبصل إلى السيد المنفلوطى من طريق المطبخ أو طريق الفرقة أو طريق الضابط الظريف.. فقد أشار إليها فى أول لقاء بيننا بعد ذلك بالمكتبة التجارية، ولم أكن ألقاه كثيرًا فى المجالس الخاصة ولا أذكر أننى لقيته فى مجلس خاص غير مرة أو مرتين ببيت الأمة، ولكنى كنت أشترى أكثر كتبى العربية من المكتبة التجارية فألقاه هناك بين حين وآخر، ويجرى بيننا الحديث كثيرًا فى المسائل العامة وقليلاً فى المسائل الأدبية

والثقافية.. وفى هذه المرة لقيته يوقع على بعض الأوراق، فقال لى بلباقته «البلدية» التى اشتهرت عنه: بسم الله.. أو «بسم اللا» باللهجة الدارجة، وهى كما يعلم القراء دعوة إلى الطعام.

فقلت له سائلاً: «بسم للا» فى التوقيع فقط أو فى قبض الفلوس ؟!

فعاد يقول بتلك اللهجة البلدية أيضًا: الحكاية لا تستحق «مش قد المقام».. إنه أرخص من «البصل!»

قلت مجاريًا له فى سياقه: ولعله أحلى من العسل على حد نداء الإخوان فى منفلوط..

ولاح لى فى المناقشة الوجيزة التى جرت بينى وبينه، على أثر ذلك، أننى لم أنفذ منه إلى موضع إقناع فى كل ماذكرته عن أدب الشكاية أو أدب البكاء، وأيقنت أنه غير قابل للتحول عن الشعور التقليدى أن العاطفة هى الرقة وأن الرقة هى البكاء، وكل ما سمعته منه حول هذا المعنى يتلخص فى أنه يسأل الله أن يلهمه إعطاء الرحمة حقها وإعطاء البأس حقه، ولعله يعنى بذلك تصويره للعاشق البارز فى قصة «ماجدولين» وتصويره للبطل المغامر فى قصة «فى سبيل التاج»، ووصاياه الحسنة فيما كتب عن القضية الوطنية. وهو غير قليل بتوقيع منه أحيانًا أو بغير توقيع.

* * *

وكانت أيام الأعياد مجتمع الأدباء بمجلس الزعيم الكبير سعد زغلول، فلقيت المنفلوطى مرة من هذه المرات ومعنا جعفر ولى باشا – وزير الحربية يومئذ – وهو كثير الاطلاع على منظوم العرب ومنثورها، وساتذة لا أعرفهم، فجرى الحديث عن أساليب بعض الكتاب فقال سعد: إننى أتناول أسلوب هؤلاء الكتاب جملة جملة فإذا هى جمل مفهومه لابأس بها فى الصياغة، ولكننى أتبع هذه الجمل إلى نهايتها فلا أخرج منها على نتيجة ولا أعرف مكان إحداها مما تقدمها أو لحق بها.. فلعل هؤلاء الكتاب يبيعون بالمفرق «بالقطاعى» ولا يبيعون بالجملة !

قال الشيخ المنفلوطى: يغلب ياباشا أن يشيع هذا الأسلوب بين الصحفيين الذين يكلفون ملء فراغ، ولا تتيسر لهم المادة فى كل موضوع.

فابتسم الباشا وقال الشيخ: «إنك يا أستاذ تتكلم عن الصحفيين وهو واحد منهم!»، ثم التفت إلىَّ وقال: «ما رأيك يا فلان؟»

قلت : «هو ما يقول الشيخ المفلوطى مع استدراك طفيف .. »

قال : « ماهو ؟ »

قلت : إن هذا الأسلوب هو أسلوب كل من تصدى لملء فراغ لا يستطيع ملأه سواء كتب فى الصحافة أو فى غير الصحافة .

وعاد الشيخ المفلوطى فقال : « إن العقاد لا يحسب من الصحفيين لأنه من الأدباء » .

قال الباشا : « أو كذلك ؟ » .

ثم تفضل بوصف موجز لكاتب هذه السطور ليس من حقنا أن نرويه .

ولسنا نريد أن نحصر الأدب المنفلوطى كله فى تلك الزاوية التى تلاقينا لديها على كراسات الإنشاء ، فهكذا عرفناه ويعرفه غيرنا إذا لقيه من هنا وعلى يمينه « سوبرمان » نيتشه و « بطل » كارليل ، وعلى يساره قضية تربوية فى إبان أزمتها .

ولكن المنفلوطى فى غير هذه الزاوية ، يعرف بمكانه الأدبية العامة .. فلا يعرف له نظير بين أعلام الأدباء الناثرين من مطالع النهضة الكتابية قبل مولده إلى ما بعد وفاته ، فليس بين أدبائنا الناثرين من استطاع أن يقرب بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الكتابة كما استطاع صاحب « النظرات » و « العبرات » ، فربما ذهب القصد فى الكتابة بجمال الإنشاء فى أساليب الناثرين المجيدين ، وربما ذهب الأسلوب « الإنشائى » الجميل بالمعنى المقصود فى كتابة أدباء الفكر والتعبير ، ولكن المنفلوطى - قبل غيره - هو الذى قارب بين الجمال والصحة على نسقه الفصيح فى سهولة لفظ ووضوح معنى وسلامة نغم ، وهو لا يبلغ مبلغ التبرج بالصقل والزينة ، ولا يترك التبرج والزينة ترك المتقشف فى مسوح النساك ، وليس لدروس الإنشاء نموذج أصلح من هذا النموذج من وجهته الفنية ، وعن أدبه هذا أقول فى بعض فصول « المراجعات » :

« إنه أحد الذين أدخلوا المعنى والقصد فى الإنشاء العربى . بعد أن ذهب منه كل معنى وضل به الكاتبون عن كل قصد .. وكانت الكتابة قبل جيله قوالب محفوظة تنقل فى كل رسالة .. وكانت أغراض الكتابة كخطب المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجة إلقائها .. »

وقد اطلعت على مجموعة وافية مما كتب المنفلوطى للفن وما كتب بغير كلفة ، فكان لكتابته على كلا النمطين المتباعدين طابع الرائد المجاهد فى أمثال هذه الرسالة : رسالة التقريب بين حفاوة الإنشاء ورخصة الخطاب واطراح الكلفة .

ويتمثل طابع الرائد فى تباعد الشقة بين موضع الحفاوة وموضع الرخصة مما يكتب للفن وما يكتب خاصة أمره .. فكان المنفلوطى « يديج » مقالاته الفنية فلا يفوته موضع العناية بكل كلمة وكل فاصلة ، وكان يكتب رسائله لصحبه - ومنهم المتعلمون بل المعلمون - فلا يبالى أن ترد فيها أمثال هذه التعبيرات الدارجة : « فيبونى تلغرافيا » أو « مرسول لحضرتكم » أو « تأملوا الاسطوانات حتى لا تكون مستعملة ثم أرسلوها فى البوسطة .. » أو « فهموها أن ترسل شهادة المدرسة المتخرجة فيها » .. أو « أهديك سلامى » أو « تلامذتك بخير يسلمن عليك وأرجو تبليغ سلامى لحضرات الأفاضل إخوانك المعلمين .. » .

وكلها من شواهد النظر إلى الكتابة الفنية كأنما هى كتابة « الاستعداد والحفاوة » وما عدا ذلك من كتابة الأغراض الخاصة فرخصة العرف فيها أولى من كلفة الاستعداد ، أو كلفة « السمعة والحشمة ! » .

وتعيد إلينا قدرة المنفلوطى على تبسيط الأسلوب الجميل كلمة « أناتول فرانس » التى يقول فيها : « إن البساطة الجميلة هى القدرة على اخفاء الجهد والكلفة ، وإن النور الأبيض بسيط فى النظر ولكنه أوفر الألوان تركيبًا لأنه « توليفة » من جميع الألوان » .



محمد المويلحي

مُحَمَّد المويلحي

كانت للحياة الأدبية فى القرن الماضى مؤامراتها ودسائسها التى تشبه المؤامرات والدسائس فى حياة القصور الملكية ، والصواب أن مؤامرات الأدب ودسائسه كانت فى باطن أمرها فرعًا من فروع المؤامرات المعهودة فى كل حاشية ملكية ، لأن الأدباء كانوا على اتصال قريب أو بعيد بحاشية الأمير ، وكان للقصر أشياع ودعاة بين أصحاب الأقلام كما كانت له خصومات معهم على حسب الظروف والعلاقات التى تتغير بينهم جميعًا من حين إلى حين ، وربما كان حامل قلم عونًا على حامل قلم آخر مرضاة للسياسة أو مرضاة للمنافسة المعهودة بين أبناء الصناعة .

وكان لمحمد المويلحى صاحب « عيسى بن هشام » نصيب وافٍ من مؤامرات القصور ، ولعله استحقها بقدم الصلة بين أسرته ، وبين الأسرة الخديوية من عهد مؤسسها محمد على الكبير ، وقد عاش أبوه إبراهيم فى معمعان سياسة القصور بين عابدين بالقاهرة ويلدز بالآستانة ، وكان صاحب القلم الوحيد الذى اصطحبه الخديو إسماعيل إلى منفاه ، سفيرًا له فى علاقاته بعد المنفى بالسلطان عبد الحميد .

ولم يسلم المويلحيان معًا من مؤامرات عابدين ، ولم يسلم عابدين ولا يلدز معًا من مؤامرات المويلحى الكبير على الخصوص ، وكان حامل القلم الذى اختارته حاشية عابدين للنكاية بالمويلحيين صحفيًا من أقرب الناس إليهما وأشدهم إعجابًا بهما ومحاكاة لهما فى أسلوبه . وهو صاحب « الصاعقة » أحمد فؤاد ، وما كان يرجو لصاعقته حظًا فى ميدان الصحافة أعظم من مقارنة « مصباح الشرق » صحيفة المويلحيين فى هذا الميدان .

وقد كانت وقيعة « أحمد فؤاد » بالمويلحى الكبير ألوانًا لا تحصى من الشائعات والأراجيف و « القفشات » التى كان ينشرها على الأندية والقهوات ، وكانت وقيعته الكبرى بالمويلحى الصغير أنه كان يجرده من ملكة الكتابة الأدبية ويزعم أن « عيسى بن هشام » من قلم أبيه ، وأنه كان يرى مسودات المقالات بخطه فى مطبعة المصباح ! . وكانت وقيعته بأبيه أنه طامع فى إمارة الشعر بقصر الأمير .

أما المويلحى إبراهيم ، فكان أكثر من ند « لأحمد فؤاد » فى ألوان الوقيعة ، إذ كان يفل الحديد بالحديد .. ويكيل لتلميذه المتمرد بالكيل الذى يكيل به ذلك التلميذ ، ويزيد ،

وقد سكت عنه حتى أوهمه الصلح والرضا ، ثم أوفده برسالة إلى الآستانة من تلك الرسائل التى كانت تغدق الخيل والخيلات على حامليها بين عابدين ويلدز وبين يلدز وعابدين ، ثم بادر فأبلغ الخبر إلى مدير « الشحنة » بالآستانة فتلقى هذا صاحبنا أحمد فؤاد على « اسكلة الميناء » وانتزع منه أوراقه انتزاعًا ، فإذا هى سبيله إلى السجن بدلاً من دار الضيافة ! .

وأما المويلحى محمد ، فقد كان على مشابهته لأبيه فى كثير من خصاله أقرب إلى عزلة التصوف وترفع الوجاهة والأماوة ، فلم يكن يعنيه من أحاديث أحمد فؤاد وأمثاله إلا أن يعقب عليها بنكتة لاذعة أو سخرية واسعة ، ونسميها بالسخرية الواسعة لأنها كانت تتسع حتى تشمل السخرية بالشهرة الأدبية نفسها .. فماذا لو لم يكن المويلحى الصغير كاتب عيسى بن هشام أو كاتبًا على الإطلاق ؟ ذلك خطب هين كما كان المويلحى الصغير يقول ، ولم يكن فى الواقع يبالغ فى تكلف السخرية بالشهرة الأدبية ، لأنه كان يرتضى لنفسه منزلة أحب إليه وأرفع عنده من منزلة الأديب الصحفى المشهور ، وهى منزلة الوجيه الحكيم العزوف عن الدنيا والناس .

ولقد شاعت وقيعة أحمد فؤاد فى حينها ، فلم نكد نسمع أحدًا يتكلم عن « حديث عيسى » إلا وهو يتقبلها أو يتساءل متشككًا : أحقًا كتبه المويلحى الصغير ولم يكتبه له أبوه ؟

وكنا نحن نعلم من أخبار « محمد المويلحى » أنه أوفر اطلاعًا من أبيه .. وندرك الفارق البعيد بين ملكته الأدبية الناقدة وملكة أبيه المرتجلة ، ونعرف خلال سطوره مدى اطلاعه على كتب اليونان وكتب الأوربيين المتأخرين ، مما توفر عليه ولم يتوفر عليه أبوه من قبله .. ولا يعد اشتراكه معه فى حياته الأدبية ، فكنا نعجب لشيوع تلك الوقيعة ولا نستطيع أن نفسره بغير هوى النفوس لاستماع الوشايات والاغترار فى تفرقتهم بين ملكة الأب وملكة الابن بالتفرقة بين اسم المويلحى الكبير ، والمويلحى الصغير .

ولكننا لقينا صاحب « عيسى بن هشام » بعد العلم به من طريق المطالعة وطريق السماع ، فعرفنا سببًا أدعى من ذلك السبب لرواج الوقيعة التى أذاعها صاحب « الصاعقة » ، فقد كان « محمد المويلحى » أصدق مثل رأيناه لقول القائل : « سماعك بالمعيدى خير من أن تراه » .. حتى كنا نروى المثل بعد ذلك : « سماعك بالمويلحى خير من أن تراه » ، وقد نزيد عليه : المويلحى الصغير توكيدًا للنسخة الجديدة من ذلك المثل القديم !

كان صديقنا المازنى يقول عن مشهور من مشاهير الشرق الحديث بغير حق : إنك لا تحتاج إلى أكثر من خمس دقائق فى محادثته لتنزل به إلى مكانه من الاحتقار .

والمويلحى الصغير تراه خمس دقائق ، فلا تحقره ولا تشعر من سمته ورصا
للاحتقار .. ولكنك تقدر له ماشئت من الصناعات الموقرة غير صناعة القلم أو صـ
الفنية ، فإذا تكلم زادك إيمانًا بأنه من أبعد خلق الله عن الكتابة ، ولاسيما
الفكاهية ، لأنه يتعثر فى كلامه وتعترضه فأفأة قد تطول حتى تضطره إلى الـ
والإشاحة بوجهه علامة الضجر من الحديث أو الرغبة فى السكوت ، وإنما هو
تلك العثرات التى تعترضه أحيانًا خلال الحديث .

رأيته أول مرة – كما رأيته آخر مرة – بكساء « البونجور » الذى لا يغيره فى ا
الصيف ، وإن غيره من لون إلى لون ومن نسيج إلى نسيج ..

ورأيته بعد المقابلة الأولى أسابيع متوالية لم أكن أسمع منه خلالها غير الكلمات
رئيس العمل وهو يوقع الأوراق الرسمية أو يعيدها للمراجعة والاستيفاء ، ولكننى
مقابلة من تلك المقابلات القصار أخرج من مكتبه وقد ازددت علمًا بسرعة خـ
ملاحظته وقدرته على إيجاز القول والكتابة بما يفيد على البديهة ، بغير كلفة ولا

• • •

لقيت « محمد المويلحى » لأول مرة فى ديوان الأوقاف وهو يومئذ مدير قـ
ويتبعه تحرير مجلس الديوان الأعلى ومجلسه الآخر الذى كان يسمى بمجلس الإدا
الإدارى ، ومن أقلامه قلم « السكرتارية » وهو يومئذ ندوة المنشئين والمترجـ
والمحررين ، يعملون « رسميًا » فى إعداد المذكرات التى ترفع إلى المجلسين وتهـ
وتصحيح لغتها ، ولا يفرغ منهم لهذا العمل فى الواقع غير اثنين أو ثلاثة ، مع الاسـ
أو كثيرًا – بمعارف الأدباء اللغوية ، إذا التبس عليهم الأمر فى صحة كلمة أو سلا
وقد كان فى قلم السكرتارية من المنشئين والشعراء والمترجمين والمشتغلين بالأدب و
منثور إليه فى الديوان كله من طراز عبد العزيز البشرى ، وعبد الحليم المصـ
الكاشف ، وحسين الجمل ، وحسن الفرس ، وأمين الدولة ، ومحمد فكرى
قليلة من الكتاب الديوانيين غير معروفين بين أكثر الموظفين . وغير هؤلاء رهط آ
ولكن فى غير قلم السكرتارية ، نذكر منهم صديقينا الشاعرين المجيدين على شـ
عماد .

وكانت كتابتى الأدبية – السياسية – طريقى إلى وظائف الديوان ، والفضل فـ
من خصال الفضول المحمود عند صديقنا الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب
طيب الله ثراه ..

جالس إذ دخل محمد بك نشأت وقال لى : بونسوار مويلحى ! فأجبته كعادتى معه مازحاً : أهلاً بالفتنى ! وهى تعريب الكلمة التى يطلقها عليه أصحابه بالفرنسية «Petitinteregant»(١) ، فما كان منه إلا أن ضربنى بكفه على وجهى فلم أتحرك من مكانى ولم تتغير جلستى ، وقلت له : مازدت أن فعلت مايمكن لأى حمار فى الطريق أن يفعله مع أكبر كبير» .. إلخ إلخ ..

* * *

فهذه القصة إحدى قصص ثلاث لها سلسلة من العناوين المتقاربة : عام الكف ، وعام الكفء ، وعام الكفر ، محورها هم : محمد المويلحى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل ، وبواعثها من دسائس القصر رغبة الخاصية الاستيلاء على مناصب الرئاسات الدينية فى البلاد ، ولا سيا الرئاسات التى لها إشراف على الطرق الصوفية وأوقافها ، وتقترن بها منافسة أصحاب الأقلام على مركز شاعر الأمير ، وكاتب الصحيفة السيارة التى تعتبر لسان حال الأمير.

ولقد كان محمد المويلحى مرشحًا للعمل الصحفى الذى يمثل سياسة الأمير ، ويقوم مقام لسان الحال بالنسبة إليه .. وكان يعين أباه على طموحه إلى مركز شاعر الأمير ، فكان كلاهما منافساً خطيرًا للشيخ على يوسف فى عالم الكتابة السياسية والمنادمة الشخصية للأمير فى مجالسه الخاصة ، وهما أكتب من الشيخ على من الوجهة الأدبية وأوسع ثقافة فى اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وأقدم عهدًا بالاتصال الوثيق بالأسرة الخديوية التى صاحبتها أسرة المويلحى منذ عهد مؤسسها ، ورفع شأنها عند هذه الأسرة انتساب المويلحيين لآل البيت النبوى نسبة أثبت من تلك التى ادعاها صاحب المؤيد بعد ذلك عندما أراد الخديوى عباس ترشيحه لمشيخة السادات الوفائية ، ومهدوا لذلك بمصاهرة الشيخ على يوسف لهذا البيت على الرغم من عميده السيد عبد الخالق ، مما انتهى به الأمر إلى قضية الزوجية المشهورة وعزل الخديو للشيخ أحمد أبى خطوة قاضى المحكمة الشرعية التى حكمت بإلغاء الزواج ، وتعيين الشيخ الرافعى الذى كان يؤوى السيدة صفية فى بيته بعد صدور القرار بالفصل بين الزوجين خلفًا للأستاذ الإمام.

فما هو إلا أن سمع الشيخ على يوسف بخبر اللطمة التى أصابت محمد المويلحى حتى فتح لأخبارها وتفصيلاتها صدر صحيفته ، وحرص على تسمية المكان الذى وقع فيه الحادث باسم «الحانة» وتحريف الكلمة التى قالها المويلحى لتظهر للسامعين بها كأنها من لغة المغازلة ، وفى كلا الأمرين مايعطل المويلحى عن الترشيح لمقام لسان الحال ومقام المشيخة الصوفية ، ولم

(١) أظن الكلمة هى : Intriguant .

يحفل المويلحى بالرد على «المؤيد» ، إلا ليقول إن الحادث وقع فى «دكان» لافى حانة ، وإن الكلمة التى فاه بها هى كلمة «الفتنى» لا كلمة الفتان ..

وسمى المؤيد العام كله باسم عام الكف ، وألح على ذكر الحان فى المنظومات الشعرية التى كانت تنشر تحت هذا العنوان ، ومنها :

يا صريع الأكف صدعك أمسى ... خلقًا مثل طيلسان ابن حرب
أنت فى الحان فى أمان وسلم ... وهو فى معمعان حرب وضرب

ومنها :

لا تدخل الحان والصناع ثائرة ... حتى تقام حواليك المتاريس

وألح الشيخ كذلك على ذكر شهر الصيام فى إبان المعمعة ، فكتب بعض شعراء هذه المقطوعات يقول :

إن شهر الصوم قد حل فنز ... فيه بالأجر وشكر الشاكرين

وختم المقطوعات بأبيات تشير إلى شهر رمضان يقول ناظمها :

إن هذا الشهر شهر يجتنى ... فيه أمثالك صفع الصافعين
قد محونا آية الكف وها ... نحن نتلو اليوم آى الراحين

وكان المشاع يومئذ أن المقطوعات جميعًا من نظم الشاعر إسماعيل صبرى لأن المويلحى كان يلقبه فى مجالسه باللقيط ..! ولكن المعلوم أن شعراء آخرين قد اشتركوا فى نظمها ، ماعدا حافظ إبراهيم صديق المويلحيين.

* * *

وجاء دور الشيخ على يوسف فى تشهيرات هذه العناوين المتسلسلة فظهر عام الكفء بعد عام الكف !.. إذ كان السيد عبد الخالق قد طلب تطليق ابنته من صاحب المؤيد لأنه غير كفء للزواج من الشريفات وجده مشكوك فى إسلامه ، واستعان المويلحى باطلاعه الواسع على الأدب العربى القديم فاستخرج من قصة الشاعر الأحوص مع مطر زوج أخت امرأته التى كان يهواها بيتين من أبيات الأحوص كأنما نظما لهذه المناسبة ، وأبيات الأحوص هى :

كأن المالكين نكاح سلمى ... غداة نكاحها مطرًا نيام
فلا غفر الإله لمنكحيها ... ذنوبهم ، وإن صلوا وصاموا

فلو لم ينكحوا إلا كفيئًا ... لكان كفيئها الملك الهمام
وإن يكن النكاح أحل شيئًا ... فإن نكاحها مطرًا حرام
سلام الله يا مطر عليها ... وليس عليك يا مطر السلام
فطلقها فلست لها بكفء ... وإلا يعل مفرقك الحسام

وكأنما الإشارة هنا إلى أن الأمير نفسه هو الكفء لبنت السادات ، وليس الشيخ على الذى أذن له الأمير فى زواجها .

ولم يكن مع المويلحى أحد من كبار الشعراء فى عام الكفء غير حافظ إبراهيم ، وقد كان «يرد الجميل» فى وقت واحد للشيخ على يوسف بعد حملات المؤيد على المنفى ، وللشاعر أحمد شوقى منافسة على الشهرة وعلى مطمع آخر ستأتى الإشارة إليه ، فنظم حافظ هذه المناسبة قصيدته البائية بعد طول صمته ، وقال فيها :

حطمت اليراع فلا تعجبى ... وعفت البيان فلا تعتبى
فلا تعذلينى لهذا السكوت ... فقد ضاق بى منك ما ضاق بى

إلى أن قال عن قصة الزوجية ، ولم ينس الناحية الدينية فيها :

وقالوا «المؤيد» فى غمرة ... رماه بها الطمع الأشعبى
دعاه الغرام بسن الكهول ... فجن جنونًا ببنت النبى
فضج لها العرش والحاملوه ... وضج لها القبر فى يثرب
وقالوا لصيق ببيت الرسول ... أغار على النسب الأنجب

والطمع الأشعبى فى البيت يشير إلى ضياع ثروة الشيخ على فى مضاربات «البورصة» ، وهى من المقامرة التى لا تحمد من أحد ، فضلاً عن شيخ الطريق .

ولقد كان لحافظ إبراهيم نصيبه المهم من هذه الدسائس التى كانت تحاك لترشيحه لوظيفة شاعر الخلافة فى البلاد العربية الإسلامية ، منافسة لشاعر الأمير أحمد شوقى ، فما زال به الخبثاء حتى زينوا له نظم أبيات فى الشاب «شكيب» معشوق أبى الهدى الصيادى صاحب النفوذ الأكبر فى حاشية السلطان عبد الحميد ، فقال على لسان الشيخ أبى الهدى :

أحرق الدف إن رأيت شكيبًا ... وأفض الأذكار حتى يغيبا
فاسألوا سبحتى فهل كان تسبيـ ... ـى فيها إلا شكيبًا شكيبا

فذهبت مساعى من رشحوه لذلك اللقب الفخم بعد اقترابها من النجاح .

أما عام «الكفر» فلم يكن له شأن هذين العامين من أقلام الأدباء ، ولم يهتم به صاحب «المؤيد» كثيرًا لأنه آثر أن ينتظر للخلاص من مزاحمة مصطفى كامل مناسبة أخرى ، وتلك هى مناسبة إغلاق الصحف التى كان مصطفى كامل يصدرها باللغات الأجنبية ، وهى التى كان على يوسف يخشى أن تجعل مصطفى كامل لسان حال للأمير فى الصحافة الأجنبية ، ولم يكن يخشى مزاحمته فى الصحافة العربية لأن مصطفى كامل نفسه كان ينوى أن يقطع صلته الصحفية بالقصر ، حتى كتب خطابه الصريح إلى الخديو عباس يبلغه فيه أنه سيبتعد عن كل صلة بالحاشية الخديوية صيانة لمقام الأمير من تهديد المحتلين إياه من جراء تلك الصلة ، وهذه هى الفعلة التى استنكرها بعض المتملقين على صحفى يخاطب أميره ، فحملوا عليها بعنوان «عام الكفر» ، وأسكتها الناصحون بإيعاز من الأمير .

على أن صحيفة المويلحيين لم تصبح لسانًا سياسيًا للقصر ، ولكنها أصبحت لسانًا للحركة الأدبية مسموع القول فى نقد الكتابة والشعر وفى الموازنة بين الكتاب والشعراء ، وكان قولها فى ذلك منتظرًا مرموقًا فى أندية الأدب والثقافة ، ومنها أندية القصر نفسه وأندية المعارضين لسياسته ومؤامراته . وكانت خطتها العامة – فيما عدا فترات القلق الزئبقى التى اشتهر بها المويلحى الكبير على الخصوص – أن ترجح كفة حافظ إبراهيم على منافسيه ، فلم يكن من اليسير أن تساق إلى خطة الزراية به وتهوين شأنه ونكران فضله ، ولكن «مصباح الشرق» كانت تنافسها ، وتحاكيها «صحيفة» أخرى على أسلوبها هى «صحيفة» «الصاعقة» الأسبوعية ، وصاحبها أحمد فؤاد تلميذ المويلحى ، يواليه يومًا ويكيد له أيامًا على حسب الطلب والجزاء ، وفى الصاعقة كانت تنشر الحملات التى يأباها «مصباح الشرق» ويترفع عن قولها أو مجاراة طلابها .. ولاسيما الحملة على حافظ ، ومحاولة الإيقاع بينه وبين نصيره الأكبر الأستاذ الإمام ، وقد أملى على صاحبها أن ينكر على حافظ قدرته على الشعر والنثر معًا ولو كان من النثر المترجم .. فلا يصلح بطبيعة الحال لولاية الديوان العربى ومعه ديوان الترجمة ، فجاء فى مقال نشرته بعد صدور الجزء الأول من ترجمته «للبؤساء» :

«... إنا لنبدأ بأولهم ذلك المعجب بنفسه الذى عرضه الغرور للاستهزاء به ، وهو حافظ إبراهيم .. ولما كان معدومًا من مزية تمييز الصحيح من الفاسد والخطأ من الصواب والجيد من الردىء ، وكان مجبولاً على الإعجاب بنفسه .. ظن فاسده صحيحًا وخطأه صوابًا ورديئه جيدًا فيما جمعه فى البؤساء من خليط كلام الغابرين ...» .

إلى قول الكاتب :

ولقائل أن يقول : لو أن الكتاب كذلك، لما قرظه المفتى؟فنجيب المعترض بأن فضيلة المفتى من العلماء الأعلام ، وعنده من الاشتغال بأمور الاسلام ما يشغله عن قراءة مثل هذه الترهات . ولكن جبرًا لكسره وتخلصًا من إلحاح حافظ وفرارًا من تحمل غصص رؤيته والاجتماع به .. قال ما قال ، وعلم الله أن فضيلة الأستاذ تأذى كثيرًا من تقريظ البؤساء ».

ويقول المطلعون على أحوال القصر إن المويلحيين أوشكا فى وقت من الأوقات أن يبلغا مطلبهما من الأمير وهو مركز شاعر الأمير للمويلحى الكبير ومهمة الدفاع عن سياسته للمويلحى الصغير.

وربما كان إبراهيم المويلحى أصلح أبناء عصره لوظيفة الشاعر فى قصر الإمارة كما كانت تفهم فى تلك الحقبة ، لأنها كانت وظيفة تجمع بين نظم الشعر لمناسباته ومواسمه ، وبين منادمة الأمير فى مجالسه وسهراته وساعات طربه وخلوته لسماع المغنين والمغنيات ، ولم يكن إبراهيم المويلحى دون على الليثى ومحمود أبى النصر فى فن النظم ولا فى المنادمة ، بل كان أعرف منهما بأدب العرب والإفرنج وأقدر منهما على الحديث فى مختلف شجونه . وقدرته على نظم التواريخ بعدد الحروف المعروفة بتواريخ « الجمل » لم يكن يدانيه أحد من معاصريه . وقد كانت هوى الملوك والأمراء من شعر المديح لتسجيل أوقاته ومواعيده . فلم ينظم شاعر من هذا الفن قصيدة تضارع قصيدة المويلحى الكبير التى استقبل بها عباسًا الثانى « سنة ١٩٠٢ » ، وكل شطر منها تاريخ للسنة الهجرية « سنة ١٢٢٠ » يوافق معانى الكلمات فى غير تكلف ظاهر يقتضيه التوفيق بين النظم ومجموع الأرقام ، وهذه أبيات منها :

وافى الخديوى فحيا النيل أوبته [illegible]
والمجد ينصره ، والقطر يشكره ... والمت يذكره ، بالعدل إن ساحا

* * *

وقد كان الخديو عباس يأنس لإبراهيم المويلحى فى مجالسه ، ويعلم ولع جده إسماعيل بمسامرته ومنادمته ، فضلاً عن الاعتماد على لباقته لسفارة بينه وبين ولاة الأمر فى الدولة العثمانية ، ويعلم أن جده قد بلغ من ولعه به أنه اصطحبه دون غيره من أصحابه وندمائه عند مفارقة القطر إلى منفاه ، ولعله كان موضع اختياره شاعرًا له لولا اعتراض المحتلين على تقرير هذه الوظيفة فى الميزانية لأن النظام المالى فى حكومات العصر الحديث لا يعرف عملاً يسمى

عمل الشاعر أو النديم الخاص بمجالس الملوك والأمراء ، ومن أجل هذا سميت وظيفة
شوقى ، باسم رئيس الديوان العربى ، ولم تعرف « رسميًا » باسم شاعر الأمير.

وربما كان طموح الوالد إلى هذه الوظيفة سببًا من أسباب نقد ابنه لشعر شوقى وفى
الخصوص — إنه لم يكن يحسن الحديث عن الملوك والأمراء ، ولولا ذلك لما
إسماعيل وهو يقول عنه إنه « الخديو المشار إليه » .. ولا تحدث عن توفيق فقال «
العزيز يده فقبلتها وجهًا ...» .. ولا ذكر أنه كان يركب جوادًا أبيض وهو يذهب للقا
ولا أكثر فى مقدمته من الزهو والسهو والحشو كما قال ، ولا شبه العزيز بعمر بن الخط
وهو يصف حفلة البال :

فهو بينهم عمر والوفود تنتدب

وإنما عمر بن أبى ربيعة هو الأجدر « بمجلس الطرب والعزف ، والرقص و
والقدود والخدود ، والصدور والنهود ، والنحور والعقود ...» .

فقد كان هذا النقد — كما هو ظاهر — أقرب إلى نقد « لياقة النديم » منه إلى
الشاعر ، وعند لياقة النديم تنتهى منافسة المتنافسين للأديب الظريف والسمير
إبراهيم !

إلا أن المويلحيين كانا — ولا ريب — وفاق الشروط جميعًا — بمقياس الأمير قبل
لوظيفة شاعر القصر ولسان حاله ، لولا قصورهما عن شرط واحد كان عند الأمير أهم
جميع هذه الشروط ، وهو شرط الاستقرار والكتمان الذى لابد منه لكل من يعمل
الأمراء ، فقد كان كلاهما — ولاسيما الأب — من أصحاب المزاج الزئبقى الذى لا يطو
ولم تكن لهما حالة فى السياسة ولا فى العلاقات الحميمة يطول الاطمئنان إليها ، فلم
أفلح شوقى الصامت الحصيف ، وعلى يوسف الناطق الأمين بلسان الحال .

* * *

وفى « الصاعقة » التى كانت تخدم الحاشية الخديوية كما تقدم . نشرت أعنف
قصائد الهجاء للخديو عباس ولجميع الأمراء فى أسرة محمد على من قبله ومن بعده ،
قصيدة الاستقبال التى اتهم البكرى والمنفلوطى بنظمها . وهى فيما نرجحه من نظ
كلها ما عدا بيتًا أو بيتين اشترك فيهما المنفلوطى أو أضافهما إليها بموافقة السيد

وقد كان موقف العميد « الصوفى » الكبير من بيت محمد على كموقف المر

الإقبال والإعراض ، وبين المو
البكريين كان له موقفه الخاص
العلوية ، فكان على حذر دائم
ومصاحبته لعباس منذ أيام الدر
اشتركت قديمًا وحديثًا فى خلع
بيت البكرى العريق .. وسياسـ
الدينية ، فإنه كان يحاول جهد
ذوى « الشخصيات » الملحوظة
العلاقة بينهم وبين كبار الأجا
الأوساط من السيد توفيق البـ
الأوربية . ومن يدرى ؟.. إن أ
حتى بعد قيام الأسرة العلوية
والأوربية حادثة تدعو إلى تغيـ
سليل بيت عريق فى البلاد ،
الأنظار إليه عند البحث عن
والذى لا شك فيه أن الـ
بعض أبنائها . لأن المناظرة
« البكرى » تخطر لسليل بيت
تلك الوجاهة الملحوظة فى تاريـ
عباس حين ونجه هذا وقال لـ

« كلا .. لست أنا قليل
آبائك وأجدادك ..» .

لاجرم يكون قائل هذه

يذكرنا مرآك أبـ
رمتنا بكم « مقدو
فلما توليتم طغـ
أعباس ترجو أن
فيا ليت دنيانا تـ

الإقبال والإعراض ، وبين الودة والجفوة ، وبين المعونة والمكيدة ، ولكن عميد السادة البكريين كان له موقفه الخاص بين رواد القصر وهو موقف بيت بكرى من بيت الأسرة العلوية ، فكان على حذر دائم من الخديو عباس لأنه – فى ذكائه واطلاعه على ماوراء الستار ومصاحبته لعباس منذ أيام الدراسة – لا يجهل سياسة البيت العلوى من جميع البيوتات التى اشتركت قديمًا وحديثًا فى خلع الولاة وتنصيبهم بمراجعة الباب العالى فى الآستانة ، وأولها : بيت البكرى العريق .. وسياسة عباس لم يكن بها خفاء نحو جميع البيوتات ذوات الرئاسة الدينية ، فإنه كان يحاول جهده أن يحل فيها أشياعه ومريديه وينحى عنها الأنوياء من أبنائها ذوى « الشخصيات » الملحوظة فى الدوائر العليا ، واحذر ماكان يحذره أولئك الذين تتصل العلاقة بينهم وبين كبار الأجانب من السفراء ووكلاء الدول ، ولم يكونوا أقرب إلى هذه الأوساط من السيد توفيق البكرى لمعرفته باللغات الأجنبية وتنشوئه نشأة الأمراء فى المعاهد الأوربية . ومن يدرى ؟.. إن أعيان القاهرة وقناصلها كان لهم الشأن الأول فى تنصيب الولاة حتى بعد قيام الأسرة العلوية إلى أيام إسماعيل ، فإذا حدثت بين زعازع السياسة التركية والأوربية حادثة تدعو إلى تغيير الأسرة الحاكمة ، فهل من البعيد أن يرشح للحكم الجديد سليل بيت عريق فى البلاد ، له من سمته وتربيته وعلاقته بالآستانة ووكالات الدول مايلفت الأنظار إليه عند البحث عن الخلف المطلوب ؟

والذى لا شك فيه أن القصيدة كانت من نظم البكرى مع مشاركة قليلة للمنفلوطى فى بعض أبياتها . لأن المناظرة بالآباء والأجداد والمقابلة بين الدخيل « القولى » والأصيل « البكرى » تخطر لسليل بيت الصديق ولا تخطر لمنفلوطى على انتمائه لآل البيت النبوى بغير تلك الوجاهة الملحوظة فى تاريخ الولاية ، ولقد كانت آخر كلمة وجهها السيد توفيق إلى الخديو عباس حين وبخه هذا وقال له على مسمع من الملأ فى حفلة المحمل : أنت قليل الأدب :

« كلا .. لست أنا قليل الأدب .. انا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك ..» .

لاجرم يكون قائل هذه الكلمة هو ناظم تلك الأبيات التى يقول فيها :

يذكرنى مسراك أيام أنزلت ... علينا خطوب من جدودك سود

رمتنا بكم « مقدونيا » فأصابنا ... سهام بلاء وقعهن شديد

فلما توليتم طغيتم وهكذا ... إذا أصبح « القولى » وهو عميد

أعباس ترجو أن تكون خليفة ... كما ود آباء ورام جدود

فيا ليت دنيانا تزول وليتنا ... نكون ببطن الأرض حين تسود

ونحن ننقل الأبيات هنا كما سمعناها بالرواية مخالفة للقصيدة المنشورة فى « الصاعقة » بعض المخالفة . وكل مافيها من ذكر القصور والنعمة المحدثة والأسرة الطارئة كلام من له نشأة راسخة فى القصور والنعمة التالدة والحسب العريق .

ولم يكن عباس – وهو الذى سماه كرومر أستاذًا فى فن الدسائس – قاصرًا عن « رد الجميل » من نوعه فى هذه الحملة ، فإنه أراد أن يستخرج من مادة الشعر وثيقة على البكرى بخط يده تسقطه فى بيئة الدوائر الأجنبية العليا : وأهمها عنده دوائر الوكالة البريطانية .. فأوعز إلى ولى من أولياء القصر بين رجال الأدب أن يستدرج السيد إلى كتابة قصيدة ينظمها فى موضوع من موضوعات الغزل المحظور ، وكان حفنى ناصف أقرب هؤلاء الأدباء صلة بالسيد البكرى ينشده ويستمع إليه .. فلما ذهب يزور السيد وأقبل هذا ينشده من جديد نظمه تعمد حفنى أن يستثيره وقال له : أيها السيد ! إنك ممن لا ينبغى لهم الشعر ، فدعه لنا وحسبك فخار الشرف والجاه ! .. وحمى غضب السيد فتحداه أن يجاريه فى نظمه إن استطاع ، وقبل حفنى التحدى على شريطة أن يكون موضوع القصيدة شخصيًا لا يستعار من نظم آخر فى باب من الغزل المحظور ، فكتب البكرى أبياتًا فى المعنى المقترح بخطه وكتب حفنى أبياتًا فى معناها ثم أخذ أبيات البكرى فأظهر الاعتراف برجحانه عليه فى فن الشعر فوق رجحانه عليه فى الحسب والنسب ! وذهب إلى النافذة يوهم السيد إنه يمزق الورقتين ويلقيهما حيث تلقى المهملات ولكنه مزق ورقته وأبقى الورقة الأخرى فى جيبه ، ثم أسرع بها إلى القصر يسلمها إلى الخديو فأسلمها الخديو إلى لورد كرومر فى أول لقاء بينهما ، وقيل إنها كانت آخر العهد بدعوة السيد إلى حفلات الوكالة البريطانية وآخر العهد بزيارة العلية من رجال الدول لقصر الخرنفش ، حيث كانت لهم زيارات متكررة فى المواسم والأعياد .

* * *

نقرأ لـ « حفنى ناصف » – رحمه الله – رسالة من أبلغ رسائل العتاب من الأسلوب السلفى كتبها إلى توفيق البكرى يقول فيها ، وكان قد زاره فتخطاه السيد إلى جاره ولم يقرئه السلام :

« ... وجاء السيد فى موكبه ، وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله وهيمنا بكماله ، فلم يتعرف وجوه القوم حتى حاذانى ، وكبر على عينيه أن تريانى ..» .

إلى أن يقول :

« فإن حسن عند السيد أن يغضى عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضى عن جميع

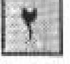
الناس . وإلا فلماذا يطوف على بعض الضيوف ، ويحييهم بصنوف من المعروف ، ويتخطى الرقاب إلى صروف ، ويخترق لأجله الصفوف ؟ فإن زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأقلام فليس بأقدم هجرة فى الإسلام ، وإن رأى أنه أقدر منى على إطرائه ، فليس بالممكن أن يتخذه من أوليائه ... » .

والمقصود بصروف كما هو معلوم صاحب « المقتطف » الدكتور يعقوب صروف ، ولم يؤثره السيد لأنه أقدر على إطرائه ، فإن الدكتور يعقوب لم يكن من أصحاب أقلام الاطراء ، ولكنه آثره لأنه ربما كان أقدر فى الدوائر العليا على محو المسبة التى جاءته من ناحية الحاشية الخديوية .

* * *

ونحن لا نجاوز فى مقالنا هذا بعض الأمثلة عن مؤامرة الأدب التى لا تفهم دون العلم بما وراءها من مناورات القصور ، ولم نزد فيها هنا على مايحيط منها بالأعلام الذين كتبنا عنهم فى هذا الكتاب .





فى مقالاتنا بعنوان « حياة قلم » عرضت مناسبة لعلاقة « إبراهيم المويلحى » بمؤامرات القصور فى القاهرة والآستانة ذكرنا فيها بعض حوادثها ملخصة فى القصة التالية :

« .. حدث أن حركة فى القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد بالآستانة – وهى حركة تركيا الفتاة – وأن رجلاً شهرته دعوة القلم واللسان ذهب إلى إيران لإتمام هذه الدعوة فطرده الشاه وأهانه اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعًا ، وقال قاتلوهم إنهم قضوا عليهم بالحق انتقامًا لذلك الداعية الطريد : جمال الدين !

« وكانت هذه الحقيقة من وقائع الخيال الفنية عن المقال .. ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام فى يلدز وعيناه على شارع محمد على بالقاهرة ، واتفق يومًا أن المويلحى الكبير – صاحب مصباح الشرق – دخل مكتب « المؤيد » ، ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه إلى سقف الحجرة : قادر أنت يارب أن تسقط هذا السقف على من تحته ، فيستريح عبد الحميد ! قال محمد عبده – وكان من زوار الحجرة – نعم .. لو تقدمت أنت خطوتين ! »

ذكرنا طرفًا من أخبار المؤامرات وقصرنا الكلام فيها على أعلام الأدب الذين تقدمت الكتابة عنهم ، وهم : على يوسف ، ومصطفى كامل ، والمنفلوطى ، والمويلحى صاحب عيسى بن هشام ؛ ولكنهم طائفة معدودة من الذين اتصلوا بالقصور واجتذبتهم حبائلها أو اشتملت عليهم شباكها ، وغيرهم كثيرون من أبناء عصرهم وأبناء العصر الذى يليه تعرضوا لمثل ماتعرض له زملاؤهم من قبل ، وامتزجت حياتهم العامة والخاصة كما امتزجت حركاتهم الأدبية والفكرية بأسرار تلك المؤامرات ، فلا سبيل إلى تقديرهم وتقدير بواعث أعمالهم بغير الاطلاع على تلك الأسرار .

ومن أشهر الأخبار عن العلاقات المتصلة بين القصور ودوائر الأدب ، ذلك الخبر الذى لم يكتب فى حينه ، ولكنه ورد فى مذكرات أحمد شفيق باشا التى نشرها بعد خلع السلطان عبد الحميد والخديو عباس الثانى ، وذلك هو خبر الأستاذ الإمام محمد عبده مع شبكة الجاسوسية الصحفية فى القاهرة والآستانة ، وكان الخديو عباس شديد النقمة على الأستاذ لمعارضته إياه فى سياسة الأزهر وديوان الأوقاف ، ولكنه لم يكن يستطيع عزله لغير سبب يمكن

تقريره والاستناد إليه ، ولم يكن نظام مجلس الوزراء يسمح له بالتصرف في المناصب الكبرى بوحي من أهوائه الشخصية ، فأراد أن يتمسح بحقوق الخليفة الأكبر – عبدالحميد – في المسائل الدينية ، وانتهز فرصة السياحة الصيفية وسفر الأستاذ إلى الآستانة لتوريطه في موقف مريب يؤدي بالاتفاق مع جواسيس « المابين » إلى اعتقاله « متلبساً » بحالة من الحالات الشائنة التي لا تجمل بمفتي الديار .. فلا يصعب على الخديو بعد ذلك أن يأمر بإخراجه من المناصب الدينية ومن وظيفة التعليم بالجامع الأزهر . ولا يستطيع المستشارون الذين يشهدون مجلس الوزراء أن يعارضوه باسم القانون المالي ونظام تأديب الموظفين .

وقد تولى هذه المهمة مكاتب « المؤيد » بالآستانة فقدم نفسه إلى الأستاذ ، وعرض عليه خدمته لتمكينه من الفرجة على مناظر البلد التي يجهلها السائح الغريب ولا يهتدي إليها بغير دليل ، ولولا يقظة الشيخ محمد عبده وانتباه بعض المصريين في الآستانة إلى خبيئة هذه الدسيسة لاعتقل الشيخ في جهة من جهات اللهو المنكر يراقبها الشرطة ، ويستطيعون على الأقل أن يخرجوا من البلد من يصطدم فيها بالمشاغبين الغرباء .. فيحقق القول على الإمام « المتهتك » ، وتكون هي القاضية على سمعته وعلى جهوده ومشروعاته في سبيل الإصلاح .

وأمثال هذه « المؤامرات » بين سماسرة القصور وحملة الأقلام أكثر من أن تحصى ، كنا نسمع ببعضها في حينه .. ولكنها لاتنشر في الصحف السيارة إلا بأسلوب التورية والتلميح ، أو تنشر عنها الكتب التي تصاغ بأسلوب « القصة الخيالية » وأبطالها جميعاً معروفون .

ولم تنقطع هذه المؤامرات كل الانقطاع إلى زمن فاروق ، ولكنها ذهبت شيئًا فشيئًا على مراحل متعاقبة ، ترتبط كل الارتباط بتواريخ القصور « ذات الشأن » ، كما يقال في التعبيرات الحديثة ، وهي مراحل العلاقة بين قصر يلدز وقصر عابدين ، ثم مراحل العلاقة بين قصر عابدين وقصر الدوبارة ، وهو عنوان دار الوكالة البريطانية المشهور .

ولهذا كانت الناحية الدينية غالبة على هذه المؤامرات في مرحلتها الأولى ، وكان محورها الأكبر مسألة الخلافة ومسألة السمعة الدينية أو الدعاية التي لها علاقة بالدين وبالأخلاق .

كان السلطان العثماني يتهم الخديويين بالسعي إلى تحويل الخلافة من الترك إلى البلاد العربية ، وكان الخديويون يحذرون من سلطان الخليفة لأنه السلطان الذي كان من حقوقه أن يخلع أمير مصر أو يبدل نظام الوراثة أو يساوم الدول الأوربية على حساب الخديوية المصرية ، كلما كانت له في ذلك مصلحة من مصالح السياسة الدولية .

ومن هنا جاءت تلك القضايا التي ترتبط بمناصب الإفتاء ومشيخة الطرق الصوفية

ومنازعات الزوجية والكفاءة لها من وجهة النسب والرجاحة الاجتماعية ، كما جاءت تلك الأقاويل التي تدور على اتهام كبار الرجال العاملين في نهضة هذه الأمة ، لأنهم ينازعون الخليفة أو الأمير ، ولايسهل التغلب عليهم بغير التشهير وتدبير المواقف التي تنفر الناس منهم باسم النخوة الدينية على الخصوص .

وقد ذهب عهد عبد الحميد ، وبقيت لمسألة الخلافة ذيولها التي شهد المعاصرون آثارها في حياتنا الفكرية .. فإن الثورة الفكرية التي اشتبكت فيها أقلام العلماء والأدباء شهورًا في هذا البلد بعد ظهور كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لم تكن لتشتعل هذا الاشتعال لولا طموح أحمد فؤاد إلى الخلافة واعتقاده أنها توطد مكانه عند الدولة البريطانية لتستعين به على حكم الإمبراطورية الهندية ، ولو بلغ من شأنه أن يستفحل حتى يؤدي إلى سقوط الوزارة وإثارة المشكلة الدستورية على وضع جديد .

وللناقد الأدبي – إذن – أن يجعل شعاره « فتش عن القصر » أو « فتش عن قضية الخلافة » ليفهم حقيقة لا غنى عنها في تدبير مدارسنا الأدبية في الجيل الماضي وتقدير أسباب التجمع والتفرق بين حملة الأقلام في كل مدرسة منها ، وبغير هذا « الشعار » يتعذر عليه كل العذر أن يدرك الأسباب الكامنة وراء تكوين تلك المدارس من مجرد العلم بآثارها المكتوبة وتراجمها المعروفة .

ولنضرب لذلك – مثلاً – قصيدة الاستقبال التي قيل في مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد ... وملك وإن طال المدى سيبيد

وقيل في ختامها :

أعباس ترجو أن تكون خليفة ... كما ود آباء ورام جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا ... نكون ببطن الأرض حين تسود

فدسيسة القصيدة – على حد قولنا دسيسة الرواية – هي قضية الخلافة واتهام الخديو عباس الثاني بالطموح إليها .

والأطراف المعنيون في القصيدة – كما ظهروا للناس – هم : السيد توفيق البكري ، والسيد مصطفى المنفلوطي ، والشيخ حمزة فتح الله ، وأحمد فؤاد صاحب « الصاعقة » ، ومن وراء الستار السيد إبراهيم المويلحي والسيد محمد المويلحي ، والسيد علي يوسف ، وأدباء الحاشية الخديوية .

فالسيد توفيق البكرى شيخ الطرق الصوفية ، والسادة البكرية ركن مهم من أركان قضية الخلافة بما كان له من المكانة الدينية وما كان له فى الآستانة من « الصفة الرسمية » التى خولته منزلة من الرئاسة تقارب منزلة الخديويين ، وهذه هى الصفة التى عناها حين أهانه الخديو عباس ، فقال فى جوابه :

« أنا وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك » .

والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى كان فى تلك الآونة طالبًا فقيرًا من طلاب الجامعة الأزهرية ، ولكن انتسابه إلى الشرف النبوى هو الذى قربه من شيخ الطرق الصوفية ، وزج به فى منازعات الخلافة ومناوراتها .

والشيخ حمزة فتح الله هو أحد علماء اللغة من المغاربة الذين كان القصر الخديوى معنيًا بضيافتهم مع أمثالهم من علماء البلاد العربية ، لاكتساب الصفة الإسلامية .. ودوره فى قضية القصيدة أنه شطرها ليرد هجاءها إلى ناظمها ، ويعنيه عناية خاصة من ناحية النسب وعراقة البيت ، وفى هذا التشطير يقول :

قدوم ولكن لا أقول سعيد   على فاجر محو الملوك يريد
لئام لهم « بيت » من اللؤم عامر   وملك وإن طال المدى سيبيد

وأحمد فؤاد هو صاحب صحيفة « الصاعقة » التى أنشئت لتكون صحيفة « الهجاء الاجتماعى » الأخرى أمام السيدين المنتسبين إلى الإمام الحسين ، وقد كان يومئذ إلى جانب الآستانة ، فى تردده الطويل بين القصرين : قصر يلدز وقصر عابدين ..

والمويلحيان ، وعلى يوسف – كلهم ينتسب إلى الشرف . وكلهم يخوض معركة الكفاءة الزوجية باسم الانتماء إلى السادات ، ومنظومات عام الكف وعام الكفء بعض ثمرات هذه المناوشات .

ومن وراء ذلك حاشية الأدباء فى قصر عابدين ودورهم فى القضية مستور ، ولكنهم يقومون به من وراء الحملات التى تشن على أدباء القضية من وراء ستار .

* * *

وفى المرحلة الثانية من مراحل المؤامرات بين القصور وحملة الأقلام ، تأتى مؤامرات النزاع بين قصر عابدين وقصر الدوبارة مقر العميد البريطانى الذى كان يلقب بقيصر قصر الدوبارة ، وإليه يوجه حافظ إبراهيم قصيدته حين يقول :

قيصر الدوبارة هل أتاك حديثنا   فالشرق ريع له وضج المغرب

وعنه يتحدث حين قال :

وما دام فى قصر الدوبارة ربه   فسعد ودنلوب لعمرك واحد

وعلاقته البعيدة بمدارس الشعر تظهر فى منظومات أناس بلغ من قحة أحدهم أن يسمى قصائده بالكرومريات معارضًا بها « الشوقيات » .

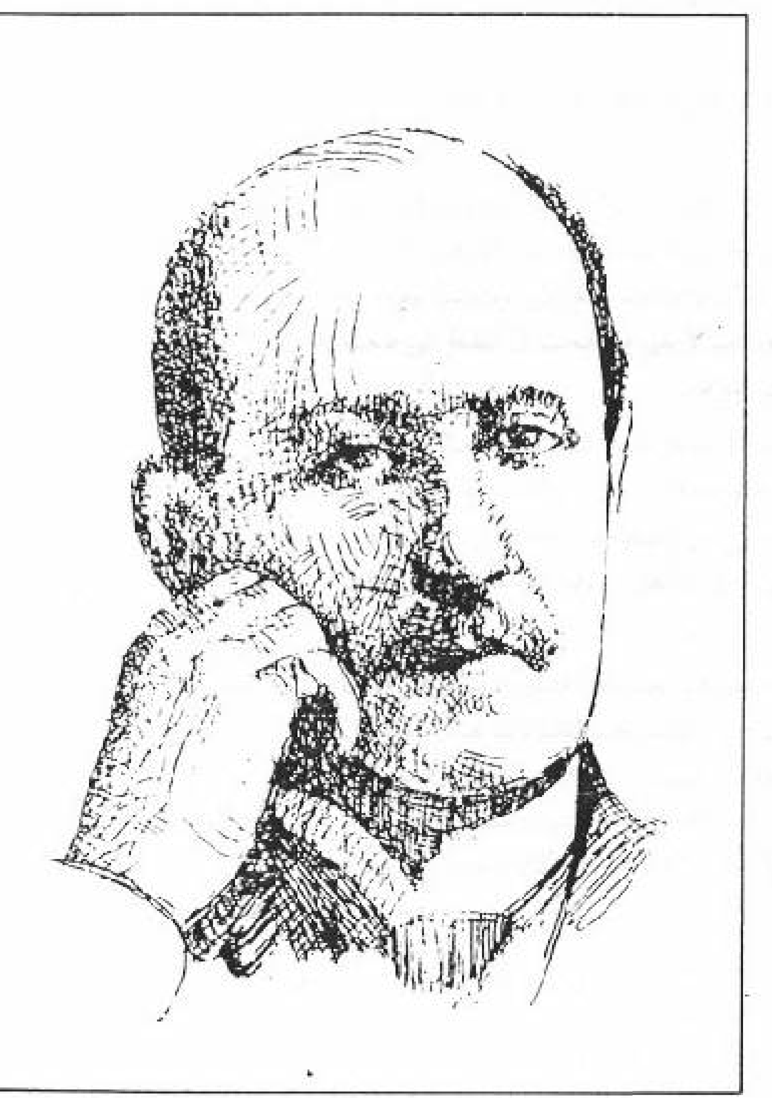
* * *

ولولا أن عاملاً جديداً ظهر فى الوسط – وهو عامل الحركة الوطنية – لكان مجال المؤامرات القلمية بين قصر عابدين وقصر الدوبارة أوسع من كل مجال آخر ، بلا استثناء مجاله الأكبر بين يلدز وعابدين ، ولكن ظهور هذه الحركة تحول بأصحاب الأقلام إلى معركتها الصريحة فى الصحف وعلى منابر الخطابة ، ولم يترك للشئون الديوانية من الجانبين غير « إجراء إدارى » فى يد الإنجليز لصرف الأقلام عن الكتابة السياسية ، وإجراء إدارى آخر فى يد الخديو لصرفها عن الصحافة « المشاغبة » عمومًا إلى ديوان الأوقاف ، فكان نفوذ المستشارين وراء تشجيع المجلات العلمية والأدبية باشتراك الوزارات فى مئات النسخ من أعدادها الشهرية أو نصف الشهرية . وكان نفوذ الخديو وراء تعيينات الأدباء الكبار والناشئين بديوان الأوقاف . ومنهم محمد المويلحى كاتب « مصباح الشرق » و« عيسى بن هشام » ، وأحمد الأزهرى صاحب مجلة « الأزهر » وعبد العزيز البشرى ابن شيخ الإسلام ، ومعهم أدباء آخرون لم يكن للخديو يد مباشرة فى تعيينهم بالديوان ، ولكن تعيينهم هناك شغلهم بالشعر عن الكتابة الصحفية وجعل من بعضهم شعراء يتسابقون إلى نظم المدائح الخديوية فى مناسبات المواسم والأعياد .

* * *

وانتهت بانتهاء العلاقة بين مصر والدولة العثمانية مدرسة الكتاب والأدباء الذين كانوا يضعون قدمًا فى هذا البلاط أو ذاك وقدمًا أخرى فى بلاط صاحبة الجلالة . ونشأ الجيل الجديد من الكتاب والشعراء فى الهواء الطلق ، أو فى جو الحركة الوطنية بما اشتمل عليه من نواح وأطراف .. تارة إلى القصور وتارة عنها فى صف المعسكر الجديد ، وهو معسكر الأمة بنواحيه وأطرافه التى أشرنا إليها .

انتهت تلك المدرسة من أصحاب الأقلام ، ولم تنته مؤامرات القصر « القلمية » من طرف واحد أو من كلا الطرفين .. وقد كانت المصروفات السرية بعض وسائل القصر الخديوى



الدكتور يعقوب صروف

لاصطناع الأنصار ومحاربة الخصوم ، ولم تكن كلها تصرف فى خدمة السياسة الخديوية أو مطامع الخديو الشخصية ؛ ولكنها كانت كلها تصرف فيما يرضى الموكلين بتوزيعها على محررى الصحف والمشتغلين بالأدب المنظوم والمنثور . وبعضهم كان من كبار موظفى القصر ، وغيرهم كانوا من سماسرة الرتب والنياشين غير الموظفين ، وربما استعين بأموال الخاصة لهذا الغرض إذا خيف انكشاف الأمر لديوان الرقابة على الميزانية .

وإلى عهد غير بعيد كان لأموال الخاصة – مع المصروفات السرية – عملها فى اصطناع المحررين والمؤلفين لتعبئة المعسكر « القلمى » حول دعوة الخلافة تارة ، وحول الخصومات الأدبية التى تعنى القصر تارة أخرى .

فكانت الخاصة فى عهد أحمد فؤاد تتولى الإنفاق على أبناء بعض الكتاب فى المدارس المصرية والأجنبية ..

وكانت هذه الخاصة – مع مكتب المصروفات السرية – تنفق على إنشاء المطابع والمجلات لمحاربة الأدباء المخالفين لسياسة القصر والمناصرين لدعوة غير دعوته الخفية أو العلنية .

فى هذه الفترة نشأت المدرسة الأدبية التى ينتمى إليها كاتب هذه السطور ، وفى هذه الفترة تعرضت هذه المدرسة للتشهير والتنديد فى الصحف الأسبوعية التى تخصصت للهجاء الاجتماعى والمناورات الأدبية والسياسية .. وكلها صحف يعرف من عرفها أنها تقصد بحملاتها من يبذلون المال فى سبيل اتقائها ، ولا يعنيها أمر أمثالنا من الناشئين الفقراء ، إلا أن يكون مصدر الحملة من ورائها ، لامن بين يديها !..

وتقدير الحملات الأدبية ، والمدارس الفكرية أيضًا ، فى هذه الفترة المتأخرة يعود بالناقد المحقق – لامحالة – إلى ماوراءها فى سراديب القصر وحواشيه ، فلا حيلة له فى اجتناب هذه الناحية الخفية لتصحيح الحكم على طبيعة كل حملة أدبية ولباب كل خصومة عامة أو خاصة بين القائمين بها ، وإن لم يكن كله لازمًا فى أمر المدارس المتأخرة لزومه فى أمر المدارس على عهد الأدباء الأسبقين .

ونظرة واحدة إلى ماوراء الستار قد تغنى عن بحوث مستفيضة يجتهد لها الباحثون لوزن الدعوة أو وزن الحملة بميزانها الصحيح ، فلن يدرك الباحث حق الأسلوب من الرفق أو الشدة ، ومن الاعتدال أو الاندفاع ، إذا كان نظره قاصرًا عما يستدعيه ويدفع بصاحب القلم إليه ، فإن الأسلوب الذى يستدعيه نقد فكرة غير الأسلوب الذى يستدعيه إحباط مكيدة من وراء الستار ، يمالئها سلاح السلطان كما يمالئها سلاح الدرهم والدينار .

الدكتور يعقوب صروف

☐ كنت فى زيارة للقاهرة حين لقيت الدكتور يعقوب صروف صاحب « المقتطف » حوالى سنة ١٩٠٥ ..

وكانت زيارات القاهرة فرصة للبحث عن الكتب الخاصة التى لا تصل إلى الأقاليم مع الباعة المتجولين ، وقد يتطلب البحث عنها زيارة حى « الكتبية » إلى جوار الأزهر ، أو زيارة حى الفجالة حيث تباع المطبوعات العصرية ، لأن قوائم المكتبات لم تكن يومئذ شيئًا معروفًا فى بيئات النشر والطالعة ، وكان المعروف المتداول منها لا يغنى عن البحث فى المطبعة التى طبعت الكتاب والمكتبة التى تبيعه .. وقلما يباع فى سواها ..

أما الكتاب الذى قصدت إلى دار المقتطف فى مدخل شارع عبد العزيز للبحث عنه ، فهو كتاب « الكائنات » للشاعر الباحث العربى جميل صدقى الزهاوى ، وكانت مجلة المقتطف هى التى تولت طبعه فى القاهرة لأنه يبحث فى موضوع من موضوعات « فلسفة ماوراء الطبيعة » .. وهى تلك الموضوعات التى كانت تثير الريبة فى الأقطار الشرقية إلى مابعد أوائل القرن العشرين .

ولقد كان لقاء الدكتور يعقوب صروف – فيلسوف العصر عند المحدثين – هو الغرض الأول من زيارة الدار . إذ كان فى وسعى أن أسأل عن الكتاب بمخزن المطبوعات هناك ، وكان فى وسع عامل المخزن أن يتولى إخراج الإذن ببيعه من رئيسه فى إدارة المقطم أو إدارة المقتطف ، ولكننى قدمت إلى القاهرة من مدينة « قنا » حيث كنت أعمل تلميذًا بالقسم المالى فى انتظار التثبيت وأنا خارج من إحدى « المعامع » الأدبية أو الفكرية . التى كان « يعقوب صروف » محورًا من أهم محاورها الكثيرة طوال أيام الحرب الروسية اليابانية ..

ولابد من ذكر الحرب الروسية اليابانية فى هذا المقام ، لأنها كانت فى الواقع محور المحاور فى ميادين العصبيات السياسية والوطنية ، والصحفية والأدبية يومذاك .. بل كانت محور المحاور فى كل عصبية يثور لها الشباب الذى يعنى بشأن غير شئونه الخاصة كيفما كان ..

وكان النزاع حول الطرفين – روسيا واليابان – يشمل ضروباً من النزاع حول كل موضوع عام يشغل أذهان الناشئة على الخصوص ..

فكان النزاع الوطني يميل بالأكثرين من الشبان المصريين إلى جانب الدولة الشرقية الناهضة ، أو دولة « الشمس المشرقة » التي ألف فيها مصطفى كامل كتابه بهذا الاسم ، كأنها المثال الأول للأمم الشرقية الجاهلة في قضايا الحرية والنهضة والاستقلال ، وفيها يقول حافظ إبراهيم :

هكذا الميكاد قد علمنا أن نرى الأوطان أما وأبا

وكان التنافس بين خريجي المدارس الإنجيلية والمدارس المحلية الأرثوذكسية على أشده وأوسعه في عواصم الصعيد ، ولاسيما في أسيوط .. فكانت روسيا رمزًا لعصبية المدارس الأرثوذكسية ، وكانت اليابان رمزًا للعصبية الأخرى لأنها صديقة الدول الإنجيلية التي تعادى روسيا في قضايا السياسة العالمية ، وفي مقدمتها إنجلترا والولايات المتحدة ..

وكانت العداوة بين دولة القياصرة ودولة الخلافة الإسلامية سببًا لعصبية أخرى ، جمعت أنصار دولة الخلافة إلى صف واحد يناصر اليابان ، في سبيل الوطنية وفي سبيل الدين ..

وكان أصحاب المقطم والمقتطف للمرة الأولى في صف واحد مع أنصار الوطنية وأنصار الدولة العثمانية ، مع ما هو معروف من موقفهم حيال تركيا وحيال بريطانيا .

أما عصبية الثقافة ، فقد أبرزت أمام الخريجين من المدارس الإنجيلية اسمي : « يعقوب صروف » و « فارس نمر » صاحبي المقتطف والمقطم ، لأنهما كانا في عالم الكتابة أنبغ من اشتهر من كتاب العلم والسياسة في عالم الصحافة الشرقية . وكانت هذه العصبية تبلغ الهزل على ألسنة المتشيعين لهذين الكاتبين حين يجعلونهما موضوعاً من موضوعات النظم شعرًا وزجلاً ، وهم لا يحسنون هذا ولا ذاك باللغة الفصحى ولا باللغة العامية .. ومما يحضرني من أبيات « الزجل » في الثناء على « فارس نمر » قول أحدهم :

فارس نمر تعلملي وتهذبلي وفي فنون العصر نابغلي
نابغلي في علوم العصري وكان ساكلي في بلاد الشاملي
واسمع له في الخطابة وتعال قل لي واقرأ له في المقطم والمقتطف باعلى

وإذا بلغ بالحماسة « الأدبية » أن تنطق من لا ينطق بهذا « النشيد » فقد يتصور القارئ العصري كيف كانت حماسة المتشيعين لكاتب المقتطف وكاتب المقطم عن فهم وإدراك صحيح .

أما نحن — من غير ناشئة المدارس الإنجيلية — فقد كان تشيعنا لليابانيين لا يبلغ عندنا أن يشفع لـ « فارس نمر » أو يقربه إلينا ، كاتبًا أو سياسيًا ، أو عالمًا كما اشتهر في أوائل عهده

بالصحافة ، ولكننا كنا نمحض يعقوب صروف من إعجابنا الأدبي كل ما كنا نأباه على زميله ، وكان اعتزال صروف للدعاية السياسية يخرجه من ميدان الخصومة ويكسبه من كرامة العلم ولاء مشتركًا نتفق عليه مع زملائنا الخريجين من المدارس الإنجيلية .

وقد أذكر إلى اليوم كيف لقيني رهط منهم بعد عودتي إلى قنا ومعي نسخة من كتاب « الكائنات » عليها كلمة بخط العالم الكبير .

ولقد كانوا يستمعون لي كأنهم يستمعون إلى حديث رؤيا غير قابلة للتصديق . وكانوا يسألون : كيف حييته ؟ وكيف رد عليك التحية ؟ وماذا قال لك حين أسلمك الكتاب ؟ وهل فاتحك في بحث من بحوثه ؟.. وماذا قلت له عن المؤلف ، وعن موضوع التأليف ؟. وقد كانت دهشتهم الكبرى أنني لم أجد في الرجل ما يثير الدهشة إن كانت الدهشة بمعنى الرهبة . بل كان الرجل في الحق مثلاً الطيبة الأبوية والوداعة الحكيمة ، فلم يختلف شعوري بلقائه الأول بعد أن لقيته مرات في مكتبه وفي داره وفي بعض المجالس الأدبية ، ولم أره بعد ذلك على غير تلك الصورة التي شهدتها منه أول مرة !.. بساطة لا تخلو من تحفظ السمت والوقار ، وعاطفة أبوية يشمل بها كل من عرفوه من ناشئة الكتاب والدارسين .

عتب على أول الأمر أنني فجأته بالدخول إلى مكتبه بغير استئذان ، ولكنه عاد يستمحني حين أكدت له أنني طرقت الباب طرقًا خفيفًا لعله لم يسمعه وهو مستغرق في القراءة . فقال مبتسمًا : « بل هو ثقل في السمع يعتريني من حين إلى حين ، فلا تؤاخذني إذ عتبت عليك ..! »

ولكن الحدة التي فاتتني من صاحب الدار لم تفتني من عامل المخزن حين خرجت ... لتسليمه ورقة الإذن ببيعه — وأظنه كان متمصرًا طال مقامه بالقاهرة — لأنه نظر في عنوان « الكائنات » وقال مازحًا : « جاك كائنة ! » .. وهي دعوة لا يعرفها غير المصريين أو المتمصرين ، وإنما قالها ليقول إنني أفلحت في تهدئة غضب الدكتور وأعفيته من جزاء كان مستحقاً له لو لم أقنع الدكتور ببراءة موظفيه من التقصير ، لأنني قصدت أن ألقاه ابتداء ، ولم يكن دخولي إلى مكتبه لخطأ من أولئك الموظفين .

* * *

ولا يحضرني تفصيل الحديث الموجز الذي سمعته من الدكتور صروف في تلك المقابلة الأولى ، ولكنه دار على الإجمال حول فلسفة « ماوراء الطبيعة » وعلقت بذهني كلمة منه لغرابتها أو لغرابة صدورها من « الفيلسوف يعقوب صروف » . وتلك هي قوله إنه لا يقبل تلك

سفة ، أولا يهضم تلك الفلسفة ، أو عبارة دارجة بمعنى هاتين العبارتين ، على حد القائلين التعبيرات الأوربية الشائعة : « إننى لا أبتلع هذه الفلسفة » .

وفوجئت ، ولا غرابة ، بذلك التصريح من رجل لم يشتهر فى عالم الثقافة العربية يومئذ بما هو أشهر من صفة الفيلسوف : ولا نعلم أن أحداً غيره وغير زميله « فارس نمر » حصل على لقب « الدكتور فى الفلسفة » من جامعة غربية ، وإنما كنت أفهم فى بداءة عهدى بالاطلاع على فلسفة « ماوراء الطبيعة » أنها هى الفلسفة كلها أو هى الفلسفة فى أهم مسائلها وقضاياها ، فإن لم تكن هى كذلك فهى - على الأقل - شئ لا يصعب هضمه على « الفيلسوف » - بألف التعريف !

إلا أن الدكتور عرفنى بتلك الكلمة العابرة بحقيقة رسالته فى نهضة الثقافة العربية بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فكان من الخطأ أن نفهم من تلقيبه بالدكتور فى الفلسفة أنه فيلسوف كفلاسفة البحوث المنطقية النظرية ، فى قضايا الغيب المجهول ومشكلات « ماهية الوجود » على منهج أرسطو وابن سينا وابن رشد والغزالى ومحيى الدين ، وإنما هو فيلسوف فى نطاق العلوم التجريبية التى يقوم برهانها على الوقائع والمشاهدات وإن تناولت مباحث التاريخ والأخلاق ، ولا تقيم براهينها على الفروض والأقيسة من قبيل براهين الكائنات لإثبات الفضاء المحدود وغير المحدود .

وبعد أكثر من عشر سنوات ، سمعت منه مثل هذا الرأى فى فلسفة « ما وراء الطبيعة » خلال حديث أذكر مناسبته ولا أذكر زمنه على التحديد . وقد كانت هذه المناسبة تعقيباً على مقال للآنسة « مى زيادة » حول فلسفة « برجسون » لم أقرها على كثير مما فيه ، وكان الدكتور صروف يقرأ تعقيبى وهو يبتسم ، ويقول بين آونة وأخرى : « برجل ! .. أتتمرجل على بنت ؟.. » فاستمددت منه المقال ، وعلمت بعد ذلك أنه أطلع الآنسة على ملخص ذلك التعقيب !

وفى خلال المناقشة حول كلام الآنسة ، وتعقيبى عليه ، علمت منه مرة أخرى أنه ينظر إلى الفلسفات التى على غرار فلسفة برجسون من ناحيتها العلمية التى تنطبق على قضايا الحياة الإنسانية ، ولا تخوض وراء ذلك فى أحاديث « الغيبيات » وفروض ماوراء الطبيعة ، وأن فكرة التطور فى كتابة برجسون تنبه لأنها على اتصال بمذهب داروين ، ولا أذكر أننى سمعت منه - يومئذ - كلاماً يدل على التوسع فى الاطلاع على مذهب الفيلسوف الفرنسى ، ولا على مذاهب زملائه الأوربيين فى تلك الفترة .

وبعد سنوات أخرى قرأت خلاصة المناقشة التى دارت بين الدكتور صروف وبين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى مجلس على مبارك باشا ، فأكدت لى أصالة هذه النظرة إلى الفلسفة فى رأى الدكتور صروف منذ زمن بعيد ، وخلاصة هذه المناقشة أنهم تحدثوا فى المجلس عن كاتب وصفته الصحف بالفيلسوف فقال الدكتور : « إن الناس قد ابتذلوا هذه الكلمة حتى صاروا يطلقونها على غير أهلها » ، ثم تساءل الحاضرون : « من يكون الفيلسوف إذن على المعنى الصحيح ؟ » قال الدكتور فى رواية السيد رشيد رضا : « هو الذى يتقن جميع العلوم » .. فقال الشيخ محمد عبده : « إذن لا يوجد على الأرض فيلسوف » .. فعاد الدكتور يقول ما معناه : « إنه لابد أن يتقن علماً من العلوم ويلم بسائرها » ، فقال الشيخ محمد عبده : « إن الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وقبلها الثانوية ، على إلمام بالعلوم ويتقنون بعضها .. فما أكثر الفلاسفة بين الأطباء والمهندسين وسائر الطلاب بهذا المعنى ! » . ولما سئل الشيخ محمد عبده : « من يكون الفيلسوف إذن ؟ قال : « إن الفيلسوف - كما يفهمه - هو الذى له رأى فى العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه » .

ولم أزل ألقى الدكتور صروف بين آونة وأخرى إلى ماقبل وفاته بقليل ، فأعرف منه فى كل مقابلة صورة واحدة لم تتغير منذ رأيته للمرة الأولى : صورة فيلسوف له عقل عالم مشغوف بالواقع من الخبرة العملية ، وله مع هذا العقل العلمى قلب إنسان ودود يحب الخير للناس ويغتبط بتوفيقهم للنجاح ..

وأذكر اغتباطه بتوفيق الناشئين إلى النجاح لأن كتابه المترجم عن صمويل سمايلز باسم « سر النجاح » كان أول كتاب قرأته له وأخبرته بإعجابى به حين سألنى عن مؤلفاته . ولم أزل كلما زرته أسمع منه سؤالاً واحداً قبل كل سؤال : « ماذا صنعت لنفسك ولمستقبلك ؟ » . فوقر فى نفسى أن كتاب « سر النجاح » لم يكن مجرد كتاب ترجمه وأضاف إليه ودل به على طريقته العلمية فى تحقيق السير والأخلاق . ولكنه كان قبل ذلك ترجماناً لسجية الخير والمودة فيه ، وعنواناً لرغبته فى الحياة الناجحة ورغبته فى تعليم الناشئين جميعاً كيف ينجحون ويسعدون بالحياة .

كان يقول لى مازحاً : « إياك أن تكون من شعراء شكوى الزمان ومعاتبة الإخوان ؟ .. وحذار أن تحسب « البؤس » زينة للأديب وقسمة مقدورة للأذكياء ؟! ..

وسألنى مرة : « ألا تصدق قول القائل : إن الناس فى طلب المال حتى يصلوا إلى العلم ، وفى طلب العلم حتى يصلوا إلى المال ؟ » .

وقبل أن أجيب سؤاله ، ولعله سأله وهو لا ينتظر جوابي عليه ، قال : « إنك إن صدقته أو لم تصدقه تستطيع أن تكون على يقين من حقيقة حسابية لا خلاف عليها وهي : اجمع الدراهم والدنانير تجمع نفسها ! » .

« ولا أعرف أحدًا من كبار الأدباء الذين عرفتهم في أيام نشأتي قد عناه أمر عملي الذي أعول عليه في معيشتي غير اثنين : أحدهما الدكتور صروف ، والآخر محمد المويلحي الذي رشحني للعمل بديوان الأوقاف » .

فلما علم الدكتور صروف أنني استقلت من العمل بالمدرسة الإعدادية ، فكر مليًا ثم قال : « إنني أعلم أن القيادة العسكرية تبحث عن مندوبين صحفيين وتفضل أن يكونوا من المسلمين ، لأنها تنوي أن تندبهم من حين إلى حين للسفر إلى خطوط القتال وراء القناة وفي حدود سيناء ، ولا تريد أن يكونوا متهمين في رواياتهم عن مناعة تلك الخطوط إن كانوا على غير دين الترك المغيرين على البلاد .

فلما تبين مني النفور من القيام بهذه المهمة الصحفية مع وفرة العائد منها ، قال : « أرى أن شعورك غير مستريح إليها .. وقالها بالإنجليزية :

فأجبته : « نعم .. فإن المسألة إن كانت من إحدى جهتيها غارة تركية على حدود مصر ، فهي من الجهة الأخرى حرب بين الجيش التركي وجيش الاحتلال ! » .

قال : « فليكن لك رأيك وشعورك » .. ثم سألني أن أعود إليه بعد يوم لأمر لا علاقة له بهذه البعثة ، فإذا به قد اتصل بمدير مدرسة وادي النيل ليبلغه إنه يرشح لمدرسته معلمين يعرف كفايتها الأدبية وصلاحها للتدريس ويسأله أن يزوره غدًا ليلقاها عنده إذا شاء .

أما اختياره لهذه المدرسة بذاتها ، فقد كان سببه – كما علمنا بعد ذلك – أن له (أطيانًا) بإقليم الفيوم ، وأنه عرف عبد الله وهبي باشا لهذا السبب معرفة وثيقة يوم كان عبد الله باشا كبيرًا للمهندسين المشرفين على الري في ذلك الإقليم ، وقد ذكر لنا أن الباشا كان حسن العناية بأطيانه ، ولم يذكر لنا أنه هو – أي الدكتور صروف – كانت له يد في تزكية الباشا عند كبار الرؤساء الإنجليز ، ودفع الوشاية التي عرضته للمحاكمة ، وانتهت باستقالته دون تقديمه إلى مجلس التأديب .

وقد كان من جراء ذلك ، أن عبد الله وهبي باشا لم يأمل خيرًا في وظائف الحكومة لأبنائه ، فأنشأ المدرسة الثانوية باسم « وادي النيل » لابنه الأكبر ، واتجه أبناؤه الآخرون

إسماعيل ويوسف وعباس للعمل المستقبل في المحاماة وفن التمثيل وشركات الهندسة والمعمار .

وإنني لأذكر كلمة « الأطيان » هنا كما كان يرددها الدكتور في طيبة وديعة لا ننساها ، لأننا كنا نحس منه ارتياحًا لتكرارها وهو يقول : « ذهبت إلى أطياني » و « شكرت لعبد الله باشا عنايته بأطياني » ، و « فكرت في قضاء الصيف بأطياني » .. وكنا نحس مع هذا التكرار بغبطة بريئة كغبطة الطفل بكسوته الجديدة في غير عتو ولا خيلاء ونحس مرة أخرى أننا مع الفيلسوف العليم بحكمة الحياة وحب النجاح .

وتعددت الزيارات لدار المقتطف بعد اشتغالي بمدرسة وادي النيل لأن الدارين كانتا متقاربتين يومئذ بحي باب اللوق ، وكانت مكتبتي الخاصة لا تكفي للمراجعة في مباحث التاريخ والأدب التي كنت أطلب مراجعتها بدار الكتب وفي غيرها ، وقد رخص لي الدكتور في الانتفاع بمكتبة المقتطف ومجلداته القديمة كلما وجدت فيها متعمقًا لبحوثي التي كان يسميها بالبحوث « السبنسرية » نسبة إلى هربرت سبنسر إمام مذهب الفلسفة والتقدم في الفلسفة الإنجليزية ، إذ كان يقول كلما ناقشته في رأي مخالف لرأيه إنها حجة سبنسرية :

وإن طريقتي في الاستدلال تشبه طريقة سبنسر في تحقيقاته ، وما كتبت لأحيد هذا « التقريظ الشفوي » اليوم في كتابي عنه لولا أنه سجله في المقتطف حين قرظ ديوان صديقنا المازني ، فقال عن مقدمتي له إنها اشتملت على تحقيقات تشبه طريقة سبنسر في الاستدلال .

* * *

وعلى تعدد الزيارات لم يكن ينسى كلما زرته أن يسألني عما أصنعه لنفسي ولمستقبلي ، وعما أجده في المدرسة وفي شواغلي الأدبية ، وكان يحثني كل مرة على إتمام دراستي لأبي العلاء المعري التي نشرت منها مقالين في المقتطف ثم اقتضبتها للعودة إليها مع زيادة الشرح والتحليل .. فإذا انتقل الحديث إلى موضوعات المقتطف أو موضوعات الدكتور التي يفكر فيها ، فقلما كان الحديث يستطرد بنا إلى غير اللغة ومسائل الاجتماع مما له علاقة بالدين والأخلاق ، وقلما عرض للسياسة إلا أن تتفق الزيارة على أثر حادث من الحوادث البارزة التي لا يتخطاها المتحدثون في إبانها ، وكذلك رأيته يومًا وعلى وجهه مسحة الامتعاض الظاهر بعد أن تعاقب إلقاء القذائف على طائفة من الوزراء ورؤساء الدولة ، فقال بشيء من المرارة : « إننا تقدمنا جدًا وأفرطنا غاية الإفراط في التقدم .. ولمَ لا ؟ .. هذه مبادئ التطرف في الوطنية تنتهي إلى الطرف الأقصى من مبادئ الفوضويين ! » .

وزرته يومًا وهو يقرأ كلامًا في الصحف عن نهضة الإسلام وعودة السلطان إلى الأمم

[إس]لامية يستشهد فيه الكاتب بالآية القرآنية من سورة القصص : « ونريد أن نَمُنَّ على الذين [اسـ]ـتضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين » .

فسألنى بلهجته اللبنانية متبسطاً : « وليش ماعمل ؟ »

قلت : « إن الخالق يريد ، وعلى الخلق أن يعملوا بما أراد »

[فـ]ـعاد يقول فى جد ووقار : « نعم يعود الإسلام إذا عاد أهله إلى صدق العقيدة .. » ، ثم [اسـ]ـتطرد يقول : « إن الأعرابى والعزة لايبقيان على شئ أخضر حيث ذهبا .. ولكن غيرة [الإ]سلام هى التى ابتعثت من الأعرابى صانعاً للدول والسلطنات » ، وأحسبه قال : « إن عالِم [ا]لإسلام – محمد عبده – قد عرف طريق العودة ودل المسلمين عليه ؛ وما من طريق لتلك العودة غير العلم والأخلاق » .

وربما جشمه البحث عن تحقيق كلمة لغوية أن يصعد السلم ليلتقط هذا الكتاب من هنا وذاك الكتاب من هناك ، فلا يستريح أو يحقق الصواب فى الكلمة قبل استعمالها فيما يكتب أو يترجم ..

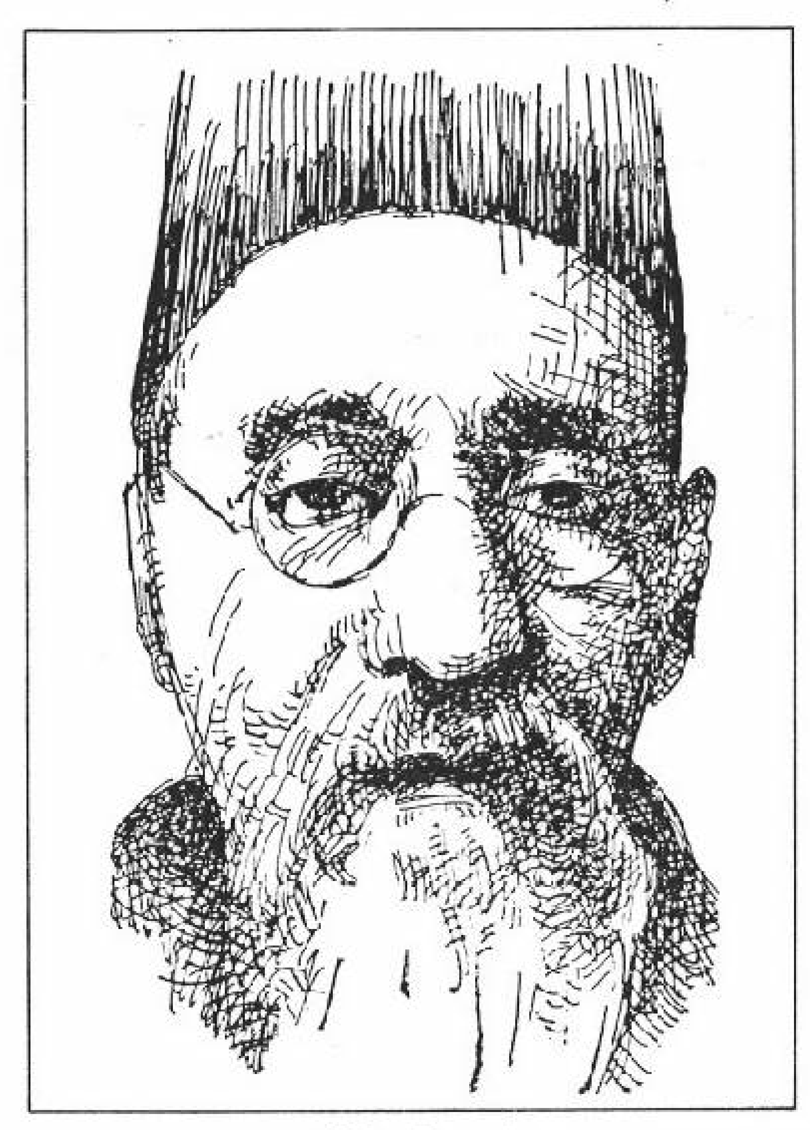
رأيته يومًا على السلم يبحث عن كلمة « الشهية » هل وردت فى الكلام الفصيح بمعنى القدرة على اشتهاء الطعام ؟ وهل من الجائز أن يقال على بعض التوابل والأبازير إنها تفتح « الشهية » ؟.. فانتهى على أن كلمة المشهيات أصح مايقال فى هذا المعنى ، وأن القابلية خير من « الشهية » للدلالة على المقصود من تهيئة الجسم لطلب الطعام .

ووجدته يومًا يردد كلمات « نفق ونبق ونبك » بتفخيم الباء والكاف . لأنه كان يشك فى أصل كلمة « النفاق » ويحسب أن اجتماع الفاء والقاف فى هذا الوزن قليل فى اللغة العربية ، مطروق فى اللغات السامية والتركية .

قلت له : « لقد اجتمعتا فى كلمتى الفقر والفراق ، وهما عربيتان بلا خلاف » .. قال ضاحكا : « ياسوء مااجتمعنا : فقر وفراق ! .. » .

وتطرقت الأحاديث كثيرًا إلى مسائل الدين ، ولم يكن يكتم رأيه أن الخلاف قائم بين بعض العقائد وبعض المشاهدات العلمية ، ولكننى لم أسمعه قط يتكلم عن الدين فى إجماله بغير الاحترام ، ولم يكن له موقف من الديانات ورجالها غير موقف « سيد المجتمع » من العلمية المسئولة ، وهو كما رأيت منه فى شتى المناسبات شبيه بموقف الرجل المهذب أمام الشيخ المطاع ، بماله من حق السن والخبرة فى كل ماخالفته فيه .

وكذلك كان الفيلسوف الوديع فى عادات تفكيره وسلوكه : إنسانًا اجتماعيًا يعطى العلم والعمل حقهما ، ولاينسى حقًا من حقوق العرف والتقاليد .



جميل صدقى الزهاوى

جميل صدقي الزهاوي

١

□ من اللمحة الأولى تمثل لى كل ماف طوية هذه « الشخصية » القلقة من نقائص التفكير :

حماسة تختلج لها كل أعصاب جسده ويتهدج معها صوته وتتلاحق فيه كلماته ونبراته ..

وفيم هذه الحماسة ؟..

فى النداء بالعقل وحده ، دون أن تخامره سورة من حماسة العاطفة والخيال ..

ذلك هو الزهاوى فى حديثه . وذلك هو « الزهاوى » فى صفحات كتبه ودواوينه ..

دعوة إلى برهان الواقع والمنطق ، وصرخة من صرخات الشعور .. كأنما فقدت كل برهان وكل وسيلة من وسائل الإقناع .

وكان لقائى الأول له فى مجلس الآنسة « مى » تمسكنا الأول عند ضريح الشيخ « المغربى » وهو من مزارات القاهرة فى حى من أحيائها التى تسمى بالأزبكية ..

وقد ساقنا الحديث عن الضريح المعترض فى غير مكانه إلى الحديث عن الخرافات التى تروى عن كرامات الأولياء ، واستطرد به هذا الحديث إلى ذكرياته عن مجلس الأعيان بالعاصمة التركية يوم كان عضوًا من أعضائه العرب فى عهد السلطان « عبد الحميد » .

قال : « إن قطعة من قطع الأسطول العثمانى احترقت . فقام أحد زملائه فى المجلس يقترح على الوزراة أن تشترى من كتاب « البخارى » نسخًا بعدد قطع الأسطول تودعها فيها ، أمانًا من الحريق وضمانًا للسلامة . »

فوثب « الزهاوى » ليرد على الزميل ، وليقول له : « إن السفن الحربية لا تسير فى هذا الزمن بالبخارى .. وإنما تسير بالبخار ! »

وقد وثب « الزهاوى » وهو يعيد هذه القصة مااستطاع الوثوب ..

وداعبته قائلاً : « وهل سلمت من عاقبة هذا التجديف ؟ »

قال فى غير تمهل : « إن لم أسلم فإننى لم أندم !.. »

وأعجبت الآنسة « مى » بحديثه ، فأوعزت به تستثيره لمناقشتى فى مسألتين لم يكن بيننا قط وفاق على واحدة منهما : مسألة الألم ، ومسألة المرأة .

فقد كانت تدين بأن الألم طبيعة الحياة ، وكنت أعود بقضية الألم إلى قضية المرأة كلما سمعتها تردد هذه العقيدة ، فما هى إلا طبيعة الشكوى التى تحلو لبنات حواء ، وطبيعة الحنان الذى يسرها أن تعطيه كما يسرها أن تتلقاه .

أما الخلاف على قضية المرأة ، فقد كنت فيها مع السيدة والدة الآنسة طرفًا واحدًا نتفرد أمامه الآنسة وحدها كلما اختلفنا على كفاية المرأة للنيابة وللانتخاب . فى إبان معركة الدستور ..

وأذكر أننى استحلفتها يومًا إذا تنافس أمامها مرشح يمشى على قدميه إلى صندوق الانتخاب ومرشح آخر يصل إليه فى سيارته « الرولز رويس » فمن منهما يظفر بصوتها ؟

فأسرعت والدتها تجيب عنها : « أنا أقول لك ولا حاجة بك إلى كلامها : صاحب السيارة ولاخلاف ! »

فلما حمل الراية فى هذا الخلاف رجل « من جنسى » كانت شماتتها أكبر من شماتة الغبة فى الرأى . وطفقت تستعيده إلى قضية المرأة تارة وإلى قضية الألم تارة أخرى كلما أوشكنا أن نفرغ منهما . فلما أردت أن أحسم هذا « النزاع » المدبر أخيراً وقلت للأستاذ : « إنى قد أرى معك أن الآلام أكثر من الأفراح فى الحياة .. » صفقت بيديها وضحك « الزهاوى » ، ولم أمهله حتى حسبت عليه هذا الضحك حجة تفند دعواه . فسألته : « ألملك لا تنتصر كثيرًا مثل هذا الانتصار ؟ » .

ولسنا بصدد الإفاضة فى هذه المسألة لبيان رأى الأستاذ فى نصيب الحياة من اللذة والألم ، ولكننى أوجز ما عنيت بكثرة الألم مع إنكار طبيعة الألم فى الحياة . عنيت أن الحوائل دون الفرح قد تتكاثر وتتكرر ، ولكنها لاتمنع أن طبيعة الحياة بغير حائل هى الفرح والرجاء ..

* * *

ورأيت بقية النقائض فى هذه « الشخصية » – التى لا تعرف التوافق بينها وبين نفسها – يوم زرته بمسكنه فى حجرته المفروشة إلى جوار صحيفة الأهرام ، فقد كان نصير السفور لأكبر يخاطب زوجته من وراء ستار كثيف يحجبها عن النظر ويكاد يحجب صوتها الخفيض لو لم نجتهد فى الإصغاء إليه !

ولم أكد أفرغ من التحدث إليه فى جملة عقائده حتى تحققت أنها وثبات كوثبات اللاعب الرياضى فى ساعة واحدة : صعود وهبوط ثم هبوط وصعود ، ثم عود إلى الصعود وعود إلى الهبوط .. كأنما كان كل وقت من أوقاته نموذجًا مختصرًا لأدوار التطور فى العمر كله ، لولا أنها أدوار لا تتسلسل على اطراد ..

وعلمت بسفره فى اللحظة الأخيرة ، فأسرعت إلى محطة العاصمة أودعه وتمنيت أن أراه مرة أخرى فى القاهرة فقال : « ذلك ما أرجوه ، وأحب إلىّ أن أراك فى بغداد » .

ثم تمت النقائض جميعًا بعد سفره ببضعة أشهر .. إذ سألنى أحد قرائه فى « تونس » عن رأيى فى أدبه ، فأبديت ذلك الرأى كما اعتقدته ، وقلت إنه فى بحوثه الفكرية أرجح منه فى معانيه الشعرية .

وكان من الحق أن يغتبط نصير العقل على العاطفة بهذا الثناء الذى لا غبن فيه من وجهة نظره ، لو استقام على السواء فى إيمانه بالعقل دون الشعور والخيال ، ولكنه غضب مما كان خليقًا أن يرضيه ، وجاءنى البريد من بغداد بخطاب عليه توقيع مستعار ، يقول كاتبه : إن مجلة « لغة العرب » للأب « الكرملى » تنوى أن تتناول ديوانك بالنقد اللاذع فى لفظه ومعناه ، وإن « الزهاوى » صديق للأب « كرملى » فى وسعه ان يثنيه عما ينتويه !

إن فى هذه المناورة « البريئة » دلالة على طية فى غضب الرجل أظرف وأطرف من طيته فى رضاه ، وإنها – ولاريب – لن تصدر من قلب يضمر الكيد ، أو يكون له من الكيد حظ أوفر من حظ الطفل البرئ !

٢

اطلعت فى مجلة «المكتبة البغدادية» على مقال للسيد «أكرم زعيتر» عن (ذكرياته لشاعر العراق الزهاوى) قال فيه من حديث جرى بينه وبين الشاعر فى آخر لقاء له قبل سفره من «بغداد»:

قال – أى الزهاوى –: «هل اطلعت على «الأوشال»؟ قد كنت أظن وقد رق عظمى أن زمنى لن يمتد بى كثيرًا، فسميت مجموعة قصائدى الأخيرة «الأوشال» ثم نظمت بعد ذلك قصائد أخرى، أعتقد أنها آخر ماأنظم فى حياتى التى أرانى مغادرها قريبًا، وقد جمعتها فى ديوان سميته الثمالة ليكون آخر مايطبع لى..»

قلت: «وهل للأستاذ شعر لم يطبع غير الثمالة؟» قال: «أجل.. إنه ديوان لا ينشر فى القرن العشرين»

وكنت قد علمت من «الزهاوى» نفسه أن له شعرًا كثيرًا لا ينشره، وإنه سيوصى بنشره بعد وفاته. وفارق «القاهرة» وهو يكرر لى حديثه عن الشعر المطوى الذى يعتقد أنه إذا نشر فى يوم من الأيام فلن يتسع لنشره بلد غير القاهرة بين البلدان الشرقية.

وقد سمعت أخيرًا أن كتابا ظهر فى القاهرة باسم «الزهاوى وديوانه المفقود» فاعتقدت لأول وهلة أنه هو مجموعة الشعر التى تحدث عنها «الزهاوى» إلى الأستاذ «أكرم زعيتر» ببغداد وأومأ بنبأها إلىّ فى «القاهرة»، واطلعت على الكتاب لمؤلفه الأديب «هلال ناجى» فصدق ظنى فى موضوعه، وإن كان المؤلف الأديب قد توسع فى أبوابه فتناول فيه مباحث شتى عن «الزهاوى» وماكتبه وما كتب عنه، غير ديوان «النزغات» وهو اسم الديوان المفقود.

وحرص المؤلف على تحقيق نسبة «النزغات» إلى «الزهاوى»، فاستقصى الشواهد والقرائن التى تدل على صحة هذه النسبة.. وكلها مقنعة، بل قاطعة، فى إثبات نظم الشاعر لجملة القصائد والمقطوعات التى احتواها ديوان «النزغات»، كما تركه «الزهاوى» عند تسليمه إلى الأستاذ «سلامة موسى»، وعند انتقاله منه إلى الدكتور «زكى أبى شادى» بغير زيادة فيه، وهو مرقوم على الآلة الكاتبة غير مصحوب بالأصل المخطوط.

على أننا نستطيع أن نصحح نسبة النظم فى هذا الديوان إلى «الزهاوى» من الدليل

«الداخلى» فى أسلوب الشاعر «النظمى» كما يقول النقاد. وأظهر ما فى هذا الدليل «الداخلى» أن أبيات القصائد والمقطوعات تشتمل على كثير من ذلك الشد والفتل الذى يطوع به الشاعر كلماته لأوزان العروض.

فالشاعر الذى يقول:

عاش فى الغاب الفرد دهرًا طويلا   قبْل أنْ يُلْقى للرُّقى سبيلا

هو الشاعر الذى يقول فى ديوان النزغات:

– هذه الدنيا دار كل جزاء –

وهو الذى يقول فيه:

عسى الّذى عاق أرضه أن   يخصّه عنصرٌ جديد

وغير ذلك كثير من «الأسلوب النظمى» فى سائر منظومات الديوان..

أما الأسلوب «الفكرى» فهو كذلك مطابق لأسلوب الزهاوى فى كل ما نظم من الشعر منذ عالج نظمه فى أوائل حياته، ومما لاشك فيه أن أفكار الديوان المفقود ليست غزوًا جديدًا فى تكوين آراء الشاعر مع الزمن كما قد يتوهم القارئ من قول الزهاوى أنه آخر ما نظم، وأنه يحتوى أفكارًا لم ينشرها قبل ذلك فى حياته.

إذ اتحقق من معارضة دلائل الشك والتردد ودلائل الإيمان واليقين، أن هذه الدلائل جميعًا قد وجدت فى مؤلفاته الباكرة كما وجدت فى مؤلفاته الأخيرة، على درجة واحدة من القوة والوضوح.

وأغلب الظن أن العالم الدينى المفكر «محمد فريد وجدى» قد أصاب الحقيقة حين قال فى مجلة الأزهر ما نقله الأديب «هلال ناجى» فى الصفحة الـ «٣٠٠» من كتابه.. فإنه لاحظ أن «الزهاوى»: «يكتب الشئ ثم ينقضه بقول آخر كما فعل فى كتابه الكائنات.. فقد جرى فيه على أسلوب الماديين.. ثم ختمه بكلمة تحت عنوان «ابتهال» حقّر فيها كل الآراء التى قررها فى الكتاب، وذكر أنه إنما جرى فيها على أسلوب الماديين لبيان مذهبهم.. أما هو فبرئ إلى «الله» منهم ومن آرائهم، ويرجو من يقرأ الكتاب ألا يعتد بما قرره فيه».

ثم عقب الأستاذ وجدى على هذا الأسلوب قائلاً: «إنه أسلوب فى الكتابة كل مايمكن أن يعتذر عنه أنه يلجأ إليه هربًا مما قرره».

وكل مازيده على تعقيب الأستاذ « وجدى » إن « الزهاوى » لم يبدر فى مفتتح كتابه إلى تحقير آراء المتهجمين على الحقائق الكبرى كحقائق عالم الغيب وما يسميه الباحثون بحقائق ماوراء المادة ؛ فإنه افتتح كتابه « الكائنات » الذى ألفه فى مقتبل صباه بهذين البيتين :

وَمَا الأَرْضُ بَيْنَ الكَائِنَاتِ الَّتِى تُرَى	بِعَيْنَيْكَ إلاَّ ذَرَّةٌ صَغُرَتْ حَجْمَا
وَأَنْتَ عَلَى الأَرْضِ لحَقِيرةِ ذَرَّةٌ	تُحاوِلُ جَهْلاً أَنْ تُحِيطَ بِهَا عِلْمَا

وهذا غاية مايقوله المفكر التواضع أمام عظمة الكون لكبح الغلاة من الباحثين فى حقائقه عن الشطط الأهوج والغرور لكاذب بقدرة العقل البشرى على إدراك هذه الأسرار المطبقة حول حقائق الوجود .

والذى نلاحظه فى مواقف « الزهاوى » العقلية بين الشك واليقين سهولة شكوكه وسهولة ردوده عليها فى وقت واحد :

فكل شكوك « الزهاوى » بلا استثناء مما يقبل الرد والاستخفاف من النظرة الأولى ، لأنها مبنية على تصور العامة الجهلاء للخرافات والأساطير التى يلصقونها بالدين وهو برئ منها بعيد عنها ، وليس من هذه الشكوك شك واحد يقوم على فهم الدين كما ينبغى أن يفهمه المؤمنون به على صحته ، وقد كان خطأ « الزهاوى » الأكبر أنه يتلقى حجة العقائد من الأوهام الشائعة بين المقلدين دون الثقات المجتهدين .. وإنما تقوم قضية الدين على الضمير الإنسانى الذى يناط به التمييز بين كل دعوة تشيع فى لعالم ، ولم تقم حجة الدين قط على مايفهمه المقلدون أو يفهمه المغرورون من الأدعياء .. وإنما تقوم حجته على البصيرة الصادقة والوحى الأمين .

لاجرم كان تقريره لقواعد الإيمان بعد ذلك سهلاً غنيًا عن جهد التردد والبحث فى أمثال تلك الشكوك ، ومن حق من يبتلى بأمثال تلك الشكوك أن يثوب بقينه إلى يقين « الزهاوى » الذى عبر عنه بهذه الأبيات فى موقف الحساب :

قَالَ ما دِينُكَ الذى كُنْتَ فى الد	نيا عليه ، وأَنْتَ شَيْخٌ كَبِيرْ
قُلْتُ : كان الإِسْلاَمُ دينى وهـ	ـو دِينٌ بالاحترام جديرْ
قَالَ : مَنْ ذَا الَّذِى عَبَدْتُ فَقُلْتُ	« الله » رَبِّى وهو السَّمِيعُ البَصِيرُ

وقبل ذلك يقول من كلمة منثورة : لم آت فى حياتى أمرًا إدًّا ولا ارتكبت منكرًا .. أنظم الشعر وأودعه عصارة شعورى وتفكيرى ؛ وأجعله منبرًا أدافع منه عما يتراءى لى أنه الحق ؛ غير حاسب لمخالفة الناس إياى حسابًا ... وهذا ما كان يثيرهم علىَّ ويجعلهم يعملون على معاكستى

حتى هموا مرة أن يقتلونى مع أنى معتقد بالوحى مؤمن بالأنبياء وبالمرسلين وملائكة « الله » وكتبه ، وقت بشعائر الدين كلها فصمت وصليت وزكيت وجاهدت وحججت إلى بيت « الله » وزرت قبر رسوله الكريم ﷺ »

وهو الذى ردد هذه الشهادة فى مواطن كثيرة من شعره ، كما قال فى هذا المعنى غير مرة :

أَنَـا ما كَفَرْتُ كُلَّ عُمْـر	ى بالكتـاب المُنْـزَلِ
أَنَـا لَـمْ أَزَلْ أَشْدُو بِنَعْـ	ـتِ للنبـى المُرسَلِ

وإنه بمثل هذا اليقين لخليق أن يكذب كل هاتيك الشكوك التى تثيرها أوهام الجهلاء وخرافات أصحاب الخرافات من المقلدين .

وجملة القول فى الديوان المفقود وفى الدواوين المنشورة أنها طور واحد من الفكر لم يتغير فى مدى خمسين سنة ، ويوشك أن ينقل كل بيت فى ديوان من هذه الدواوين المتابعة إلى ديوان آخر صدر قبله أو بعده ، بغير اختلاف فى المعنى أو فى النسق أو فى الأسلوب ، إلا ماتقتضيه المرانة الطويلة من تيسير النظم فى نهاية الشوط بعد تعسر فيه عند الابتداء .

والسرعة إلى التفكير ، مع السرعة إلى العدول عن الفكرة فى وقت واحد ، هما آفة العجلة فى مواجهة « الزهاوى » لمسائل العلم والأدب أو مسائل الاجتماع والأخلاق ، فليس أسرع منه إلى اختطاف الرأى الشائع أو اختطاف الرد عليه ، ونحسب أن بنية الرجل « مسئولة » كما يقولون عن هذا الولع بالسرعة والقلق من الاستقرار .. فإن مصابه بالداء الذى أقعده عن الحركة قد بدأ معه اضطرابًا مقلقًا قبل أن يثقل على أعصابه ويقعده عن حركته ، وما أكثر ما نظم فى « الصراط » وصعوبة العبور عليه من شعره الأول ومن شعره الأخير .

ولا ريب عندنا ، ولا عند قراء « الزهاوى » شعراً ونثراً ، فى قدرته الفكرية ولا فى ملكته الرياضية ولكنك تراجعه من بواكيره إلى خواتيمه فيبدو عيبه أنه يثب إلى الآراء وثبة بعد وثبة ولا يتطور معها على أمد مديد يتصل فيه الانتقال من مكان إلى مكان ، فهو فى وثباته المتلاحقة على مكان واحد يصعد منه وينزل إليه ، ويثب عليه صاعدًا ونازلاً ومترددًا ومستقرًا ، وهكذا كان فى آخر ديوان كما كان فى أول ديوان وللقارئ بعده أن يقبه حيث شاء ، بما هو أهل للبقاء .

٣

جاءنى الخطاب الآتى من أحد القرّاء بـ « تونس » .. قال كاتبه الأديب بعد ديباجة التعارف :

« أما الآن فبقيامكم ضد الثرثارين ، وتقريضكم لبناء ما كانوا يحسبونه آثارًا أدبية ، وإماطتكم اللثام عن كل من كنا نعدهم من الشعراء الفحول والكتّاب المبرزين .. قد أسفرت النتيجة عن تجدد حقيق فى اللغة والأدب ، إذ أدركوا ماترمون إليه فى انتقاداتكم فهبوا يبارون فيه جاهدين قرائحهم وصارفين مهجهم نحو « الحياة » .. نحو « الجمال » .. نحو « المثل العليا » .. تلكم الكلمات الحية التى ماوجهت طرف نحو أى سطر من فصولكم ومطالعاتكم ومراجعاتكم ونحو أية صفحة مما تكتبون إلا عثرت عليها .. ونصرف مهجتكم إلى هذه المطالب ونقدكم الصحيح الخالص من الأغراض ، وسعيكم وراء الحقيقة – رضى القوم أم غضبوا – أتيت أعرض عليكم كلمة فى رفيق صباى ومرى روحى راجيًا منكم التفضل بإبداء رأيكم فيه ولكم الشكر الجزيل سلفًا .. لأن كل هاتيكم الخلال جعلتنى كما جعلت غيرى يعتبرون قولكم الفصل فيمن تكتبون له أو عليه .

ذلكم الرفيق ياسيدى هو فخر العراق كما تقولون « جميل صدقى الزهاوى » ، فقد عرفته منذ دخلت المدرسة وولعت بديوانه حتى أنى كدت أن أحفظه نثرًا ونظمًا ، فمن نزعته فى الشعر إلى قوله فى القبر :

وَلَسْتُ بِمَسْئُولٍ إِذَا مَا سَكَنْتُه   أَكُنْتُ عَبَدْتُ « الله » قَبْلاً أم اللاتا

إلى قوله فى مهاجميه :

يَا قَوم مَهْلاً مُسْلِمٌ أَنَا مِثْلُكم   « الله » ثُمَّ « الله » لى تكفيرى

وعندما أسأم استمرار قراءاتى فيه ، أعمد بعد تحضير واجباتى المدرسية إلى مطالعة أحد الدواوين فأرى نفسى كأنى انتقلت من روضة حافلة بأزهار من كل صنف زاهية بالماء الزلال الجارى « والهزار » على أشجارها يشدو بنغماته العذبة الشجية إلى أرض قاحلة لاماء فيها ولاشجر ولاهزار .. فلا ألبث أن أعود إلى ديوانى الأول ، وشغفى به يزداد كلما رأيته سابقًا وغيره لاحقًا .. وهكذا ..

وماأقوله لكم فى ديوانه ، أقوله لكم فى مباحثه التى تنشر فى « الهلال » ، حتى أنى إذا لم أجد فيه فصلاً من فصول « الزهاوى » انقبضت نفسى لذلكم كثيراً .. وإذا رأيت فيه مبحثًا له قدّمته على سائر الموضوعات ، فقرأته وأعدته المرار العديدة حتى تعلق بذهنى جمل منه .. ومن الجمل أفكار ، ومن الأفكار مناقشة ، تنتهى بى إلى قضاء جزء كبير من أوقاتى معه . وحادى القول إن السيد « جميل » لهو أحق بالنقد من سواه ، ومن يظهر آثاره الأدبية والفلسفية . وهذا لا يتصدى للبحث فيه إلا أمثالكم الذين يقدرون الأدب حق قدره ، إذ من العار أن نبقى كما قال فيلسوف العراق لا نعرف قيمة للأديب فى قطرنا إلا بعد مماته :

مـن بعـد مـا فى قبره   أوصالـــه تتبعثر

مـاذا مـن التكريم يـر   جـو مـيت لا يشعـر

هذا وإنى أعتذر إلى سيدى الأستاذ من تجرؤى على مكاتبته ؛ إذ لست ممن يراسلون أمثاله .. ولولا إعجابى بـ « جميل صدقى الزهاوى » وحبى لناقد خبير ينشر للقراء آراءه ، ويبين لهم فجها من ناضجها ، ماتسرعت فى المراسلة أرجى مايقال فى فخر العراق وعنه » .

جاءنى هذا الخطاب من شهر مضى ، وفيه غير مانشرت هنا كلام مسهب فى مثل هذا المعنى ولواحقه .. فتوسمت من لهجته وخلوص إعجابه أدبًا جمًّا ونفسًا مستشرفة إلى الحقيقة ، وهممت أن أجيبه إلى رغبته ولكننى ترددت لأنى أعلم أننى أستطيع أن أنبسط فى شرح كل رأى من آراءه فى الأدب والشعر ، دون أن أعرض للأستاذ « الزهاوى » نقدًا أو تمجيدًا أو حلافًا أو وفاقًا ، ولأننى أوقر هذا الباحث الفاضل وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته فى جهاده وغربته بين قومه ، فلا أحب أن أقول فيه – لغير ضرورة من ضرورات البحث – مقالاً لا يوائم ذلك التوقير ولايناسب ماله عندى من القدر والرعاية .. ثم عنّ لى أن فى الكلام عليه مجالاً لكلمة أخرى تقال عن التفريق بين الملكة العلمية والملكة الشعرية وبين بديهة الفيلسوف وبديهة العالم ، لا ضير منها على أحد عامة ولا على الأستاذ « الزهاوى » ومن يعجبون به خاصة .. إذ هو ممن يقال فيهم قول حق لا يغضب الطبيعة القوية والنفس المروضة والضمير الواثق من قصده وعمله فكتبت هذا الفصل الموجز آملاً أن أجئ فيه بحقيقة تسوغ المساس برجل لا أحب أن أمسه بغير مايرضيه .

أول كتاب قرأت لـ « زهاوى » كان كتاب « الكائنات » أو « رسالة الكائنات » ، لأنه عجالة مختصرة من القطع الصغير .. وكان ذلك قبل عدة سنوات ، وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة ومباحث الدين والفلسفة .. فراقنى من الرسالة سداد

النظر وقرب المأخذ ووضوح التفكير والجرأة على العقائد الموروثة مع ماف ختام الرسالة من اعتذار لايخفى ماوراءه ولايغير رأى القارئ فيما تقدمه وكنت كلما عودتها نبيت فيها منطقا صحيحا يذكر القارئ بإشارات « ابن سينا » ونجاته ويزيد عليهما بالجلاء والترتيب .. ثم قرأت لـ « زهاوى » شعرًا ونثرا وآراء فى العلم والاجتماع تدل على اطلاع واستقلال ونزعة إلى الثقة والابتكار ، وكان آخر ماقرأت له رسالة « المجمل مما أرى » ثم شعر ينشره فى الصحف المصرية من حين إلى حين .

هل « الزهاوى » شاعر ، أو عالم ، أو فيلسوف ؟.. إن آثاره فى الشعر والنثر تدعوك إلى هذا السؤال ، فمباحثه مما يتناوله الفيلسوف والعالم ، ونظمه يسلكه بين طلاب المقاصد الشعرية .. وقد يختلف جواب الناس على السؤال الذى سألناه فيعده بعضهم من الفلاسفة وبعضهم من الشعراء ، ويميل به بعضهم إلى فريق العلماء .. أما أنا فرأيي فيه أنه صاحب ملكة علمية تطرق الفلسفة وتنظم الشعر بأداة العلم ووسائل العلماء .

الشاعر صاحب خيال وعاطفة ، والفيلسوف صاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول ، والعالم صاحب منطق وتحليل وحساب مع هذه الأشياء التى يحسها ويدركها أو يمكن أن تحس وتدرك بالعيان ومايشبه العيان ، فإذا قرأت مباحث « الزهاوى » برزت لك ملكته المنطقية لاحجاب عنها .. ولمست فى آرائه مواطن التحليل والتعليل ، ولكنك تفتقد فيها الخيال كثيرًا والعاطفة أحيانًا ، وتلتفت إلى البديهة فإذا هى محدودة فى أعماقها وأعاليها بسدود من الحس والمنطق لاتخلى لها مطالع الأفق ولامسارب الأغوار ، فهو يريد أن يعيش أبدًا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار ، ولا تطبق فيها الأجفان ولاتتناجى فيها الأحلام .. وليست دنيا الحقيقة كلها نهارًا أو شمسًا ، ولكنها كذلك ليل وغياهب لاتجدى فيها الكهرباء ! وقد خلق الخيال والبداهة للإنسان قبل أن يخلق العقل ، ثم جاء العقل ليتممها ويأخذ منها لا ليلغيها ويصم دونهما أذنيه .. فأما « الزهاوى » فهو يحاول أن يلغى الخيال والبداهة ؛ ويظن أن الإنسان لايتصل بالكون إلا بعقله ولا يهتدى إلى الطريق المفطور إلا بعقله ؛ وليس هذا بصحيح فى حكم العقل نفسه إذا أنصف العقل ووفى لمنشأه الأول وقصارى مطمحه الأخير .

إن كل منطق لايكون صحيحًا إلا إذا دخل فى حسابه أمران محيطان بنا متغلغلان فينا لامهرب منهما ولاروغان .. نعنى بهذين الأمرين « المجهول » أولاً و« العاطفة » ثانيًا ، فهما راصدان لكل قضية منطقية يهدمانها هدمًا مالم يكن لهما فى زواياها مكان مقدور ، فالعالم لا شأن له بالمجهول وليس له شأن كبير بالعاطفة كما يحسها الشعراء ، وهو ، إذا أراد ، حصر نفسه

فى معمله وخرج منه بنتيجة عملية لاغبار عليها من ناحية النقد والاستقراء . ولكن الفيلسوف إذا خرج إلى الدنيا لامجهول فيها ولاعاطفة توحى إليها إنما يخرج إلى دنيا غير دنيانا هذه .. وإنما يأتى لنا بفلسفة خليقة بعالم آخر غير عالمنا الذى يحيط به مجهوله وتعمل فيه عواطفه . وقد يصيب بمنطقه هذا فى حقائق الأرقام والإحصاءات ولكنه لايصيب به فى معانى الشعور وأسرار الحياة ، إذ كيف يحسب حسابًا لهذه المعانى والأسرار وهو لايحسها ولا ينقاد لدوافعها ؟.. وكيف يصيب فى المباحث النفسية وهو لا يحسب حسابًا لتلك المعانى والأسرار ؟

من منا يكون محبًا معقولاً مطابقًا للمنطق إذا هو نظر إلى حبيبه بالعين التى يراه بها جميع الناس ؟ إن نظرك إليه قد يكون معقولاً مطابقًا للمنطق إذا نظرت إليه بتلك العين التى يراه بها من لا يحبونه ولا يؤثرونه على سواه ؛ ولكنك أنت نفسك – أنت الناظر – لاتكون « محبا منطقيا » موافقا للمعقول والمعلوم من شئون المحبين حين تساوى أنت وسائر الناس فى الإعجاب بحبيبتك ، لأن المحب المعقول هو الذى يرى حبيبته بعين لا يراها بها الآخرون .. وكذلك الحياة قد تكون أنت منطقيا إذا عرفتها بالعقل وحده كما يعرفها غير الأحياء لو كان غير الأحياء يعرفون الحياة .. ولكنك لاتكون « حيا منطقيا » إذ أنت لم تعرفها كما يعرفها كل حى مخدوع بها غارق فى غمرة عواطفها وأشجانها .. فكن لنا « حيا منطقيا » أو أنت إذن إنسان لايعنينا رأيه فى الحياة لأنه ليس منها بمكان قريب أو على اتصال وثيق .

و« الزهاوى » تخونه الحقيقة حيث يسعى إليها على جناح من العقل ، لا يعضده جناح من الشعور .. فلم أغتبط بتعرض الشعور لتفكيره مثلما اغتبطت به وهو يحاول – بالمنطق – أن ينفى الرجعة إلى هذه الأرض بعد الممات أو إلى عالم آخر ينتقل إليه الإنسان ، فهو يقول فى « المجمل مما أرى » إن « مظاهر الحياة من مظاهر المادة التى ليست فى أصلها إلا قوة . وإن هذا الفضاء الذى صرحت بأنه لايتناهى ، يحتوى على عدد غير متناه من العوالم النجمية . وإن فى كثير من هذه العوالم نظامًا مثل نظامنا الشمسى ، وإن فى ذلك النظام أرضًا مثل أرضنا ، وفى بعضها أرض تشبه أرضنا إلى زمن محدود ثم تختلف عنها ؛ وإن فى كل أرض مشابهة لأرضنا إنسانا مثلى وآخر مثلك وآخرين مثل غيرنا من الناس ، قد ولدوا من آبائهم كما فى أرضنا ، وقد جرى لآبائهم فيها ماجرى لهم فى هذه تمامًا ..

« وبعض هذه الأرضين اليوم مثل أرضنا فى حالتها الحاضرة ، وبعضها أخذت تهدم ، وبعضها فى بداءة تألفها .. فإذا مات الإنسان فى أرضنا ؛ فهو يولد فى غيرها من نفس آبائه الذين ولد فى أرضه هذه منهم ، وإذ إن هذه الأرضين لا تتناهى فكل فرد من الناس غير

متناهي العدد .. غير أنه في كل أرض واحد يجهل أن له أمثالاً في هذا الكون اللامتناهي ، وإن الذي يشقى في هذه قد يسعد في التي تشبهها إلى زمن محدود ثم تخالفها فإن عدد هذه المخالفات أيضًا غير متناه ، والذي يسعد في هذه قد يشقى في تلك فالطبيعة عادلة قد قسمت السعادة والشقاء على السواء .. فإن زيدًا إذا كان هنا شقيا فهو في أخرى سعيد ، وإذا كان سعيدًا فهو في تلك شقي .. وأرضنا هذه بعد أن نصير إلى الأثير تتولد ثانية بعد ربوات الملايين من السنين ، فيجرى عليها تطوراتها طبق ماجرت في دورها هذا ، ويتولد آباؤنا كما تولدوا ، ونتولد منهم كما تولدنا ، ونموت كما في هذه المرة وقد تكررنا من الأزل وسوف نتكرر إلى الأبد ..

« ورب قائل : ماالفائدة من هذا التكرار وهو لايتذكر مامر به في أدواره الأولى؟ فأجيب : إن فائدة التذكر هي العلم ، فإذا حصل إلينا العلم بطريقة أخرى فهو مثل العلم بالذكر وكفى به نفعًا إنه يطامن الإنسان أن موته مؤقت ليس أبديًا . وهذه النظرية مبنية على أسس ثلاثة . الأول أن العالم بما فيه من الأجرام غير متناه . والثاني أن لا شيء يذهب إلى العدم بل ينحل تركيبه وينحل إلى الأثير بعد تطورات متعددة .. وهذا الأثير يتركب من جديد فيكوّن مادة بعد تطورات متعددة ، ثم ينحل ثم يتركب إلى مالا يتناهى . والثالث أن جواهر كل جرم من الأجرام متناهية العدد مهما كثر هذا العدد ، وأقدارها كذلك متناهية .. ولا يمكن أن يوجد جرم واحد غير متناهي السعة . والأرض هذه تتألف في أزمنة غير متناهية على أشكال لأن جواهرها متناهية ، وشكلها الحاضر أحد تلك الأشكال غير المتناهية التي تتألف عليها وتدور من أحدها إلى الآخر .. فهو كغيره من الأشكال يتكرر إلى مالا نهاية له والإنسان جزء متمم لشكلها الحاضر .. فهو أيضًا يعود بشكله وعقله وإلا لم يكن الدور تامًا ، والعالم أجمع تابع لهذا الناموس الدوري الأعظم » .

هذه هي نظرية الدور كما أجملها الأستاذ « الزهاوي » في رسالته « المجمل مما أرى » .. فالمنطق هنا يتكلم ، ولكن حب الحياة هو الذي يحركه إلى الكلام !.. على أنه يعد منطق لم يمتزج بالحياة في الصميم لأنه يتعزى بالعلم ، والحياة لايعزيها أن تعلم بأنها خالدة وإنما يعزيها أن تشعر بالخلود ، وهو بعد هذا وذاك منطق خاطئ لأنه يستلزم الدور ولا شيء يدعو إلى استلزامه .. فما دامت الجواهر لا تتناهى ، والحركات لا تتناهى ، والفضاء لا يتناهى فالنتيجة أن تكوين الأجرام بأشكالها لا يتناهى .. ولا حاجة إلى تكرارها وعودتها هي بعينها مرة بعد مرة إلى غير نهاية ، ويجب الآن أن نضرب صفحًا عن لا نهاية الزمان التي تخدعنا باحتمال هذا التكرار فيما يلي أو فيما سبق قبل الآن ، يجب أن نضرب صفحًا عن لانهاية الزمان لأن لا نهاية الفضاء موجودة في هذه اللحظة ، فأي شيء فيها يستلزم أن الأرض مكررة في مكان غير مكانها

الذي هي فيه ؟.. لاشيء ! . وإذا لم يكن إنسانًا مكررًا على هذه الأرض بعينها ، فلماذا نفرض أن كل إنسان مكرر في أرض تشبهها تمام الشبه في هذا الفضاء السحيق ؟

• • •

ثم إلى أين ننتهي من كل ذلك ؟.. ننتهي إلى أن الأستاذ « الزهاوي » صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع ، وأنه يصيب في تفكيره ماطرق من المسائل التي يجتزأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا نفتقر إلى البديهة والشعور ، فمن ينشده فلينشد عالمًا ينظم أو يجنح إلى الفلسفة فهو قمين بإصغاء إليه وإقبال عليه في هذا المجال وإن خير مكان له هو بين رجال العلوم ورادة القضايا المنطقية .. فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء مثل ذلك المكان .

٤

قرأت فى زميلتنا « السياسة الأسبوعية » ردًا للأستاذ « الزهاوى » على مقال كتبته عنه مجيبا به الأديب التونسى الذى سألنى إبداء رأيى فيه ، وكان فحوى ذلك المقال أنّ نصيب الأستاذ « الزهاوى » من الملكة العلمية أكبر وأصلح من نصيبه من الملكة الفلسفية والملكة الشعرية .. ولم يرض الأستاذ عن هذا الرأى فكتب رده فى السياسة الأسبوعية يناقشه ويناقض الأسباب التى بنيته عليها .. فهو يجب أن يقول إنه فيلسوف وإنه شاعر لايقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكة العلمية . وليس يضيرنى أنا أن يزيد عدد الفلاسفة والشعراء فى الأرض واحدًا أو أكثر ، فإننى لم أتكفل بهم ولا تحسب علىّ أخطاؤهم أو يخلص منى صوابهم . ولست ممن يحبون الجدل فى غير حقيقة تجلى أو رأى يستوضح . فإن الجدل الذى يطول فيه الأخذ والرد لغير شئ من هذا هو لغو كلام وفضول بطالة .. فإذا رجعت اليوم إلى الموضوع فليست رجعتى إليه لحرص على تقليل حظ « الزهاوى » من الفلسفة والشعر ، ولا المطاولة فى الجدل . وإنما هى لاستخراج الحقيقة التى أردتها من رد الأستاذ نفسه ، وبيان المعنى الذى ذهبت إليه من طريقة الأستاذ فى ملاحظة الأشياء وفهم أعمال الناس .

ليس للمجهول ولا للعاطفة حساب كبير فى إدراك الأستاذ « الزهاوى » لأعمال الإنسان ، ولهذا فإنه يخطئ فى تصورها والحكم عليها ومتابعتها إلى أسبابها وغاياتها ، وفى رده أدلة كثيرة على حاجة الفيلسوف – فضلاً عن الشاعر – إلى حسبان ذلك الحساب . وفهم الإنسان ومكانه فى هذا الكون كما هو إنسان فى حقيقته لا كما يتصوره الذين يستهدون بالعقل وحده غير معتمدين على البديهة وعلى الشعور .. وإليك بعض هذه الأدلة مأخوذة من ذلك المقال :

(١) يقول الأستاذ « الزهاوى » : « من طار بجناح العقل أخيرا لندبرغ وصل إلى باريس من نيويورك فى ٣٤ ساعة فليخبرنى الأستاذ إلى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة ؟ » .

وأنا مخبره إلى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة : أخبره أنهم وصلوا من نيويورك إلى باريس فى ٣٤ ساعة ولعلهم يصلون غدًا فى أقل من هذه الساعات ، لأن لندبرغ لم يطر على المحيط الشاسع المخيف بجناح العقل بل بجناح العاطفة وحدها طار ، وعلى جناح العاطفة وحدها تلقته الجماهير التى هتفت له هتاف الحمد والإعجاب .

ولم يسبق لندبرغ طائر فى الفضاء ، ولن يلحق به طائر مثله ، إلا كانت العاطفة هى محركه وهى جناحه وهى جزاؤه إذا نجح وعزاؤه إذا خاب ، وليس الطيران كله إلاّ حلمًا من أحلام العواطف أجج الرغبة وألهب الخيال فجاء العقل كالخادم الأجير يحقق ماتعلقت به الأخيلة واتجهت إليه الرغبات .

وأى عقل يزين للندبرغ أن يخاطر بحياته بعد كارثة المفقودين فى هذا المضمار القاتل ؟ وأى عقل يزين له أن يرفض المال الذى انثال عليه من شركات الصور وطلاب المحاضرات والمساجلات ؟ ليس العقل هو الذى أعطانا الطيارين وآلات الطيران ، وإنما هى دوافع الإحساس وبواعث الخيال ، وهى « العواطف » التى تحمل الإنسان على كل جناح إذا قعد به التفكير وحده فى قرارة العجز والجمود .

ونتجاوز نحن هذا الحد إلى مابعده ، فنقول إن الغربيين فى هذا الزمان يسبقوننا فى ميدان الكشف والاختراع لأنهم يطلبون من الحياة فوق مانطلب .. لا لأنهم يحسنون مالا نحسنه من الفهم والتفكير ، فكل مصنوع يصنعه الغربيون نستطيع نحن الشرقيين أن نفهمه ونصنع على مثاله ولكننا لا نستطيع البداية لأنها وليدة البواعث وهى قاعدة عندنا ناهضة عندهم .. فالتفاوت بيننا وبينهم تفاوت فى البواعث ، أى فى الخلق والإحساس وليس تفوتًا فى العقل والتفكير ، وطريقتنا نحن فى الإحساس بالأمور هى التى ينبغى أن يتناولها الإصلاح وليست طريقتنا فى فهم مايحتاج إلى الفهم والتحصيل .

• • •

(٢) ويقول الأستاذ « الزهاوى » : « أنا مادى لا أرى لغير الحواس أبوابًا لمعرفة مستثنيًا من ذلك معرفة ذات ، ولا آذن للخيال أو العاطفة أن يلجأ باب الشعر إلا إذا اطمأننت إلى أنهما لا يفسدان وجه الحقيقة التى مازلت أتغنى بها فى شعرى » .

أما الذى أقوله أنا فهو أن الحياة هى التى خلقت الحواس ، وهى صقلتها وهذبتها وألهمتها أن تعى مايتصل بها ، وإن الحياة لم تعلن إفلاسها بعد خلق الحواس ولاقبله فهى شئ أكبر من الحواس وهى على تصال وثيق لاانفصام له بهذا الوجود قبل أن تفتح بينها وبينه نوافذ الآناف والأذواق والأسماع والأبصار .. وإن الحواس تتفاضل بقدر مافيها من الشعور والاستمداد من باطن النفس لا من ظواهر الأشياء .. فالدنيا لاتتغير . ولكن نظر الشاب إليها غير نظر الشيخ وإحساسه بها على الجملة غير إحساسه .. لماذا ؟ لأن الحواس تستمد شعورها من القوة الحية التى خلقتها ونوعتها وهى قادرة على تغيير الخلق والتنويع . وليس بالمنطق الصحيح ذلك المنطق

الذى يجهل أن الوظيفة تسبق العضو : وأن القوة الحية تنشئ الحاسة وتزيدها وتهذبها .. فهذه القوة الحية تدرك ما هي فيه وإن اختلف أسلوب إدراكها عن أسلوب الحواس فى الإدراك ، بل لولا هذه القوة الحية الخالقة لما عملت حاسة فى الجسم شيئًا ، فلتكن للحواس إذن معرفتها المحدودة التى نعهدها فى العلوم والصناعات ، ولكن لايعزب عنا أبدًا أن وراء هذه الحواس ينبوعًا لا ينفد من وسائل الادراك ، وإن كان إدراكاً لاحد له من الصيغ والتعريفات

• • •

(٣) ويقول الأستاذ « الزهاوى » : « لو جعلنا الخيال والبداهة فى المنزلة التى يضعها فيها الأستاذ الفيلسوف لوجب أن يكون الإنسان الابتدائى ، بل الحيوان ، أكبر فلاسفة الأرض .. لولا ماينقصها من البصيرة والحساب . أما الذى أعرفه أنا فى الفيلسوف فهو تحريه للحقائق المستورة عن الأكثرين بنظره النافذ ليكشف أسرار الطبيعة ويستفيد من نواميسها ويفيد غيره ، وما الفيلسوف ذاك الذى يرضى عواطفه وإلا كانت الحيوانات كلها فلاسفة كما سبق . وكم جرح « دارون » الشهير عواطف الناس بنظريته فى نشوء الإنسان من الحيوان ، وكم خالفه أهلها وكم مقتوه وعادوه وسبوه لأنه خالف عواطفهم ، ولكن فى النهاية كان هو الفيلسوف ومعارضوه بقوا ذوى عواطف لا غير » .

هذا الذى يقوله الأستاذ « الزهاوى » ..! ويدهشنى منه أنه يتكلم عن العاطفة كما يتكلم عنها المغنون و« أولاد البلد » حين يتشاكون جرح العواطف ويتناشدون رعاية الإحساس ! فهم إذا قالوا : « فلان صاحب عواطف » قصدوا بهذه الصفة أنه لايجرح عواطف الآخرين وأنه « حسيس » بالمعنى الذى يفهمونه ! وليس هذا مانريد ، لأن العواطف قد تجرح العواطف كما تبقى عليها .. فالحب عاطفة ولكنه يجرح أحيانًا كثيرة ، والغضب والإعجاب والحماسة والغيرة عواطف كلها ولكنها قد تجرح من النفوس أكثر مما تواسيه . وليس تقسيمنا الناس إلى أصحاب عقول وأصحاب عواطف تقسيمًا لهم إلى من يجرحون نفوس الآخرين ومن لا يجرحونها ، فإن أصحاب العقول ربما عرفوا كيف يسوسون الناس فلا يغضبونهم فكانوا بذلك أقمن ألا « يجرحوا العواطف » بلغة المغنين و« أولاد البلد » المتظرفين .

وأدعى من هذا إلى الدهشة أن يقول الأستاذ أن نصيب الحيوان والإنسان الأول من الخيال والبديهة أكبر من نصيب الإنسان الأخير ، فالحقيقة أن الحيوان لا خيال له ولا بديهة .. وأن الإنسان الأول أقل نصيبًا من الإنسان الأخير فى هاتين الملكتين . وليس نصيبنا نحن من

الفهم مانعلم أننا نفهمه ، بل نحن نفهم أشياء شتى بالبديهة وبالخيال ولانعلم بها وهى تعمل عملها فى الإحساس والتفكير .

ولقد ذكر الأستاذ اسم « دارون » صاحب « النشوء والارتقاء » .. فهل له أن يذكر أيضًا أن الخيال كان أصدق من العقل ألوفًا من السنين حين كان العقل يجزم بقيام كل نوع على انفراده ، وكان الخيال يقص علينا قصصه ويجزم لنا بتقارب الأنواع وتلاحم الإنسان والحيوان ؟.. نعم إن الخيال لم يفصل لنا « النظرية » العلمية لأن له شأنًا غير هذا الشأن . ولكن ألم يعم العقل عن تلك النظرية كل العمى يوم أن كان الخيال يرسمها محرفة بعض التحريف من وراء الظلال والرموز ؟ وهل للأستاذ أن يذكر أيضًا أن « دارون » ماكان لينفذ بفطنته إلى تقارب الأنواع لولا روح العطف الذى كان يحس به خوالج الحيوان وتعبيراتها على الوجوه والأعضاء ؟ أيمكن أن يؤلف كتاب التعبيرات الحيوانية ودلالاتها رجل لا يخالطه العطف العميق ، ولايسرى بينه وبين الأحياء سيال من الإحساس الدقيق ؟.. وماهو نصيب العقل بعد كل هذا فى مذهب « النشوء والارتقاء » ؟ ما كان له من نصيب إلا أن يصحح أخطاءه هو لا أخطاء الخيال ولا أخطاء الإحساس .. فالحقائق التى استند إليها النشوئيون قائمة منذ الأبد ، والعقل هو الذى كان يداريها أو يضلل فيها الخيال والإحساس .

ويسألنى الأستاذ : « لا أدرى أى مناسبة للعاطفة بالمنطق » وهذا الذى أقوله أنا .. وأقول معه إن مناسبة العاطفة أنها هى شئ موجود لايصح للمنطق إلا إذا حسب له حسابه ، فأى منطق يحق له أن يكون هكذا ، أو لا ينبغى أن يكون كذلك إن لم يكن يحس العاطفة الإنسانية ويستكنه مضامينها ويقيم لها وزنها ؟.. إن الأستاذ ينبئنا أن العقل أسعد الإنسان بالعلم ، فما هى السعادة ..؟ إن لم تكن عاطفة فهى لا شئ ، وإن لم يكن العلم علم إنسان « عاطف » فلا حاجة به للإنسان .

نود أن يتأكد هذا فى العقول لأننا على مرحلة يجهل فيها الشرقيون ما ينقصهم ، فيجب أن يعلموا أن الذى ينقصهم هو « الإحساس القويم » وأن سبيل خلاصهم هو سبيل العاطفة الحية والشعور الصادق الجميل . أما نظرية الدور والتسلسل فهى لاتعنينا فى هذا الصدد ، ولكنى أرجو الأستاذ « الزهاوى » أن يسأل نفسه هذه الأسئلة وهى :

(١) ألا يمكن أن نقول إن عدد « الأشكال » لانهاية له بنفس المعنى الذى نريده حين نقول إن عدد الأجرام والجواهر لا نهاية له فى هذا الفضاء الذى لايتناهى ؟

(٢) لماذا نشترط البعد فى الزمان والمكان لظهور الشخصين المتماثلين كل التماثل ! لماذا يتحتم ن يكون أحدهما فى هذا الزمن والآخر على مسافة ملايين السنين أو ملايين الأميال ؟ إن المقتضى للتماثل هو أن الأشكال تتناهى والجواهر لاتتناهى فى قول أصحاب الدور والتسلسل .. حسن ، فلا داعى إذن لاشتراط التباعد بين الشخصين المتماثلين فى الزمان والمكان ، بل يجب أن نرى أناساً كثيرين يتماثلون على سطح هذه الأرض فى المدينة الواحدة وفى الوقت الواحد ، وإلا كان رأى أصحاب الدور والتسلسل باطلاً يستند إلى دليل مشكوك فيه .. أم تراهم يشترطون التباعد ليقولوا لنا إذا أنكرنا عليهم دعواهم : اذهبوا فطوفوا الفضاء الذى لاحد له ، وجرسوا فى جوانب الزمان الذى لابداية ولا نهاية فإن لم تجدوا أناساً يتماثلون وأجراماً تتماثل فنحن إذن المخطئون وأنتم المصيبون ، وإن وجدتم فعودوا إلينا بالنبأ اليقين ؟!

إن اللحظة الحاضرة من الزمان تشمل أشياء مختلفة مضت عليها أزمنة مختلفة وأوضاع مختلفة ، فهى بهذه المثابة ككل لحظة من الماضى أو المستقبل ، وإن هذا الموضع من المكان هو ككل موضع غيره فى اقتضاء التماثل إن كان له اقتضاء .. فإذا وجب أن نرى شخصين أو أكثر من شخصين يتماثلان كل التماثل على كوكبين بعيدين فى زمنين بعيدين ، فيجب – لهذا السبب عينه – ألا يمتنع ظهور مثل هذين الشخصين فى هذا المكان فى الزمن الحاضر .. وإلا فما هو المانع إن كان أصحاب الدور والتسلسل يتنعون فيما يزعمون ؟

نرجو الأستاذ أن يسأل نفسه هذه الأسئلة ، ونحن نرجح أنه لا يجيب عنها أجوبة يسهل التوفيق بينها وبين القول بالدور والتسلسل ، وليعلم حفظه « الله » أننى لا أجد عزاء لنفسى فى تكرار « العقاد » إلى غير نهاية بين أجواز الفضاء وأبديات الزمان .. فإذا ثبت له ثبوت اليقين أن فى هذه اللحظة عقادين لاعداد لهم ، يكتبون مقالاتهم فى بلاعاتهم الأسبوعية التى تصدر فى قواهرهم وأفريقاتهم للرد على الزهاويين الذين لا أول لهم يعرف ولا آخر لهم يوصف ، فرجائى إليه أن يكتم عنى هذه الحقيقة فما فى علمها إلا الشقاء بتضاعف الأشغال وتراكم الأحمال ، وماق ذلك ترفيه ولاعزاء .. !



محمد فريد وجدى

محمد فريد وجدى

هو فريد عصره غير مدافع !..

وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها حتى رثّت وبليت وأصبحت حروفاً بغير معنى..

ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الأقلام فى عصر واحد : كلهم فريد عصره ، وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات .. فلا معنى لها فى باب العدد ولا فى باب الصفات ، ولاسيما صفات الرجحان والامتياز..

ألا إننا نقولها اليوم عن « محمد فريد وجدى » لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفًا حرفا ، ولاينحرف عنها كثيرًا ولا قليلاً حتى فى لغة المجاز..

فقد عرفنا فى عصره طائفة غير قليلة من حملة الأقلام ورجال الحياة العامة . فلم نعرف أحدًا منهم يماثله فى طابعه الذى تفرد به فى حياته الخاصة أو العامة ، وفى خلقه أو تفكيره ، وفى معيشته اليومية أو معيشته الروحية ونُرجز مايقال عنه فى هذه الحالات جميعًا أنه لم يخلق فى عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل « الفريد »

نعم : الفريد حتى فى لغة الجناس . لأن اسمه فريد.. والفريد حتى فى عزلته . لأنه كان فى عزلة النسّاك والرهبان ، عليمًا غاية العلم بالتحليل والتحريم[1]..

بدأ حياته الفكرية على مبدأ لم يخالفه قط فى أيام رخاء ولا فى أيام عسرة ، فقصر طعامه على النبات وانفرد بهذا الطعام بين أهل بيته ، واجتنب الولائم التى يدعى فيها إلى طعام غير طعامه .

وأخذ نفسه بسمت الأولين من عباد « الله » الصالحين . فتورع عن كل بدعة من بدع الضلالة أو الجهالة ينكرها الدين ، وجهر باستنكاره لهذه البدع حين صمت الصيّاحون من الناطقين .

ذكرنا فى حديث الخديوى و« البكرى » – فى غير هذا الفصل – قصة الطرق الصوفية يوم

(١) إشارة إلى بيت المتنبى فى وصف الأسد : فى وحدة الرهبان إلا أنه – لا يعرف التحريم والتحليلا .

توديع المحمل بميدان المنشية وخلاصتها أن السيد « محمد توفيق البكرى » كان محنقاً على الخديو فى بعض السنين فمنع أصحاب الطرق من الخروج لموكب المحمل تحية للأمير فى ميدان الاحتفال ، فخلا الميدان إلا من الموظفين المدعوين .. وغضب الأمير لأنه فهم من ذلك أنه زراية بالموكب الذى تعوَّد أن يشهده العام بعد العام ، فانتهر السيد « توفيق » وقال له بصوت مسموع على ملأ من رجال الدولة : أنت قليل الأدب .. ! وغضب السيد « توفيق » فانصرف من الاحتفال وهو يقول للأمير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين : لست أنا قليل الأدب .. إننى وزير مثلك ، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك .. »

ولم تأخذ صحيفة واحدة بناصر السيد « البكرى » فى هذا الموقف ، لأن الصحف الإسلامية لا تُغضب الأمير من أجل شيخ الصوفية ، ولأن الصحف غير الإسلامية لم تشأ أن تتعرض لمسألة من مسائل الدين ..

إلا صحيفة « الدستور » التى كان يصدرها « فريد » : فإنها أخذت بناصر « البكرى » وهو من غير المقبولين عند صاحبها لاختلافهما فى المسلك والسيرة ، ولكن صاحب الدستور نظر إلى شئ واحد فى هذا الخلاف ، وهو أن مظاهر الطرق الصوفية بدعة لا يستحسنها ، وأن الأمير لم يكن على حق فى غضب على شيخ الطرق لمنع حضورها .

وتم هذه الخصلة الفريدة فى صاحب الدستور صباح اليوم التالى ليوم خروج المحمل .. فقد اطلع « البكرى » على الصحيفة فأرسل إلى صاحبها بمبلغ من المال كانت فى أشد الحاجة إليه ، فلم يقبل منه « فريد وجدى » غير قيمة الاشتراك لعام واحد ، ثم رد إليه البقية قبل أن ينتصف النهار .

ولقد كانت أزمة الصحيفة أثراً من آثار « المبدأ » الذى لا ينحرف عنه الرجل قيد شعرة ، وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرة وخالف أحب الناس إليه ، وقد كان من رأيه عند تأليف الحزب الوطنى أن يكون تبليغ تأليفه والاحتجاج على الاحتلال عامًّا غير مقصور على الدولة البريطانية ، فلم يقبل « مصطفى كامل » مقترحه ولم يسكت « فريد وجدى » عن تأييد رأيه ، فانصرف قرّاء اللواء عن قراءة الدستور ولم يكن للدستور قرّاء من الشيع السياسية الأخرى ، فكسدت الصحيفة وعجزت عن النهوض بتكاليفها ولم يقبل صاحبها أن يعوض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لا يوافقها .

ومن المعونات التى عرضت عليه فى أحرج أيام الأزمة معونة كبيرة من جماعة « تركيا الفتاة » يبذلونها للدستور مشاهرة ليكون لسانًا عربيًا لحركتهم الدستورية ، ولكن على شريطة

واحدة : وهى أن يُرفع من صدر الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الإسلامية » .. فرفض الرجل هذه المعونة ، ورفض أن يجعل صحيفته لسانًا للحزب إلا بشروطه التى يرتضيها ، ولو وافق الحزب على بقائها لسانًا للجامعة الإسلامية ..

وفى الوقت الذى كانت هذه المعونات تعرض عليها من شتى الجوانب – ومنها جانب الحاشية الخديوية – كان الرجل يتحامل على نفسه وعلى القليل من موارد مؤلفاته لينفق عليها بعد تصغير صفحاتها واختصار أعدادها ، فلما استنفد كل ماقدر على إنفاقه فى هذا السبيل أعلن تعطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والإدارة بمقدار غير يسير .. فأبت عليه نزاهة النفس أن يؤخر مليمًا واحدًا لصاحب دين ، واتفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلفاته بثمن يقل أحيانًا عن عُشر ثمنه فى المكتبات ومنها على ماأذكر معجمه المسمى بكنز العلوم واللغة وثمنه مائة وعشرون قرشًا ، فاتفق على حسابه بثلاثة عشر قرشًا ، واشترط على التاجر أن يشترى النسخ التى تصرف للموظفين بما بقى لهم من متأخر الأجور والمرتبات ، وحضر بنفسه تسليم النسخ واستلام الأثمان .

هذا هو الرجل الفريد فى نزاهة نفسه واستقامة خلقه وحفاظه على مبدئه ورأيه ..

وهو كذلك – أو أكثر من ذلك انفرادًا بين كتّاب عصره بجهوده فى مؤلفاته ؛ فلا نعرف أحدًا منهم توفر وحده على تأليف « دائرة معارف » كاملة ، ولا على التأليف فى تفسير القرآن وفى معجمات اللغة والعلم ، ولا على الجمع بين الدراسات الدينية والقصص الخيالية ، ولا على الاستقلال وحده بإصدار صحيفة يومية ، ولم يكن معه من المحررين غير كاتب هذه السطور ، ولو استطاع وحده أن يؤدى أعمال التحرير خارج المكتب ، ومنها الأحاديث وأخبار الدواوين ، لاستقل وحده بالإدارة والتحرير .

وأشرف مايكون صاحب المبدأ إذا كان استقلاله برأيه لا يأبى عليه أن يعرف لغيره حقهم فى الاستقلال بما يرون .

وقد كنت يوم اشتغلت بتحرير الدستور كاتبًا ناشئًا خامل الذكر . ليس لى بحق الشهرة أن يكون لى رأى مستقل مسموع ، ولكنى كنت أخالفه فى بعض آرائه بل فى بعض مبادئه السياسية وبعض معتقداته عما وراء المادة وتحضير الأرواح . وأشهر ماكان من ذلك حول موقف الحزب الوطنى من « سعد زغلول » ، فلم يمنعنى ذلك أن أنشر فى الدستور مايخالف هذا الموقف ، وأن أحادث « سعد زغلول » حديثًا ينفى كل مايعزوه إليه كتاب اللواء .. وقد صارحته غاية الصراحة فيما كان يعتقده من تحضير الأرواح وصارحنى غاية الصراحة فى أمر المتشابهات

من العقائد والأحكام فلا أذكر أنني لمحت منه عند أشد المخالفة نظرة غير نظرته حيث تقترب الأفكار والآراء .

ومما انفرد به فى صناعة الكتابة أنه كان يكتب منفردًا كما يكتب بين جمع من الزوار والعمال ، وأن سرعة قلمه بالكتابة لم تكن دون سرعة لسانه بالكلام ، وأنه كان سريع النظم للشعر كما كان سريع النسج للنثر البليغ ، وإن لم يكن يشتغل بنظم الشعر فى غير موضعه من قصص الخيال ..

ومن شعره فى هذه القصص الخيالية قوله :

رُمت المخاوف والمخاطر ... فرويت ما لم يروِ شاعر
وجمعت ما بين البدا ... وة والحضارة والمظاهر
وشهدت ما لو قلته ... عدُّوه من عبث الخواطر
وخرجت من ذا كله ... بحقيقة تغني المكابر
هي أن هذا الناس قد ... سحرتهم فتن سواحر
ظنوا السعادة فى التأ ... نق والتظرف والتفاخر
وإقامة الدور الشوا ... هق والعلالي والمقاصر
والخزي أعقاب اللذ ... ائذ والتورط فى الكبائر
بين افتتان بالقشو ... ر ووقفة حول الظواهر
أما السعادة فهي أ ... ن تفتق الحجب السواتر
وتحصل السر الذي ... شقت لمطلبه المرائر
وتنال من معناك ما ... خزنته همات قواصر
أن ترتقي بالروح حيـ ... ـث الحق عالي القدر سافر
هذي السعادة كلها ... فاظفر بها إن كنت ظافر

وله شعر فى هذه القصص يقول فيه عن المدنية :

ضل أهل الألمعية ... فى علاج المدنية
هي من أقدام عهد ... نحلة العلم القوية
هي للجثمان غنمة ... وهي للروح بلية
والذي قرر علة الرأ ... ي من أهل الروية
إنها شر شرور ... تحي للخير البشرية

ولو كانت طواعية النظم للناظم آية الملكة الشعرية لكان « فريد وجدى » فى طليعة الشعراء المطبوعين ، ولكن سهولة نظمه كسهولة نثره كلتاهما دليل على بساطة فى الطبع سلمت من العقد المركبة وتقابلت فيها الأعماق والظواهر بغير حجاب من خفايا النيات وعوج الأهواء .. فلا تخفى عليه سلاسة التعبير ولا سلامة التفكير .

ومن صباحة خلقه وإيمانه باستقلال الرأى عنده وعند غيره ، أنه كان يستمع إلى رأيي فى شعره فلا يغضبه ولا يهمه أن يكون له حظ من الشعر أكبر من حظه ، وقد قلت له مرة : حسبك من الشعر ما يقنع قلب المتصوف ولسانه . فقال : « والله » إنه لخير كثير ، ومن لنا بمحض هذا النصيب ؟

• • •

روى العالم اللغوى الشيخ « عبد القادر المغربى » ، وهو من تلاميذ السيد « جمال الدين الأفغانى » ، أن السيد عرض عليه الزواج فقال : إن « جمال الدين » وهو متزوج رب أسرة وصاحب بيت يأوى إليه بين أهله وبنيه صورة من صور الخيال أغرب من صورة الشيخ « عليش » وهو يسعى إلى « الأزبكية » ليجلس إلى حانة من حاناتها ويصفق بيديه يستدعى « الجرسون » ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبونه من مشارب الحانات .

أقول إنني قد رأيت بعيني فى الواقع ما هو أغرب من هاتين الصورتين . وهو منظر « محمد فريد وجدى » يتمشى فى قلب « الأزبكية » بين المتاجر والحانات وهى لا تدرى من هذا الذى يغيب فى أطوائها بين هذا الزحام ، ولعله هو أيضًا لا يدرى أن هذه هى « الأزبكية » إلا كما يدرى الطيف فى الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشاهد الأفلام .

فقد كان للسير على الأقدام من رياضات الرجل قبيل الأصيل كل نهار ، وكان يمضى فى رياضته حيث ساقته قدماه ، تارة إلى مفازة الخلاء وتارة أخرى إلى حى « السكك الحديدة » ، وحينًا إلى قصر النيل وحينًا آخر إلى شارع « جلال » أو « عماد الدين » ، ولا يحس من يراه فى مكان من هذه الأمكنة . وهو ينظر إلى ملامح وجهه ، أنه يفرق بين مكان منها ومكان سواه ، كأنه – لانطوائه على نفسه – يتمشى فى عالم السريرة ولا يتمشى فى عالم العيان .

وكنت أراه أحيانًا فى طريق ولا أعرف من هو بين غمار الناس ، على علمى ببعض آثاره وسماعى ببعض أخباره ، ومنها فى قفشات الأدباء « وأولاد البلد » أنه يعيش فيما وراء المادة .. فى عطفة من عطفات عالم الروح ..

فلما رأيته لأول مرة بعد إعلانه عن إنشاء صحيفة الدستور أسفت لما فاتنى من الشعور بتلك لأعجوبة التى كنت أشهدها كم يشهدها غيرى من عابرى الطريق ، ولايشعرون بها ..!

« ماوراء المادة » كله ينتقل إلى حى « الزبكية » فى ضوء النهار؟!

إننى لأشعر اليوم أنه منظر عجب غاية العجب : منظر أعجب من « جمال الدين » رب الأسرة والدار ، أو منظر الشيخ « عليش » جليس القهوة والبار..

وقد صحبته فى رياضة من هذه الرياضات أول يوم لقيته فيه ، فعلمت حقًّا أنه كان يغشى تلك الأماكن وكأنه لايغشاها ، لأنه يستطيع أن يمضى فى عزلة عما حوله كما يستطيع أن يجلس إلى مكتبه ليكتب ويفكر ويناجى سريرته ولا يدرى من يخاطبهم ويخاطبونه .. إنه بعيد عنهم وإنهم بعيدون عنه ، فى عالم آخر من وراء المادة .. إذا شاء « أولاد البلد » الظرفاء .

وكنت قد عرفته من كتاباته زمنًا قبل أن أعرفه رأى العين ، ولكننى بعد أن صاحبته فى مكتب الدستور من يوم إنشائه إلى يوم تعطيله – إلا فترات من الزمن لا تحسب – أرانى أستطيع أن أقول إننى كنت أعرفه من كتاباته كذلك وأنا معه فى دار واحدة . لأنه كان يعمل فى مسكنه بالدار ولا ينتقل إلى مكتبه إلا للقاء طارئ من الزوار ، أو للاجتماع بلجنة من لجان الصحيفة لمراجعة أحوال الإدارة والتحرير والتوزيع ، وكان يعفينى من إطلاعه على ماأكتب قبل إرساله إلى المطبعة ، فربما مضى الأسبوع ولم ألقه إلا إذا طرأ من شؤون الصحيفة مايدعو إلى مشورته أو تبليغه عنه ليتصرف فيه بما يراه .

قرأت إعلانه عن طلب محرر للصحيفة ، فكتبت إليه أخبره بأننى أرشح نفسى للعمل فى الصحافة لأول مرة .. فجاءنى الرد منه بعد يوم أو يومين يسألنى أن ألقاه بدار مطبعة الواعظ لصاحبها الكاتب المعروف – يومئذ – « محمود سلامة » ، وكنت أقرأ مقالاته النقدية ويعجبنى منه مايعجبنى من مدرسته كلها : وهى مدرسة « عبد الله نديم » « وأحمد سمير » ، وكنت أعرف مكان مطبعة الواعظ لأننى فكرت زمنًا فى إصدار صحيفة على مثالها وفى مثل حجمها ، قبل أن أستقيل من وظيفتى الحكومية .

فلما ذهبت إلى الموعد – بالدقيقة – أخرج الساعة من جيبه ونظر فيها ، وسكت هنيهة ثم سألنى عما اطلعت عليه من مؤلفاته التى أشرت إليها فى الخطاب ، ثم اختار صحيفة من الصحف التى كانت على مكتب صاحب الواعظ وقال لى : هل قرأت هذا؟ فنظرت فى الصحيفة فعلمت أنه يشير إلى مقال عن رحلة لكاتب المقال فى العاصمة الفرنسية ، كنت قد

اطلعت عليه قبل ذلك . فرددت الصحيفة إليه وأنا أقول : إننى لم أذهب إلى باريس ، ولكن موضع العجب عندى أن الكاتب لم يطرق منها غير الحى اللاتينى ولم يعرف فى الحى اللاتينى غير معارض الخلاعة والمجون ، فهل هذه هى باريس؟ فضحك صاحبنا ضحكة تنم على كل مافى طوية نفسه من براءة طيبة كبراءة الطفولة ، وقال : هذه هى باريس كلها إذا كانت القاهرة كلها هى ماتراه الساعة .. هل لك فى رحلة قصيرة نقضى بها رياضة اليوم؟..

وسرت معه حيث سار ، فلاح لى أنه كان كأنما يسير معى ولا يوجهنى إلى مكان مقصود بعينه ، أو كأننى كنت أوجهه كما كان يوجهنى على السواء..

وقال لى فى صراحة لا تكلف فيها ، أنه عرض علىّ مقال الصحيفة عن رحلة باريس امتحاناً لرأيى بعد أن أغناه أسلوب خطابى عن امتحانى فى الكتابة ، وبعد أن أغناه حضورى إلى الموعد – بالدقيقة – عن امتحان نظامى فى العمل .. فلى أن أعتبر نفسى محرراً بصحيفة الدستور منذ تلك اللحظة ، ولى أن أسأله عما أشاء عن نظام العمل المطلوب .

ولم أسأله عن شئ من ذلك ، ولكنه هو قد مضى يسهب فى بيان مقصده من إنشاء الصحيفة وبيان خطتها فى السياسة والوطنية .. ثم مضت الأيام بعد الأيام فى هذا العمل المشترك بينى وبينه لايعاوننا فيه أحد غير أخيه « أحمد » الطالب بكلية الحقوق ، وغير آحاد من زملائه الطلبة ومن وكلاء الصحيفة فى الأقاليم . ولم ينقطع عملى فى الدستور غير بضعة أسابيع تركت الصحيفة فيها لخلاف وقع بينى وبين أخيه ، لاعتراضه على بعض آرائى فى السياسة الحزبية ، والحق أنه اعتراض لم يكن فيه مايسوء لولا أننى استكثرته من الأخ وهو يعلم أن أخاه الأكبر لايبدى على ماأكتب مثل هذا الاعتراض فيما يخالفه أو يناقضه من الآراء السياسية .

ولم ألق « محمد فريد وجدى » بعد تعطيل الدستور غير مرات معدودات ، وكنت قد برحت « القاهرة » إلى « أسوان » ثم عدت إلى « القاهرة » للعلاج من وعكة قطعتنى عن العمل بضعة أشهر .

وفى حديث من أحاديث الرياضة على الأقدام كان لقائى الأول له بعد عودتى إلى « القاهرة » ، فإننى عرفت مسكنه بعد انتقاله إليه من مسكنه بدار الصحيفة ، فقصدت إليه على أثر رياضة فى الخلاء وبيدى كتاب من كتب الفلسفة الاجتماعية ، فقال لى وقد نظر فى الكتاب ولمح على وجهى أعراض السقم : وفى مثل هذا الكتاب تقرأ وأنت ترتاض للاستشفاء؟..

وأذكر أننى فاتحته باعتقادى قصر العمر وقلة الجدوى من الاستشفاء فابتسم ابتسامته

الأبوية ، وفتح الصفحة الأولى من الكتاب وهو يقول لى : اكتب هنا .. ثم أملى علىّ كلامًا فحواه أننى سأعود إلى هذه الأسطر وأنا شيخ معمّر ، لكى أعرف أننى كنت عى خطأ كبير حين قدّرت لنفسى نهاية العمر القصير..

رحم الله ذلك القلب الطهور ، وذلك الروح الكريم ، وذلك الحق الفريد ..

إن يكن اليوم لا يُذكر حق ذكراه فما هو بالخمول ولا هو بالقصور عن الخلود ، ولكنه يعيش فى عزلة من دنيا التاريخ كما عاش أيامه فى عزلة من دنيا الحياة .



الشيخ رشيد رضا

الشيخ رشيد رضا

☐ يقول « محمود رشاد بك » فى رحلته الروسية : « سألنى التتار عن الشيخ « محمد عبده » والشيخ « على يوسف » والشيخ « رشيد رضا » و« مصطفى باشا كامل » و« فريد بك وجدى » وشكروا لهم صدق غيرتهم على الدين . »

وقد لقيت أنا فى بلدتى أناسًا من أبناء « إفريقية الغربية » الذين يعبرون « بأسوان » فى طريقهم إلى الحج ذاهبين أو عائدين ، فوجدت بينهم من يقرأ مجلة « بأسوان » فى مجلة « المنار » ويعول عليها فى فهم شعائر الإسلام وأحكامه . . .

وقد تكفى نظرة فى باب الأسئلة والفتاوى التى كانت تنشر بتلك المجلة لتقدير مدى انتشارها فى الأقطار الإسلامية ، لأنها كانت تتلقى الأسئلة والفتاوى من جميع الأقطار . .

وقد كنت أطلع على بعض أعدادها حرصًا منى على متابعة آثار الشيخ « محمد عبده » فى كل مظنة ، فكنت أحمد لها الدعوة إلى التحرر من ربقة القديم ، ولكنى أسأل نفسى دائمًا بعد قراءتها : « من أين يلم بالنفس هذا الشعور بشئ « غير مستساغ » فى كثير مما يكتبه الشيخ « رشيد » ! »

ولم يكن هذا شأنى وحدى فيما كنت أقرأ من كتاباته ، ولكنه كان شعورًا يشاركنى فيه عدد غير قليل من القراء . ومازلت أسائل نفسى حتى تبين لى بعد تجربة الحياة والأدب ، وبعد لقاء الشيخ « رشيد » ، إنه ضرب من الحاجة إلى الصقل ، ولاسيما الصقل من ناحية الكياسة والفكاهة ، فما أحسب أن الشيخ — رحمه « الله » — كان يلتفت إلى شئ من طرائف الحياة التى تتجلى فى نقائض الدنيا وأعاجيبها ، ولا غنى عنها لتمام المعاملات والتفاهم بين الناس . . لقيته مرات لاتحصى . ولكنى لم أتحدث إليه غير ثلاث مرات أو أربع فى مناسبات قليلة .

أولها فى دار المنار بدرب الجماميز . . كانت دارًا صغيرة ، لها سلم ضيق تصعد عليه إلى حجرة لا تزيد فى مساحتها على أربعة أمتار مربعة ، وفيها ديوان مفروش ، وعلى أرضها حصيرة فوقها فروة يجلس عليها الأستاذ وقد ثنى قدمه وفى يده ورقة ، يكتب عليها للمنار .

وكنت أعبر بتلك الدار كثيرًا فى طريقى إلى دار الكتب ، فلم يخطر لى أن أزورها أو أعرج

الشيخ رشيد رضا

☐ يقول « محمود رشاد بك » فى رحلته الروسية : « سألنى التتر عن الشيخ « محمد عبده » والشيخ « على يوسف » والشيخ « رشيد رضا » و« مصطفى باشا كامل » و« فريد بك وجدى » وشكروا لهم صدق غيرتهم على الدين ».

وقد لقيت أنا فى بلدتى أناسًا من أبناء « إفريقية الغربية » الذين يعبرون « بأسوان » فى طريقهم إلى الحج ذاهبين أو عائدين . فوجدت بينهم من يقرأ مجلة « بأسوان » فى مجلة « المنار » ويعول عليها فى فهم شعائر الإسلام وأحكامه ..

وقد تكفى نظرة فى باب الأسئلة والفتاوى التى كانت تنشر بتلك المجلة لتقدير مدى انتشارها فى الأقطار الإسلامية ، لأنها كانت تتلقى الأسئلة والفتاوى من جميع الأقطار ..

وقد كنت أطلع على بعض أعداده حرصًا منى على متابعة آثار الشيخ « محمد عبده » فى كل مظنة ، فكنت أحمد لها الدعوة إلى التحرر من ربقة القديم ، ولكنى أسأل نفسى دائمًا بعد قراءتها : « من أين يلم بالنفس هذا الشعور بشئ « غير مستساغ » فى كثير مما يكتبه الشيخ « رشيد » !!

ولم يكن هذ شأنى وحدى فيما كنت أقرأ من كتاباته ، ولكنه كان شعورًا يشاركنى فيه عدد غير قليل من القراء . ومازلت أسائل نفسى حتى تبين لى بعد تجربة الحياة والأدب ، وبعد لقاء الشيخ « رشيد » ، إنه ضرب من الحاجة إلى الصقل ، ولاسيما الصقل من ناحية الكياسة والفكاهة ، فما أحسب أن الشيخ – رحمه « الله » – كان يلتفت إلى شئ من طرائف الحياة التى تتجلى فى نقائض الدنيا وأعاجيبها ، ولاغنى عنها لتمام التعاطف والتفاهم بين الناس .. لقيته مرات لاتحصى .. ولكنى لم أتحدث إليه غير ثلاث مرات أو أربع فى مناسبات قليلة .

أولها فى دار المنار بدرب الجماميز .. كانت دارًا صغيرة ، لها سلم ضيق تصعد عليه إلى حجرة لا تزيد فى مساحتها على أربعة أمتار مربعة ، وفيها ديوان مفروش : وعلى أرضها حصيرة فوقها فروة يجلس عليها الأستاذ وقد ثنى قدمه وفى يده ورقة ، يكتب عليها للمنار .

وكنت أعبر تلك الدار كثيرًا فى طريقى إلى دار الكتب : فلم يخطر لى أن أزورها أو أعرج

عليها ، حتى أعلن الشيخ « رشيد » عن كتابه في ترجمة الأستاذ الإمام ، وصدر منه جزءان ، هما الجزء الثاني والثالث ، وأرجئ صدور الجزء الأول إلى حين .

كان الجزء الثاني يشتمل على طائفة من مقالات الأستاذ الإمام ورسائله التي نشرت بتوقيعه أو بغير توقيعه .

وكان الجزء الثالث يشتمل على المراثي الشعرية والنثرية التي قيلت فيه إلى مابعد حفلة الأربعين ، ومعها بعض كلمات المقدرين والمؤمنين من أبناء البلاد الشرقية والغربية .

ولم تكن « ميزانية » الكتب يومئذ تسمح لي بشراء جزأين كبيرين في وقت واحد ! فاخترت أن أبدأ بالجزء الثاني ، وأرجئ شراء الجزء الثالث بضعة أسابيع .

ولقيت عاملاً على السلم فأخبرته بما أطلب ، فلم يبد مانعاً .. وذهب ليجيئني بالجزء الذي طلبته ، وعاد به وأنا في حضرة الشيخ « رشيد » .. وتناولت الجزء وأخرجت الثمن – فسأل الشيخ « رشيد » : « ماهذا؟ »

ثم قال : « إن الجزأين لا يباعان على انفراد .. »

ولا أخفى على القارئ أنني حين سمعته يسأل : ماهذا؟ خطر لي أنه سيعفيني من الثمن ، بعد أن تناول الحديث بيني وبينه سيرة الأستاذ الإمام ، ولمح منه الرضا عن رأيي في خصومه وناقديه ..

فلما فهمت مرمى سؤاله شعرت بخيبة أمل ، وازداد شعوري هذا حين أصر على بيع الجزأين ، مع توكيدي له أنني سأعود بعد فترة لشراء الجزء الأخير ..

ثم تأخر صدور الجزء الأول أكثر من عشرين سنة ، وهو الجزء الذي يحتاج من المؤلف إلى عناء ومراجعة وتحضير ، فهيأت تلك المساومة نفسي لاعتقاد خاطئ في حق الرجل ، ووقع عندي أنه بادر إلى إصدار الجزأين لما في هذه المبادرة من كسب لايجشمه شيئاً من الكلفة والمشقة ، وأنه أخّر الجزء الأول لما يتجشمه فيه من التعب ، ومايلقاه في سبيله من الخصومات ..

ولكن الجزء الأول صدر بعد طول التأخير ، وظهر من وقائعه وأخباره أن الشيخ « رشيد » كان موفور العذر في إرجاء صدوره ، لأنه لم يكن يستطيع نشره في عهد عباس الثاني ولا في إبان الحرب العلمية ، فانتظر حتى زالت المحظورات التي حالت دون إصداره طوال تلك السنين .

ولقيت الرجل مرة أخرى مع اللجنة التي تألفت للاحتفال بعيد المقتطف الذهبي ، وكان الدكتور « فارس نمر باشا » قد دعانا إلى حفلة شاي في داره للإعراب عن شكره للجنة الاحتفال وشكر زميله العلامة « يعقوب صروف » .

وجلست مع « سعيد شقير باشا » والشيخ « رشيد » ..

وطاف « فارس باشا » بضيوفه يحييهم فقال للشيخ : « إنك ياسيد تسمن كثيرًا ، ألاتعود رياضة المشي؟ مش بقدر ماستطيع .

ثم استطرد الحديث إلى الصحة ، فقال « سعيد باشا » : إنه يحس إعياء وخواء يشبه « الدوخة » .

فسألته : هل كشفت عن الكبد؟

فقال : إن المصيبة كلها من هذه الكبد !

ولاح على الشيخ « رشيد » كأنه قد سمع مني نبوءة ، فسألني : وهل درست الطب؟

قلت : إن علاقة الكبد بهذه الحالة لا تحتاج إلى علم طبي .

ثم تبين لنا من جملة الحديث أن عناية الشيخ بالاطلاع على المعارف العصرية العامة أقل بكثير من عنايته بالاطلاع على مسائل الفقه والدين .

وتحققنا من هذا حين صدر الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام ووجدت فيه إشارة استفهام بعد اسم « عبد الله منو؟ »

فاستغربت أن يكون الشيخ على غير علم بتاريخ هذا القائد الفرنسي وقد دان بالإسلام وكانت له علاقة في مصر ... من أكبر ... الإسلامية ، ولكن الاطلاع على هذه المسائل التاريخية لم يكن على مايظهر من همّ الشيخ .

• • •

ولقيته مرة أخرى في قطار « المترو » ليلة من ليالي شهر رمضان ومعه قريب له يسمى على ماأذكر « عاصماً » .

فجرى الحديث على المعجزات ..

وقال الشيخ : « إن المحقق من سيرة النبي عليه السلام كاف للدلالة على وحي القرآن ،

لأنه عليه السلام لم يأت بمثل هذه البلاغة قبل الأربعين ، وكان يشكو انقطاع الوحى فترة بعد نزول القرآن الكريم عليه .»

فقلت : « إنه دليل حسن ولكنه غير ملزم ، فقد اشتهر مثلاً عن النابغة الذبيانى أنه ينظم الشعر قبل الأربعين أو نحوها ، وذلك تعليل لقب « النابغة » فى بعض الروايات . واشتهر كذلك عنه وعن غيره أنه « أجبل » ، أى انقطع عن النظم فترة ثم عاد إليه ، فنحرت قبيلته الذبائح فرحًا بانطلاق لسانه ، لأنه أنفع لها من غزوة تنتصر فيها على أعدائها ..

« إنما المعجزة الكبرى هى الرسالة المحمدية التى لا ينهض بها فرد ولا أمة بغير معونة إلهية ..

وإنما المعجزة الكبرى هى أثر القرآن فى الضمائر وأثره فى تواريخ الأمم الإسلامية وغيرها .»

ومن حق الشيخ أن أذكر له فى هذا السياق أنه لم يغضب ولم ينكر وجاهة التعقيب على كلامه .. ودعانى ملحًّا إلى زيارته فى « دار المنار » ..

ولكننى لم ألقه بعد ذلك ، وإن كنت ألقاه حينًا بعد حين فى صفحات مجلته « المنار » ، لأنها من المجلات العربية التى حرصت على اقتنائها من أول أعدادها إلى آخرها .

عبد العزيز جاويش

عبد العزيز جاويش

كلما ذكرت الشيخ عبد العزيز جاويش ، ذكرت زيه على الخصوص .. لأنه كان أول مالفتني إليه ، ولم يزل موضع التفاتي بعد ذلك كلما رأيته أو سمعت بخبر من أخباره في بعض المناسبات ..

كان لنا زميل في مدرسة « أسوان الأميرية » ، لا تقل شهرته بيننا بالجهل عن شهرته بالعبث وقلة المبالاة ..

وتخرج بعدنا من المدرسة ، فعيّنته وزارة المعارف مدرسًا بها للترجمة ، لشدة الحاجة يومئذ إلى المدرسين ..

وكنا نعجب لكتابته العربية أكثر من عجبنا لكلامه باللغة الإنجليزية ، فهو يعرف الإنجليزية كما يعرف العربية ، ومعرفته للعربية بعد ذلك هي موضع الشك الكبير ..

وإنه ليلقي درسا في الترجمة ذات يوم إذا بمفتش معمم يدخل عليه ، فظنه مفتشًا للغة العربية قد ضل طريقه إلى هذه الحصة ، فاطمأن على جهله وعلمه .. ومضى في درسه بغير اكتراث ، ولم يكن من دأبه كما أسلفنا أن يكترث لشئ من الأشياء .

وفوجئ باعتراض من المفتش المعمم ، فقال له بغير تردد : « إن هذه القطعة منقولة من كتاب مقرر . »

وسأله المفتش : ما هو ؟ .

فقال : كتاب مرشد المترجم .

وطلب منه المفتش أن يريه القطعة في الكتاب . فقلب الصفحات كأنما يبحث عن واحدة معينة منها ، ثم أشار إلى جملة في الصفحة .. وقال للمفتش بكل ثقة واطمئنان :

هي هذه القطعة !

وهنا المباغتة التي كان أهون منها على صاحبنا أن ينفتح أمامه قمقم مغلق ويخرج منه مارد من الجن ، لأن الشيخ المعمم قد أخذ يقرأ القطعة الإنجليزية ويسأله عن العلاقة بينها وبين العبارة العربية ..

إن المفتش المعمم هو الشيخ « عبد العزيز جاويش » مؤلف كتاب مرشد المترجم ، مع زميل من المعلمين !

وضجت المدينة ليلتها من الضحك ، ولم يزل شاهدو القصة يذكرونها إلى الآن .. لا عجب إذن أن يظل زى الشيخ عالقًا بذهنى على تعاقب الأيام .

* * * *

وذهبت سنة وجاءت سنة ، وتتابعت سنوات بعد سنوات ، وألفت فى « القاهرة » منظر الشيخ فى جبته الغراء .. وهى فى أشد شناعتها قلما أحوجتنا يومئذ – نحن أبناء الصعيد – إلى معطف ثقيل ..

ثم استقال الشيخ من وظيفته بوزارة المعارف ، بعد إنشاء مدرسة القضاء الشرعى وإسناد نظارتها إلى المربى الكبير « عاطف بركات بك » ، وأخذ فى حملته على وزارة المعارف على النحو الذى يذكره قراء اللواء فى تلك الأيام .

وحضرنا يومًا إلى مكتب الصحافة بوزارة الداخلية ، فسألنا موظف فيه : « هل صحيح أن الشيخ جاويش اعتزل عمله فى تحرير « اللواء » ؟

فقال زميل صحفى : « إن صحيفة « الوطن » قد نشرت الخبر » وقال زميل آخر : « إنى أشك فى صحة الخبر » وقلنا جميعًا : « إن « دار اللواء » قريبة ، والسؤال هناك أيسر من الشك بغير دليل . »

ودخلنا مكتب الشيخ فوجدناه فيه ، وتبين من الكلمة الأولى أن الخبر غير صحيح .. ثم مضى الشيخ فى كلامه من التعليق على صحيفة الوطن إلى تعليق على الصحف عامة ، وعلى السياسة والأحزاب ، ثم إلى الكلام عن حرية الصحافة وحرية الزعماء السياسيين .

وجلست أسمع وأنا أعجب لرجل يفهم الوطنية المصرية فى نهضة المطالبة بالاستقلال . ثم ازداد عجبى حين قدم للمحاكمة ، فكان دفاعه الأول أنه « غير مصرى » لأنه ينتمى إلى أسرة ترنسية : « تونس » خاضعة للحماية الفرنسية ..

ثم ازداد العجب حين سافر إلى « الآستانة » ، وأنشأ فيها صحيفة « الهلال العثمانى » لينشر بها دعوته السياسية على الوجه الذى كان يفهمه ولم يعدل عنه بقية حياته ، وبلغ غايته حين علمنا أنه أنشأ فى « الآستانة » حزب « الوطن العثمانى » ليعارض به حزب « محمد فريد » الذى جعل شعاره « مصر للمصريين »

وكانت صحيفة « الهلال العثمانى » تصل إلينا سرًّا فى فترات متقطعة ، فكنت أسأل نفسى : هل بلغ من يقين الشيخ بمذهبه فى الوطنية أن يفترض قبوله على كل مصرى يسمع باسمه من بعيد ؟

وعدنا إلى زى الشيخ حين سمعنا نبأ الحملة التركية على هذه البلاد ، فقد قيل يومئذ إن كسوة المشيخة الإسلامية كانت فى حقيبة الشيخ : وإنه قد حيل بينه وبين مصاحبة الحملة فى اللحظة الأخيرة لامتعاض شيخ الإسلام هناك من حركاته حول مصر والحجاز .

* * *

وانتهت الحرب ، ولقيت الشيخ اتفاقًا قبل تعيينه مرة أخرى بوزارة المعارف . فإذا هو هو فى تفكيره وتقديره عن السياسة الوطنية .. « أنقرة » هى صاحبة القول الفصل فى السيادة المصرية ، « أنقرة » هى المرجع الأخير فى الامتيازات الأجنبية ، معاهدة سنة ١٨٤٠ هى أساس ما نطالب به من حقوق !

قلت : « الحمد لله » .. لقد تغيرت « مصر » كثيرًا فى عشر سنوات ، وإن لم يتغير الشيخ « عبد العزيز جاويش » ومن جرى على غراره .

* * *

لقد ذكرنا « رشيد رضا » فى الفصل السابق ، وبين الشيخ « رشيد » والشيخ « جاويش » جامعة لاغنى عن الإشارة إليها لتقدير كل منهما معًا ، وكل من دخل معهما فى هذه الجامعة .. فبعد « جمال الدين » ، و« محمد عبده » ، أصبح من همّ كل شيخ ناشئ أن يصبح أستاذًا إمامًا أو نمطًا آخر من « جمال الدين » ..

ومن هنا نشأت مدرسة « رشيد رضا » ، و« مصطفى المراغى » ، و« طنطاوى جوهرى » ، و« عبد الحميد الزهراوى » ، و« محمد الخضرى » ، و« محمد المهدى » ، و« النجار » ، وغيرهم .

ولكن الشيخ « عبد العزيز » كان يتشبه بـ « جمال الدين » حيث يتشبه أقرانه على الأكثر بالأستاذ الإمام ..

وفارق آخر بينه وبين الشيخ « رشيد » ، أن الشيخ « رشيد » كما قلنا كانت به جفوة عن الفكاهة والكياسة ..

أما الشيخ « عبد العزيز » ، فقد كانت فيه من « أبناء البلد » الظرفاء مشابهة كثيرة ..

ذهبت يومًا لزيارة الأستاذ «محمد صادق عنبر» بمكتب صحيفة العلم على ماأذكر، فوجدت الشيخ «عبدالعزيز» يصيح صيحة المحنق الذى يغالب ضحكًا مكظومًا:

إنه خبر أدهش البقر.. إنه خبر أدهش البقر!

فسألت الأستاذ «صدق عنبر»: ماهذا الخبر؟

فجعل يغمغم بين الضحك والخجل وهو يقول: إنه مصحح عندنا من أهل الشرقية جاءه من بلده خبر عن بقرة قتلها قطار السكة الحديد، فاختار للخبر عنوانًا يليق بهذه الفاجعة العالمية.. وكتبه بهذا العنوان: «خبر أدهش العالم!».... وفى رأى الأستاذ كما سمعت أن الدهشة من حق البقر فى هذا المقام!...

قلت: صدق أبو العيناء.. رأوه يأكل فى الطريق أمام الغادين والرائحين فلاموه..

فقال: أمن البقر حياء؟...

«وأراد أن يثبت لمن لاموه أن القوم بقر فوقف ونادى: أيها الناس! قال «هَىّ بن بَىّ» عمن لا يوثق له برأى: من بلغ طرف لسانه أرنبة أنفه دخل الجنة فلم يبق من حوله أحد إلا أخرج لسانه يحاول أن يبلغ أرنبة أنفه!»

«ومضى أبو العيناء وهو يقول لمن لاموه: ألم أقل لكم؟» وتد أبى الأستاذ «صادق» إلا أن ينقل الحديث المروى لصاحب الخبر ليرى أين هو من قول الشيخ «عبدالعزيز» ومن قول «أبى العيناء».



إبراهيم الهلباوى

ابراهيم الهلباوى

كان فى مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيان : أحدهما حزب « محمد شريف باشا » والآخر حزب « مصطفى رياض باشا » ..

وقد يخطر للقارىء المصرى أن تعريف الأحزاب بالأشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية .. ولكن الواقع أن تعريف الأحزاب بالأشخاص كان سنة معروفة فى ذلك العصر حتى فى أعرق الأمم البرلمانية ، فكان الحزبان المتناظران فى إنجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب « غلادستون » وحزب « بيكنسفيلد » ، ولم يكن ذلك دليلاً على وحدة البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين فى البرامج ، ولم يكن الخلاف بينهما مقصوراً على الانتماء إلى هذا الوزير أو ذاك الوزير .

كان حزب « شريف » أقرب إلى التجديد السريع ..

وكان حزب « رياض » أقرب إلى المحافظة مع التقدم فى رفق وأناة ..

وكان « الهلباوى بك » ناقماً على « رياض باشا » لسبب من الأسباب ، فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه ما لا يرضيه ..

فأمر عالماً من رجال الدين أن يستجوب الشيخ « إبراهيم الهلباوى » تمهيداً لمعاقبته .. فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشئ ، واستطرد قائلاً :

إن ناظر النظار سيخرب بيتك إن لم تكف عن الحملة عليه .

فضحك الشيخ « إبراهيم » وأجابه ساخراً :

- إنه لا يستطيع .

فعجب العالم المحقق وقال : كيف لا يستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها فى يديه ؟

قال الشيخ « إبراهيم » : « وليكن ناظر النظار ، أو أكبر من ناظر النظار .. ليكن أمير البلاد .. ليكن خاقان البرين والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله ، فإنه لا يستطيع أن

يخرب لى بيتًا » فنزع العالم المحقق ، وخيل إليه أن المسألة تنتقل من التمرد والعصيان إلى الكفر « بالله » ، والعياذ بالله !

فصاح بالشيخ الناشئ حنقًا : أهذا الذى تعلمتموه من « جمال الدين » ؟ .

وكان « جمال الدين » مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء فى ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد فى كلام التلميذ برهانًا على زندقة الأستاذ ..

وكان الشيخ « إبراهيم الهلباوى » من تلاميذ « جمال الدين » ، فلم يكن أسرع منه إلى رد التهمة إلى المتهم ، وقال لصاحبنا : بل هذا الذى تعلمناه منكم قبل أن نتعلمه من « جمال الدين » ! .

قال الرجل أعلّمناكم نحن الكفر؟ .

قال الفتى المتحذلق : بل علّمتمونا أن قدرة « الله » لا تتعلق بالمستحيل .. وخراب بيتى مستحيل لسبب واحد ، وهو أنه ليس لى بيت ! .

على أن تلمذة « الهلباوى » « لجمال الدين » لم تكن تمنعه أن يستطيل عليه بمثل هذه الحذلقة إذا « حكمت القافية » كما يقولون . فلعله هو التلميذ الوحيد الذى كان يجترئ على السيد بالدعابة فى مجالس الدرس أو مجالس الحديث ..

قال لى عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرًا من تلك الأحاديث – أو تلك الدروس – وكانت كل أحاديث « جمال الدين » من قبيل الدروس : إن السيد كان يتكلم يومًا عن بعض الرذائل التى تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التى تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة ..

فقاطعه « الهلباوى » قائلاً : ياخبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟ .

فانتفض السيد مغضبًا وصاح به : « أغرب عنى أيها الخبيث .. لعنة « الله » عليك !

و« الهلباوى » الذى تدل عليه هاتان النادرتان هو « الهلباوى » الذى عرفه الناس طوال حياته ، ويمكنك أن تلخصه فى عبارة واحدة ، وهى أنه رحمه « الله » كان « ذلاقة لسان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها » .

ومن هذه الذلاقة المتعجلة ، كان يؤخذ على « الهلباوى » كل ما هو مأخوذ عليه .

• • •

سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نسمع عنه ممن رآه ..

كان أشهر المحامين بين الفلاحين بلا استثناء ، وكان من آيات شهرته أنها دخلت فى « النكتة المصرية » .. فكان الذين يساومون القصابين فى شراء لسان الذبيحة يقولون إذا اشتط عليهم القصاب فى الثمن : « والله » ولا لسان الهلباوى ! .

وسمعنا بشهرته كاتبًا كما سمعنا بشهرته محاميًا ، فكان عنوان مقالاته « إلى أى طريق نحن مسوقون » يتردد على كل لسان ، وكنا نسمع به وإن لم نقرأ تلك المقالات ..

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول فى الوطنية إلى خطة « الاعتدال » وفسر الاعتدال بمصانعة الاحتلال ..

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعنى بها قضية « دنشواى » التى وقف فيها موقفًا ظل نادمًا عليه طول حياته ..

وعن قضية « دنشواى » قلت فى كتابى « سعد زغلول » : لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ فى « أسوان » ، فغشى على واحد منا ولم نستطع إتمام القراءة إلا بصوت متهدج تخنقه العبرات .

ويستطيع القارئ إذن أن يتخيل مبلغ السخط الذى أثارته فى نفوسنا رؤية « الهلباوى » أمامنا وجهًا لوجه فى دار الجريدة ، يوم ألقى الأستاذ « لطفى السيد بك » خطابه الذى أشرنا إليه فى الكلام عن صاحب « المؤيد » ..

لقد كان اغتباطى شديدًا بما أصابه من الأذى فى ذلك اليوم ، ولكنى أقول إنصافًا له أننا رأينا فى الرجل شجاعة لم نرها فى غيره من المقصودين بالهتاف العدائى ذلك المساء .. فقد أوى بعضهم إلى حجرات الدار حتى اطمأن إلى انصراف الجمهور الغاضب ، وأبى « الهلباوى » إلا أن يقتحم الجمع خارجًا من الدار فى إبان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له فى طريقه من اللكم والإيذاء .

وغاب « الهلباوى » زمنًا عن ميدان السياسة ، ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضًا لـ « سعد زغلول » .. وكانت المساجلات بين الأحزاب يومئذ على أعنفها ، ولكنى أشهد القارئ أننى ما وجدت القلم ينبعث فى يدى انبعاثًا إلى القول القارص العنيف كما كان ينبعث فى الرد على خطب « الهلباوى » وأحاديثه ، فردودى عليه فيما أعتقد كانت أعنف ما كتبت على الإطلاق ..

ثم مضت الأيام ، وشاء القدر أن يكون « للهلباوى » شأن فى موقف من أهم المواقف فى

حياتى السياسية ، لأنه الموقف الذى اعتزمت فيه جديًا أن أترك الهيئة الوفدية مستقلاً عن جميع الأحزاب ..

كان « الوفد » و« الأحرار » الدستوريون مؤتلفين على عهد الوزارة « الصدقية » التى عدلت الدستور ..

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر ، فعقد « الأحرار » الدستوريون اجتماعًا فى دار حزبهم ، وذهبنا إليه تأييدًا لمظهر الائتلاف ..

وإذا « بالهلباوى » هو خطيب الاجتماع ..

وإذا بى جالس أمامه على قيد خطوة واحدة . وإذا به يحتال فى كلامه ليهملنى عند مناسبة ذكرى ، ويتجاوز الإهمال إلى التعريض ..

وعلقت على الخطبة فى اليوم التالى ، ورآها فرصة سانحة لإرغامى باسم الائتلاف ..

وجاءتنى دعوة إلى بيت الأمة حيث تجتمع طائفة من أعضاء « الوفد » على رأسهم « مصطفى النحاس باشا » ..

ما الخبر؟ ..

الخبر – كما قالوا – أن مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نتلوه عليك ..

قلت : وما شأنى فى هذا البيان ؟

قالوا : بل الشأن شأنك .. لأن فحوى البيان أن الوفد لا يقر ما كتبت عن « الهلباوى بك » .

قلت : إنكم أحرار فيما تكتبون ، ولكنى سأرد لا محالة على هذا البيان ، وأقول لكم سلفًا إننى أنا المسئول عما أكتب ، ولم يعلم الناس قط أننى أكتب بإشارة من أحد .

ثم ذكرت لهم سابقة « سعد » مع اللورد « جورج لويد » حين حملت على اللورد من أجل زياراته للأقاليم ، وثار « اللورد » ثورته التى أوشكت أن تعصف بالبرلمان ، وأرسل إلى « سعد » من يقول له أن « اللورد » يعتقد أنه هو الموعز بتلك الحملة ، فقال سعد كلمته المأثورة : « إنها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » .. ولم يفاتحنى فى الأمر حتى انقضت الأزمة ، لكى لا أفهم أنه يقترح على الكف عن الكتابة فى هذا الموضوع !

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا أن صدور البيان من « الوفد » أمر لا محيص عنه ، فإن شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك .

قلت : « لن أسمعه . ولن أسكت عن الرد عليه .. » .

فى ذلك المساء زارنى « مكرم عبيد باشا » والمرحوم « صبرى أبو علم باشا » ، وسألانى : ماذا صنعت ؟

قلت : كتبت ردًّا على البيان سينشر فى عدد الغد من جريدة « مصر » – وكانت من الصحف الصباحية – وفيها كنت أكتب مقالاتى كل يوم ..

فحاولا وقف المقال ..

فقلت لهما : إذا كنت لا أستطيع أن أقنعكم بوقف بيانكم ، فلن تستطيعوا إقناعى بوقف المقال . . .

ثم قلت لهما : إننى أملك أن أنشره فى غير الصحيفة الوفدية إذا حيل بينى وبين نشره فيها .

وكان قد جاءنى فعلاً من يعرض علىّ العروض الطوال العراض لأعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة قال « مكرم باشا » : إننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك .. أما وأنت مصرّ على نشره فاقبل منا رجاء آخر .

قلت : ما هو؟

قالا : أن يخلو المقال من الملام الشديد .

قلت : إننى إذا ذكرت الحقائق كما حصلت ، فلا حاجة بى إلى ملام شديد » .

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها و« الهلباوى بك » لا يقع لى فى طريق .

وحدثت فى خلال ذلك جفوة بينى وبين المرحوم « عبد القادر حمزة » لمناقشة دارت بينى وبينه حين كنت أكتب فى صحيفة « الجهاد » .

ثم زارنى يومًا بعد طول القطيعة ، وهو يقول لى : لقد مررت بدارك وأنا فى « مصر الجديدة » فحمدت هذه الفرصة وقلت لنفسى : فلتزره إن كان هو لا يزورنا .. فما رأيك ؟

قلت : إنه فضل لك سبقتنى به ، وعلىّ أن أشاركك فيه .

وزرته فى دار « البلاغ » – بعد يوم أو يومين – فإذا « بالطباوى بك » هناك ..

فكدت أهمُّ بالرجوع ..

بيد أن « الطباوى بك » كعادته هجّام لا يتردد ، فجذب يدى وبدأنى بالحديث .

ولقد خطر لى فى تلك اللحظة أن واقعنى معه آخر ما يذكره فى تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره وأسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : كنت و « الله » يا رجل أحب أن يكتب « الله » لى ثواب إخراجك من تلك الجماعة .. ولكنه فاتنى ، وأراك خارجًا منها على التسعين... ! .

وبعد حديث متشعب ، دعانى والأستاذ « عبد القادر » إلى قضاء سهرة فى منزله .. فاعتذرت ، وخرج معى حين انصرفت حتى افترقنا عند دار « محمد محمود باشا » رحمه « الله » .

ويظهر أن رغبته فى زيارتى له بقيت تساوره زمنًا حتى صدرت صحيفة « روز اليوسف » اليومية وواليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعًا إلى قضاء السهرة عنده ، وذهبنا إليه مع السيدة « روز اليوسف » والدكتور « محمود عزمى » ، وكانت فى الحق من أمتع السهرات ، لأن الرجل محدث ظريف لا يمله المستمع إليه .

ولقد كانت أحاديثه فى تلك الليلة أكثر من أن تذكر ، إلا أننى أذكر من طرائف السهرة أن السيدة « روز اليوسف » كانت تخاطب قرينته وهى تظن أنها زوجة ابنه ، لبعد الفارق بينها وبين زوجها فى السن .. ولم تزل على ظنها حتى نبهها إلى خطئها بنكتة من نكاته التى تناسب المقام ..

نابغة من نوابغ عصره لا مراء .. كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التى أقلقته وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار .

جرجى زيدان

جرجى زيدان

كنت حوالى سنة ١٩٠٥ أعمل فى دواوين الأقاليم : « قنا » ثم « الزقازيق » ..

وكنت أزور القاهرة مرة كل أسبوعين ، أو كل شهر ، عندما كنت أعمل فى « الزقازيق » ..

أزورها لغرضين فى وقت واحد : أن أشهد التمثيل بفرقة « سلامة حجازى » ، وأن أبحث عن الكتب التى لا تصل مع الباعة المتجولين إلى الأقاليم ..

وفى مرة من هذه المرات ، قصدت إلى حى الفجالة لأسأل عن كتاب ما – أى كتاب – فى فلسفة الجمال ..

ولم أكن أعرف باسم الكتاب الذى أبحث عنه لأنه – كما ظهر لى بعد ذلك – لم يوجد من قبل باللغة العربية ، ولم يوجد إلى اليوم . وإنما كنت أتصفح فصول الأديب الخطيب الإنجليزى « إدمون بيرك » عن الجليل والجميل ، فخطر لى أن مثل هذا المبحث لابد أن يكون مطروقًا باللغة العربية ، وكان اعتقادى فى كتابنا المحدثين منذ أواسط القرن التاسع عشر كاعتقاد أجدادنا فى الأوائل إذ يقولون : ما ترك الأول شيئًا للآخر .. فإذا كانت اللغة الإنجليزية قد اشتملت على بحث فى فلسفة الجليل والجميل ، فأكبر الظن أن كتابنا المترجمين لم تفتهم ترجمة بحث من هذه البحوث ..

ودخلت المكتبة فوجدت على شمال المنضدة الممدة لعرض الكتب رجلين يجلسان على كرسيين متجاورين : أحدهما مطربش والآخر معمم ، وطرق مسمعى اسم السيد « توفيق » و« صهاريج اللؤلؤ » ، فسمعت الرجل المطربش يقول لمحادثه المعمم : إن السيد « توفيق » قد عاد بالنثر العربى خمسمائة سنة إلى الوراء .

وسألت البائع : هل يوجد عندكم كتاب فى فلسفة الجمال ؟

قال مستغربًا : فلسفة ماذا ؟

فأعدت قولى بلهجة التوكيد : فلسفة الجمال !

والتفت الرجل المطربش إلى هذا الحوار ، فنظر نظرة استفهام إلى البائع ، فأجابه هذا :

– إن الأفندى يسأل عن كتاب فى فلسفة الجمال !

فتمهل الرجل المطربش ، ثم قال : ما أظن كتابًا فى هذا الموضوع قد ألف باللغة العربية ، ثم سألنى هل رأيت الكتاب المطلوب وعرفت اسمه ، أو اسم مؤلفه !

قلت : كلا .. ولكنى رأيت شيئًا فى بحث الجليل والجميل بالإنجليزية فخطر لى أن البحث مطروق بلغتنا ..

قال فى تؤدة وهو يبتسم : ينبغى حقًا ، ولكنه لم يطرق فى كتب مستقلة . ولا يزيد ما كتب عنه على بعض الإشارات المتفرقة فى المجلات .

علمت من البائع أن الرجلين المتحادثين هما : جرجى زيدان صاحب « الهلال » ، و« أبو بكر لطفى المنفلوطى » أخو « مصطفى لطفى المنفلوطى » الكاتب المعروف .. و« أبو بكر » نفسه كاتب لم يشتهر شهرة أخيه ؛ وهو الذى كان يكتب بعد ذلك بسنوات فى جمعية « مصر الفتاة » مقالات يحكى بها مقالات أخيه فى « المؤيد » بأسلوب كأسلوب « صهاريج اللؤلؤ » فى التفخيم والإغراب .

ولا أزال أذكر صورة « جرجى زيدان » كما رأيته فى ذلك اليوم : رجلاً بسيط المظهر بعيدًا عن كل تكلف فى زيه وجلسته وحديثه : يتكلم فى الأدب واللاغة والأحاديث العامة بأناة العالم المحقق ، ولكن بسهولة المتحدث المفيد ... كأنه يقول ما يقوله للتعلم دون أن يبدو عليه مظهر المدرس فى حصة التدريس ، ولا أذكر أننى رأيت من أبناء عصره كاتبًا بمثل شهرته ومكانته ومثل هذه البساطة فى المظهر والحركة والحديث ، وقد رأيته بعد سنوات فى داره وفى ساعات فراغه فلم أجد بين مظهره وهو بعيد من الناس ومظهره وهو فى المكتبة العامة أقل خلاف .

* * *

وقد طبعت أول ما طبعت من كتبى بمطبعة « الهلال » ، وهما كتاب « خلاصة اليومية » ، ثم « رسالة الإنسان الثانى عن المرأة » وتاريخ طبعها كما هو مكتوب عليها (سنة ١٩١٢) .

ولهذه المناسبة كنت أرى « جرجى زيدان » أحيانًا فى مكتبة « الهلال » وأحيانًا أخرى فى مطبعة الهلال ، فإن لم يكن فى المطبعة ووجب سؤاله عن شأن من شئون الطبع فالدار التى يسكنها غير بعيدة من دار المطبعة ، والاستئذان بالتليفون قبل الزيارة لم يكن من مألوفات ذلك الزمن ، ولم يكن شيوع التيلفون بين المكاتب والمنازل كشيوعه فى هذه الأيام ، وإنما كان

طالب الزيارة يطرق الباب ويسأل عن صاحب الدار : أهو حاضر ؟ وهل يمكن لقاؤه ؟ .. وغالبًا ما يجاب بغير حاجة إلى موعد آخر محدود .

وكان العمل مقسمًا بين الإخوة الثلاثة : « جرجى » للمجلة و« مترى » للمطبعة ، و« إبراهيم » للمكتبة ، وليس بين المطبعة ومسكن صاحب الهلال غير خطوات قلائل .. أما المكتبة فقد كانت بينها وبين المطبعة مسيرة دقائق معدودات ..

وأحسب أن الأمر لم يدع إلى مقابلتى إياه بداره أكثر من مرة واحدة سألته فيها عن رأيه فى فلسفة التفاؤل والتشاؤم ، وعلمت فيما عدا هذه المقابلة – عرضًا – مبلغ عناية الرجل بالاطلاع على موضوعات العلوم من شتى المباحث والمطالب ، وإن لم تكن لزامًا من موضوعات النشر بمجلة « الهلال » .

سألته : أيهما أصح وأصوب ، نظرة المتفائل أو نظرة المتشائم ؟

وربما كان السؤال : أى الفلسفتين أصدق ، فلسفة التشاؤم أو فلسفة التفاؤل ؟

لست أذكر نص السؤال بكلماته ، ولكنى أذكر موضوعه العام لأننى كنت مشغولاً فى كل مطالعة وكل نظرة إلى مسائل الأدب والحياة ، وفى كلا الكتابين اللذين طبعتهما بمطبعة « الهلال » إشارة إلى الإمامين المتشائمين : « أبى العلاء » ، و« شوبنهور » ، وهما متلازمان فى ذهن كل قارئ عربى يسمع بالتشاؤم فى الثقافة الأوربية ..

ففى خلاصة اليومية أقول بعنوان القول والقائل : .. « انظر إلى ما قيل لا إلى من قال – قاعدة لا يصح إطلاقها فى كل حالة – فالكلمة تختلف معانيها باختلاف قائليها ، فإن كلمة مثل قول المعرى :

تعب كلها الحياة فما أعـ   جب إلا من راغب فى ازدياد

يؤخذ منها ما لا يؤخذ مما نسمعه فى كل حين بين عامة الناس من التذمر من الحياة وتمنى الخلاص منها .. فإننا نثق بأن المعرى درس الأمور الجوهرية فى الحياة ودرس الشئون التى تكون منها عذبة أو مرة ، نكدًا أو رغدًا ، ولم يسبر منها أولئك العامة إلا ما يقع لهم من الأمور التى لا تكفى للحكم على ماهية الحياة » .

وفى « رسالة الإنسان الثانى » بعنوان « عصر المرأة » أقول :

« وقفت على آراء فى المرأة للفيلسوف الألمانى « آرثر شوبنهور » ، فأعجبنى حذق الرجل وجرأته على المجاهرة بأقوال يعد قائلها فى أوربا خلوًا من التهذيب وسلامة الذوق ، وإن كنت

أراه قد غلا فى مذهبه إلى حد ربما كان الدافع به إليه غلو المدنية العصرية فى نظرها إلى المرأة ورعايتها إياها » .

وقد سألت صاحب الهلال فى هذا الموضوع لأننى انتظرت أن أعرف الرأى الراجح من تجاربه كما أعرفه من اطلاعه ودرسه .. فسمعت منه الجواب المفيد عن الأمرين .

قال لى فى بساطة الرجل الذى يتحدث عن الجو أو أحاديث السمر العارض :

« إننا نعرف من التشاؤم مزاج صاحبه كما نعرف ذلك من التفاؤل ، وقد يكون رأيهما واحدًا فى حقيقة من الحقائق العملية ، أو الفكرية . ولكن هذا يجعله سببًا للرضا والآخر يجعله سببًا للسخط على حسب مزاجه .. فليست المسألة معهما مسألة صحة أو بطلان ، ولكنها مسألة التأثر على حسب المزاج .

وأحسب أنه قال أيضًا : إننا نترك البحث عن الأصح ونبحث عن الأصلح ، فنرى أن التفاؤل أصلح للعمل فى الحياة والنجاح فيها .. لأنه أصلح لاحتمال الشدة وأصلح للأمل فى النتيجة .

وأحسن ما حسن عندى من سمت الرجل ، ومن بساطته فى حديثه وبساطته فى كتابته — أنه لم يتخذ من قواعد العلم كتافًا لعقله يحجر عليه ويحرجه إحراج الموسوس الذى يكرر الواقعة مرة بعد مرة ليستوثق من صحتها وضبطها من جميع نواحيها وأطرافها ، ثم يرى أنها هى العلم وكل ما عداها فليس من العلم فى شىء .

وكذلك لم يتخذ من قواعد العلم كساء مزركشًا يخشى عليه اللابس أن تنكسر قصبة فيه إذا طاوع عقله فى الحركة بعض المطاوعة ، ولم يتخشب مع الكساء المزركش ، على سنة الوقار أو على سنة الجمود ..

لقد كان على اطلاع واسع فى العلوم التجريبية كاطلاعه على بحوث التاريخ والاجتماع ، ولكنه كان فى سماحة الفكر وسهولة النظر بحيث يحس كما يفهم أن العقل قد يكون « علميا » وهو يخوض فى كلام لم يقرره العلم ولم يقرر نقيضه كذلك .

ولهذا كان « جرجى زيدان » يبيح لفكره أن ينظر فى « علم الفراسة الحديث » ، وليس هو من العلوم التى فرغت التجربة من قوانينها كما فرغت — مثلاً — من قوانين الحركة .

وكان يبيح لفكره أن ينظر فى أصول اللغات وأصول الكلمات وأصول القواعد اللغوية دون أن يكون للعلم حكم قاطع فى كل أصل من تلك الأصول .

فإن لم يكن ما يقوله علمًا مصبوبًا فى قالبه الأخير ، فهو — بلا شك — مادة علمية يجب أن تهيأ لقالبها على شكل من الأشكال . ويمتنع علمًا أن تترك بغير التفات إليها . فإن عمل من فى تشكيل المادة قبل ثباتها على شكل من الأشكال أوجب من صب القوالب على شكل الأخير .. وأوجب من ذلك ألا يكون « الشكل الأخير » هذا هو كلمة الختام ، وهو حكم الذى لا يقبل النقض والتنقيح .

وقد كتب « جرجى زيدان » فى كل مسألة من مسائل عصره الاجتماعية والفلسفية والأدبية ، فكان فى كل منها بسيطًا تلك البساطة التى عهدناها منه وهو يتكلم عن « أسلوب البكرى » أو عن كتاب فلسفة الجمال ، أو عن فلسفة التفاؤل والتشاؤم ، ولكنه قال فيها جميعًا رأيه الذى لم يناقضه العلم ولم يأت بما هو أثبت منه على اختلاف النظر فى الأمور .

ولسنا نحسب أن تناول الدراسات المختلفة بمثل هذه البساطة مسموح به لكل صاحب قلم مشتغل بالبحث والتفكير ..

إنما يسمح به — فى غير حاجة إلى الرخصة من أحد — للعقل الذى يستمد بساطته من مصدر واحد : وهو مصدر القوة التى هى أكبر من قيود البحث ومراسم الدراسة . وهى فى طمأنينتها إلى قدرتها على سبك القوالب وصهر المادة التى تملؤها تعالج المادة فى دور التشكيل كما تعالجها فى قالبها الأخير .



فـــــرح أنطـــــون

فـــرح أنطـــون

□ مضت عدة سنوات على احتجاب ذلك الطيف الذى كان كثيرًا ما يُرى فى هذه العاصمة غاديًا أو رائحًا فى خطوة وئيدة وعزلة بعيدة، كأنما يسرى من حيث لا يعلم الناس إلى حيث لا يعلمون، ذاهب الطرف أنى سار كالعابر من عالم لا يذكره إلى عالم لا يرجوه غير مشغول بأمر الطريق .. على وجهه سماحة تظللها سحابة من أسف شجىّ ولوعة مخامرة، وفى عينيه حيرة قرت من فرط القلق فعادت فى رُؤى العين طمأنينة راضية، وعلى شفتيه صمت مصرّ كظيم يصف لك من صاحبه هاتفًا دعا ثم ألحف داعيًا مناديًا حتى ملَّ وفتر، فلم يستمع إليه مصيخ ولم يجب إلى صوته صدى، فأطبق شفتيه إطباقة من لا ينوى اقترارًا ولا يهم بصيحة ولو علقت النار برادائه.

.. مضت سنوات على احتجاب ذلك الطيف واحتباس حركته، فكان مغيبه فى نفوس المحبين والعارفين رزءًا فادحًا وألمًا بارحًا ونزعة شديدة وشقة بعيدة، وكان فى تصور الخيال خطوة واحدة كخطوة الطيف الهائم جعلته لواعظ الأصوات فأوى إلى ظلمته الساكنة ...

مضت سنوات على وفاة «فرح أنطون» ..

ولقد رأيت «فرحًا» مرارًا، ولكنى لم أكلمه إلا مرتين أو ثلاثًا. وكانت مرة منها فى مكتب «الأهالى» إذ كان يعمل فى تحريرها، فتلاقينا فى غرفة الأستاذ صاحبها وتعارفنا على بابه، فشعرت من نبرة صوته وفاق ما رأيت من خشوع نظراته، وأحسست موضع دائه فقلت له مؤانسًا - وكان كلامنا على النهضة السياسية - أنك يا «فرح أفندى» طليعة مبكرة من طلائع هذه النهضة العامة، وسيعرف لك المستقبل من عملك ما لم يعرفه الحاضر، وستكون حين تفترق الطريقان خيرًا مما كانت فى هذا الملتقى المضطرب. فأومأ برأسه إيماءة شاكرة وحرك يده حركة فاترة وقال: «إنه يا أخى تيار جارف.. فماذا يحفل المستقبل بالحاضر، وماذا يبالى السائر الغد بمن كان قبله فى مفترق الطرق؟!»، فبدا لى أن الرجل يئس من الحياة، وأنه جرب كل سهامه حتى ساء ظنه بالسهام والهدف. على أنه كان إلى يوم وفاته ممسكًا بالقوس لا يحول بصره عن الهدف الذى خدعه، وذلك ديدن غالب فى النفوس الراجية. وهو كهامة الأمل تتردد حتى تفيض روحه ..

ما يئس ذلك الفاضل الأبيُّ هذا اليأس إلا لأنه أبعد منزع الرجاء ، فلم يكن غريبًا أن يثني حسرة المضيع النبت عن غايته .. لم يكن ذلك غريبًا ولو أنه كان في بلاد الغرب الناشط مشئوه ، وفي ذلك الميدان الممهد جهاده . فكيف به وقد نشأ في هذا الشرق المسرف الذي يمشي بين الأمم في إطمار الفاقة ، ويمزق ما يفضي عليه من نسج العقول تمزيق البذخ والغنى !! إلا أننا نقول : من أين للشرق المسكين أن يفعل غير ما فعله ؟ ومن أين لعظمائه المغبونين أن يفعلوا غير ما يفعلون ؟ ! .. كفاهم عزاء أنهم أضخم من عظماء الغرب واجبًا وأجلُّ منهم قربانًا ، فإن يكن أمدهم بعد الأين والنصب قريبًا وأثرهم بعد الجهاد ضئيلاً قليلاً فلتكن سلواهم – لا بل فخرهم – أن واجبهم ثقيل وأن سفرهم على قرب الأمد سفر طويل ..

و« فرح أنطون » : كسائر الكتاب الذين يستوحون قلوبهم ويقطرون على القرطاس من دمائهم ، مفكر تؤثر في تفكيره عوامل الحياة وتنبث في نفسه ألوان الجو الأدبي الذي يحيط به . ولقد فاتني أن أحيط بكل ما كتب ذلك الأديب الفقيد ، ولكن الذي قرأته من كتبه ناطق بحياة صاحبه ، يدل على أنه من وحي ذهن لا تمر به مذاهب الفكر الشائعة في زمانه عبثًا ولا تعارض حوله تيارات الحياة بغير جدوى ، ولعل أصوب ما يقال في كتاباته أنها خير دليل على اتجاه تيار الفكر في أيامه وبخاصة في نشأته الأولى ، أي في عهد الصبا المتفتح للدنيا ، المقبل على كل جديد ، الذي قل أن يوصد بابه في وجه طارق من طوارق الأفكار الجميلة ، أو يضن بموضع في نفسه على ضيوف الأحلام اللاعبة والخواطر الوسيمة .

نشأ « فرح أنطون » في سورية ، وكانت نشأته في أواسط النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فبقي في حياته الفكرية أثر واضح من وطنه المكاني ووطنه الزماني . فأما وطنه المكاني فظاهر الأثر في حملته على رجال الدين وشغفه بالمؤلفات التي تنحى عليهم أو تخفض من دعواهم وتقوض من دعائم سلطانهم .. فمن ذلك إكثاره من الكتابة عن « تلستوي » وتلخيصه لكتاب « رينان » في « تاريخ المسيح » واشتغاله بالمقارنة بين « الدين والعلم والمال » وبين ما يتنازعه سدنة هذه الأرباب الثلاثة من سيادة على الضمائر والأجسام . ومن ذلك دعوته إلى الفصل بين الكنيسة والحكومة ، ورأيه الذي ارتآه في كلامه على ابن رشد ذاهبًا فيه إلى انتقاد الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية في الخلافة الإسلامية ، وهو الرأي الذي كان من أسباب فشله وكساد مجلته « الجامعة » .

ولعل سائلاً يسأل : ولماذا يكون التحدي البين للنفوذ الديني خاصة من خواص النشأة السورية ؟ .. فأقول لهذا السائل : إنني كنت كذلك أعجب لهذا الأمر وأستغرب الغيظ

الشديد الذي تتوهج به كتابة السوريين الأحرار حين يحملون على النفوذ الديني في بلادهم ويصفون تغلغله في شئون قومهم .. وكنت لا أعرف لذلك علة حتى تذكرت القوة التي يقبض على زمامها رجال الدين في سورية ، فخطر لي أنه لا عجب ! لأن رجال الدين هناك ربما كانوا أقوى الطوائف الدينية في العالم ، وأوسع رعاة الكنائس إشرافًا على حياة أتباعهم .. فقد جمعوا بين الزعامة في الدين والزعامة في السياسة والزعامة في العلم .

وناهيك بها من سطوة هائلة تغري بالتحدي وتغري بالمناجزة ! أما سبب اجتماع هذه السطوة لهم ، فللحوادث التاريخية التي حدثت عقب غارات الصليبيين وعقب الاتفاق على الامتيازات الأجنبية دخل عظيم فيه . وخلاصته القريبة أن طائفة رجال الدين كانت في البلاد السورية – ولا تزال – معقد آمال الشعب المسيحي في الحرية السياسية ، لما بينها وبين الحكومة الفرنسية والحكومات الأوربية الأخرى من صلة معروفة ، وأنها كانت ولا تزال قائدة الأفكار وقدوة المسترشدين لأنها منشئة المدارس وطابعة الكتب ومربية الصغار والكبار . وإذا اجتمعت لفئة واحدة أزمة السطوة الروحية من كل جانب – كما اجتمعت لفئة القسيسين السوريين – فغير عجيب ألا يرضى عنها ، وأن يتبرم بها ، فريق الشبان المتعطشين إلى المعرفة الحرة ، التواقين إلى الآراء المتجددة من أصحاب النفوس الأبية والعقول الطليقة والأخلاق المعتقة من أسر التقاليد والعادات .. وغير عجيب أن يجعلوا تحديها والإغراء بها هجيراهم وشغلهم الشاغل في كل ما يدرسون ويكتبون . وهذا ما تراه في كتابات « فرح أنطون » مع شيء من الرفق والاعتدال ، وتراه على تفاوت في الجرأة وغلو في اللهجة – في كتابات الأدباء السوريين المهاجرين إلى الأقطار الأمريكية .

أما وطنه الزماني ، فأثره ظاهر في الطريقة الكتابية التي تبعها منذ عهده الأول ولم يغيرها إلا قليلاً في عهده الأخير ونعني طريقة الكُتَّاب القائلين بالعودة إلى الطبيعة .. وهي كما لا يخفى الطريقة التي كانت كتبها وآراؤها ميسورة للقارئ الشرقي في ذلك العصر حين يأخذ في مطالعة الآداب الفرنسية ، ولاسيما الخفيف القريب المتناول منها : فلما ترعرع « فرح » واشتاقت نفسه إلى ما عند الغربيين من زاد الفكر ولذة النفس ، ألفى بين يديه كتب « روسو » و« برناردين » وغيرهما تدعوه إلى موائدها السهلة الهنيئة .. فأقبل عليها وفرح بها وتملكت لبه وأصابت من فطرته الوادعة الكريمة موقعًا حسنًا .. وحق لها أن تصيب ذلك الموقع لأنها كانت في عصرها أصدق ما يعبر به عن سآمة النفوس من آفات المدنية وأدرانها وجور الطغاة من ساسة القرن الثامن عشر ، ويخيل إليك أن أديبنا كان يكتب بقلم من أقلام أولئك الفلاسفة والأدباء الذين تعشقهم وأغرم بآرائهم لقرب مأخذه من مأخذهم ومشاكلته إياهم في أسلوبهم وطلاوة

عباراتهم . ولا أقول أنه كان يقلدهم أو يترسم خطاهم ، فإنى أجله عن ذلك ولا أضعه دون « برناردين » مثلاً فى منزلة أوصفة ، ولكنى أقول أنه تراقق فى الفطرة وتطابق فى النظرة يسلكه فى مضمارهم ويتقدم به إلى صف الكثيرين منهم ..

على أنني لا أحسبه استمر طويلاً على الإيمان بعقيدة العود إلى الطبيعة وابتغاء السلام فى حظيرتها ، إذ هى عقيدة لا تثبت على تجارب الأيام واختبار حقائقها ولا تبهر النظر فى ضوء المذاهب المستحدثة بعد « روسو » وتلاميذه . ولا أشك فى أنه اجتواها وأعرض عنها بعدما زاول من حقائق الدنيا ونظر فى « داروِن » و« نيتشه » .. فإن الاطلاع على « داروِن » و« نيتشه » ومن حذا حذوهما ينشئ للنفس إحساساً جديداً « بمسئوليات » الحياة ، يبغض من قدامة الرجعة إلى الطبيعة ، ويجعل النكوص من المعترك وصمة وعاراً . هذا فضلاً عن أن الطبيعة التى يصورانها ليست بالملاذ الأنيس ولا بالملجأ الأمين من شرور المدنية وأوضار المجتمع .. إنما هى والمدنية سواء فى حكم تنازع البقاء وبطش الأقوياء بالضعفاء والأشرار بالأتقياء .

وفى مناجاة الكاتب لشلال « نياجرا » وقفة تريك العابد يمسح صنمه ويؤنبه ويسبح باسمه ويذكر له قلة غنائه عنه .. تريك « فرحاً » يحب الطبيعة وينكرها ويلومها ويحذرها ويقول فيها ما يقوله الكافر الذى يود لو يؤمن والمؤمن الذى شق عليه أن يكفر .. ففى مزاجه حنين إلى عقيدته القديمة فيها ، وفى عقله نبو عنها وسوء ظن بها . ومن هذا النزاع بين مزاجه وعقله استمل مقالاً من غرر ما يقرأ على نمطه فى آدابنا الحديثة ، وبث زبدة حياته وصفوة تجاربه فى بضع صفحات لا يمل تكرارها .. وعندى أنها حسب كاتب من أثر فى عالم الكتابة إن لم يكن له قط أثر سواها ..

كان « فرح أنطون » كاتباً على استعداد للرواية والقصص ، وكانت ملكته القاصة تظهر أحياناً فى مقالاته الأدبية والسياسية كما تظهر فى رواياته وحكاياته .. فمال به هذا الاستعداد إلى وضع الروايات فأحسن وارتفع فى روايته « أورشليم الجديدة » ثم تقلبت به صروف ، وألمت به محن ، وتجرع من مرارة الخيبة مراراً .

.. وطلب إليه وهو بين اليأس والرجاء أن يترجم أو يكتب للمسرح ، فلبى وبدأ بداءة حسنة ، ولكنه لم يخفق بغيته ، ولم يصنع شيئاً يليق به أو يضاف إلى محاسنه .. وقد حضرت إحدى رواياته التلحينية ، فما أطقت الصبر على أكثر من فصل منها .. ولم أر فى موضوعها ، ولا فى فنها ، ولا فى غنائها ، ولا فى ممثليها ، ولا فى الجمهور الذى يسمعها ، أثراً لـ « فرح

أنطون » الذى نعرفه ، ولا علامة على ملكته السامية ومكانته الأدبية ، وهى زلة نأسف لها ونعتذر بها . ولكن هل هو أول من يلام على اضطراره إلى هجر ملكته والخروج عن جادته ؟ ألم يكن يربح فى الرواية الواحدة من هذه الروايات ما يعادل ربحه من جميع مؤلفاته ومترجماته الصالحة ؟ .. فمن المسئول عن ذلك ؟ .. أهو أم الجمهور الأحمق المأفون ؟ ! وماذا كان يصنع « فرح أنطون » إن لم يؤلف تلك الروايات ؟ ! .. ألا فلنعلم أننا إذا كنا لا نختار للأديب النابغ المريض المنقطع الموارد إلا أن يموت بيننا على « الكتمان » جوعاً ، فقد يحق لذلك الأديب أن يختار لنفسه خاتمة أسلم وأكرم من تلك ..



« مَي »

رجال حول "مي"

في سجل الأدب «الخاص» من عصر النهضة العربية الحديثة مكان فسيح لصفحات جميلة لا تزال مطوية إلى اليوم، وإن كانت منها ما يهم أن يطلع إلى عالم النور من طيات الخفاء..

ونعني بالأدب الخاص، ذلك الأدب الذي لم يقصد للنشر وإن كان فيه ما يشوق الاطلاع عليه كثيرين غير أصحابه في حياتهم الخصوصية. وعلى رأس هذه الصفحات صفحة «الندوة» التي كانت تعقدها نابغة جيلها «ماري زيادة» وقد اختارت لتوقيعها الأدبي اسم «مي» من الحرفين الأول والأخير في اسمها بدفتر الميلاد، وتأتي هذه الصفحة على رأس أمثالها بين صفحات هذا الأدب الخاص. لمكان «مي» من نهضة الأدب ونهضة المرأة في آن.

لو جُمعت الأحاديث التي دارت في ندوة «مي» لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة «العقد الفريد» ومكتبة «الأغاني» في الثقافتين الأندلسية والعباسية.

ولو جُمعت الرسائل التي كتبتها «مي» أو كُتبت إليها من نوع هذا الأدب الخاص لكانت ذخيرة لا نظير لها في آدابنا العربية، وربما قلّ نظيرها عند الأمم الأوربية التي تصدرت فيها المرأة مجالس الأزياء الأدبية والأزياء الاجتماعية، إلا أن يكون ذلك في عصر «الصالونات» أو عصر النهضة منذ القرن السابع عشر إلى ما قبل القرن العشرين.

أذكر هذا بعد قراءة الرسائل التي نشرتها مجلة «الهلال» للعلامة المفضال أستاذ الجيل «أحمد لطفي السيد»، فإن هذه الرسائل تعرفنا بصورة «للطفي السيد» لا نعرفها من كتابته في الجريدة ولا في كتابته في تراجم «أرسطو»، ولا في كتابته بدواوين الوزارة، وفيها من طابع الشخصية، وطابع الندوة، وطابع العصر ما نحسبه خاصاً إن شئت. ونحسبه ملكاً عاماً من ناحية الفن لقرّاء الأدب الذي قترن باسم «لطفي السيد»، واسم «مي»، وأسماء كتاب الندوة وأدبائها الكثيرين.

وعند «مي» – على ما نعلم – أنماط عديدة من الرسائل التي تسلكت في عداد هذا الأدب الخاص، ولا ندري أين موضعها الآن، وإن كنا نخشى أن تكون قد أحرقتها أو ردتها إلى كتّابها تسترد منهم كتبها إليهم، كما صنعت في غمرة من غمرات الحزن، غلبتها على صبرها بعد وفاة والديها..

رجال حول "مى"

□ فى سجل الأدب «الخاص» من عصر النهضة العربية الحديثة مكان فسيح لصفحات جميلة لا تزال مطوية إلى اليوم، وإن كانت منها ما يهم أن يطلع إلى عالم النور من طيات الخفاء..

ونعنى بالأدب الخاص، ذلك الأدب الذى لم يقصد للنشر وإن كان فيه ما يشوق الاطلاع عليه كثيرين غير أصحابه فى حياتهم الخصوصية. وعلى رأس هذه الصفحات صفحة «الندوة» التى كانت تعقدها نابغة جيلها «مارى زيادة»، وقد اختارت لتوقيعها الأدبى اسم «مى» من الحرفين الأول والأخير فى اسمها بدفتر الميلاد، وتأتى هذه الصفحة على رأس أمثالها بين صفحات هذا الأدب الخاص، لمكان «مى» من نهضة الأدب ونهضة المرأة فى آن.

لو جُمعت الأحاديث التى دارت فى ندوة «مى» لتألفت منها مكتبة عصرية تقابل مكتبة «العقد الفريد» ومكتبة «الأغانى» فى الثقافتين الأندلسية والعباسية.

ولو جُمعت الرسائل التى كتبتها «مى» أو كُتبت إليها من نوع هذا الأدب الخاص تمت بها ذخيرة لا نظير لها فى آدابنا العربية، وربما قلّ نظيرها عند الأمم الأوربية التى تصدرت فيها المرأة مجالس الأزياء الأدبية والأزياء الاجتماعية، إلا أن يكون ذلك فى عصر «الصالونات» أو عصر النهضة منذ القرن السابع عشر إلى ما قبل القرن العشرين.

أذكر هذا بعد قراءة الرسائل التى نشرتها مجلة «الهلال» للعلامة المفضال أستاذ الجيل «أحمد لطفى السيد»، فإن هذه الرسائل تعرفنا بصورة «للطفى السيد» لا نعرفها من كتابته فى الجريدة ولا فى كتابه فى تراجم «أرسطو»، ولا فى كتابته بدواوين الوزارة، رغماً من طابع الشخصية، وطابع الندوة، وطابع العصر ما تحسبه خاصاً إن شئت، وتحسبه ملكاً عاماً، من ناحية الفن، لقرّاء الأدب الذى اقترن باسم «لطفى السيد»، واسم «مى»، وأسماء كتاب الندوة وأدبائها الكثيرين.

وعند «مى» - على ما نعلم - أنماط عديدة من الرسائل التى تسللت فى عداد هذا الأدب الخاص، ولا ندرى أين موضعها الآن، وإن كنا نخشى أن تكون قد أحرقتها أو ردتها إلى كتّابها لتسترد منهم كتبها إليهم، كما صنعت فى غمرة من غمرات الحزن، غلبتها على صبرها بعد وفاة والديها..

ولكن الذى بقى منها فى موضعه أو عند أصحابه، يساوى الجهد الجميل الذى يبذل فى جمعه، وإنقاذه، وتسليمه لأصحاب الحق الأخير فيه، وهم قرّاء الآداب ومحبو الفنون..

كم كان زوّار تلك الندوة العالية؟ وكم كان كتّاب الرسائل منها وإليها؟

إننى أعدُّ ممن رأيتهم غير مرة نحو الثلاثين، أذكرهم كما ترد أسماؤهم على القلم فى هذه الساعة: «لطفى السيد»، «عبد العزيز فهمى»، «شبلى شميل»، «سليمان البستانى»، «أحمد شوقى»، «خليل مطران»، «أنطون الجميل»، «داود بركات»، «نجيب هواوينى»، «توفيق حبيب»، «توفيق اسكاروس»، «أمين واصف»، «مصطفى عبد الرازق»، «مصطفى صادق الرافعى»، «هدى شعراوى»، «إحسان القوصى»، «إدجار جلاد»، «سليم سركيس»، «يعقوب صروف»، «حافظ إبراهيم»، «إسماعيل صبرى»، «إدريس راغب»، «فؤاد صروف»، «عبد القادر حمزة»، «منصور فهمى»، «طه حسين»، «ملك حفنى ناصف»، «مجد الدين حفنى ناصف»، «عبد الستار الباسل»، ونخبة من هذا الطراز على اختلاف التشكيل ومع حفظ المقام، كما يقال فى هذا المقام.

وكل زائر من هذه النخبة كان حقاً له أن يزور الندوة فى موعدها فى أصيل يوم الثلاثاء، وكان يرى من حقه، أو واجبه، أن يعتذر لفوات موعده منها بعض الأيام، بل كان من حقه أن يكتب رسائل الاعتذار أو رسائل السؤال والتحية وإن لم يكن من مطمعه دائماً أن يتلقى الجواب..

أكُلُّ هؤلاء عشاق؟..

وعلى كل من هؤلاء ينبغى لـ «مى»، إذا أجابت، أن تجيب جواب المحبوبة التى تتقبل العشق ممن يدعيه؟

هذا هو الخاطر العاجل الذى يسبق إلى الوهم كلما ذكرت تحيات الرسائل، أو القصائد أحياناً، من غير واحد فى هذه الزمرة المختارة.

وهذا هو الخاطر الذى تصححه لمحة سريعة أيضاً، إلى طبيعة الندوة وطبيعة النخبة «العرفية» التى تناسبها، بل تستوجبها بقانون الشعر والفن، وإن لم نقل بقانون الجنتلمانية والفروسية!

فتاة جميلة أديبة، يزورها أدباء وشعراء وكتاب قصة وأصحاب ذوق فى جمال الكلمة وجمال الطلعة.

ولكن الذى بقى منها فى موضعه أو عند أصحابه ، يساوى الجهد الجميل الذى يبذل فى جمعه ، وإنقاذه ، وتسليمه لأصحاب الحق الأخير فيه ، وهم قرّاء الآداب ومحبو الفنون ..

كم كان زوّار تلك الندوة العالية ؟ وكم كان كتّاب الرسائل منها وإليها ؟

إننى أعدُّ ممن رأيتهم غير مرة نحو الثلاثين ، أذكرهم كما ترد أسماؤهم على القلم فى هذه الساعة : « لطفى السيد » ، « عبد العزيز فهمى » ، « شبلى شميل » ، « سليمان البستانى » ، « أحمد شوقى » ، « خليل مطران » ، « أنطون الجميل » ، « داود بركات » ، « نجيب هراوينى » ، « توفيق حبيب » ، « توفيق اسكاروس » ، « أمين واصف » ، « مصطفى عبد الرازق » ، « مصطفى صادق الرافعى » ، « هدى شعراوى » ، « إحسان القوصى » ، « إدجار جلاد » ، « سليم سركيس » ، « يعقوب صروف » ، « حافظ إبراهيم » ، « إسماعيل صبرى » ، « إدريس راغب » ، « فؤاد صروف » ، « عبد القادر حمزة » ، « منصور فهمى » ، « طه حسين » ، « ملك حفنى ناصف » ، « مجد الدين حفنى ناصف » ، « عبد الستار الباسل » ، ونخبة من هذا الطراز على اختلاف التشكيل ومع حفظ المقام ، كما يقال فى هذا المقام .

وكل زائر من هذه النخبة كان حقاً له أن يزور الندوة فى موعدها فى أصيل يوم الثلاثاء ، وكان يرى من حقه ، أو واجبه ، أن يعتذر لفوات موعده منها بعض الأيام ، بل كان من حقه أن يكتب رسائل الاعتذار أو رسائل السؤال والتحية وإن لم يكن من مطمعه دائماً أن يتلقى الجواب ..

أكُلُّ هؤلاء عشاق ؟ ..

وعلى كل من هؤلاء ينبغى لـ « مى » ، إذا أجابت ، أن تجيب جواب المحبوبة التى تقبل العشق ممن يدعيه ؟

هذا هو الخاطر العاجل الذى يسبق إلى الوهم كما ذكرت تحيات الرسائل ، أو القصائد أحياناً ، من غير واحد فى هذه الزمرة المختارة .

وهذا هو الخاطر الذى تصححه لمحة سريعة أيضاً ، إلى طبيعة الندوة وطبيعة التحية « العرفية » التى تناسبها ، بل تستوجبها بقانون الشعر والفن ، وإن لم نقل بقانون الجنتلمانية والفروسية !

فتاة جميلة أديبة ، يزورها أدباء وشعراء وكتاب نصة وأصحاب ذوق فى جمال الكلمة وجمال الطلعة .

إن فات أحداً من هؤلاء واجب التحية المناسبة للمقام ، فما هو بزائر
الزيارة ، ولو لم تكن زيارة عشق ومناجاة .

وإن فات « مى » أن تتقبل هذه التحيات ، أو وجب عليها – كما
الأقدمين – أن تصدها بالعبوس والغضب . فليست هى زيارة « ندوة » إذ
واحدة قد تنتهى كما تبتدئ عند باب الدار .

وهذا هو تأويل الرسائل على أسلوب لحن الماطلق ، أو العاطفة الفنية ،
وأكثر من زائر من نخبة هؤلاء الزوار .

ولكل منهم أسلوبه فى تعبيره داخل هذا الإطار من التحية .

« لطفى السيد » وأسلوب الجنتلمان الفيلسوف ..

و« عبد العزيز » وأسلوب الصمت الخجل ، كأنه الصبى فى مجلس ا

و« أنطون الجميل » وأسلوب بائع الجواهر فى معرض الهوانم ..

و« شبلى شميل » وأسلوب المصارع فى حلبة الفكر والشعور ..

و« خليل مطران » وأسلوب « موليير » على غير مسرح التمثيل ..

و« سليم سركيس » وأسلوب الدعابة للبيوتات فى صالونات من أشه

و« مصطفى صادق الرافعى » وأسلوب المفاجأة بالكتابة التى يغنى
السماع ..

و« إسماعيل صبرى » وأسلوب الشاعر الذى يعلم أن حق الغزل الص
حق الكتابة والتلميح ، وهو الذى كان يكتب الأبيات قبل يوم الزيارة

إن لم أمتع بمى ناظرىَّ غداً   لا كان صبحك يا

و« أحمد شوقى » وأسلوب الإيماء من بعيد ، وعليه تعليق الفيلسو
تتألف لجنة من لجان الحفل الثقافية . فيخرج « شوقى » من صمته
تكون « مى » سكرتيرة اللجنة ، وإلا فلا احتفال ..

ويدركه « لطفى السيد » فيسأل : أهذا اقتراح شعرى أو اقتراح

وانطلق ذات ليلة فى نوادره ومداعباته وأخباره لا يكاد يسكت أو يؤذن السامعين بالسكوت ، فهمست فى أذن الآنسة أقول : يحق للسيد « خليل » أن يعجبه كلامه كما يعجبنا ؛ فإنه محدث ظريف خبير بأفانين السمر .

وسمعت والدتها هذه الملاحظة الهامسة فابتسمت وقالت بصوت مسموع : إنه كأمه تماماً .. أمه مثله كلمة كلمة !

وقد كنت - كلما أزددت معرفة بـ « مى » وبحياتها فى ندوتها وفى بيتها - أشعر بحنان هؤلاء الأفاضل الأبويين نحوها ، فإنهم - ولا ريب - كانوا يقصدون التسرية عنها ، ويدركون من بواكير صباها أن فرط التزمت فى طويتها يجاوز حده المأمون ، وإنما يوشك أن تعانى كثيراً من عادة العزلة النفسية التى جنت عليها فى أخريات أيامها ، وأنها تغالب شجناً كميناً لانطوائها الشديد على ذاتها ، يخيل إلىّ أنه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق فى سليقتها الدينية .





أحمد لطفى السيد

أحمد لطفي السيد

١

كان فى فكره « أفلاطونيًا » بجميع معانى هذه الكلمة ، ومن معانيها « الأفلاطونية » التى هى فكرة بغير منفعة أو بغير داع من دواعى الأثرة والأنانية ، كالحب العذرى كما نفهم بالعربية ..

ومن معانيها ، وهو أقرب إلى ما تعنيه فى هذا المقال ، أن الرجل العام ينبغى أن يعيش للمصلحة العامة تطوعاً وحسبة بغير جزاء ، وألا يشتغل بخاصة أموره « الشخصية » لأن الدولة التى يتجرد لخدمتها هى التى تتكفل له بكل وسائل التفرغ لتلك الخدمة . وليس له بعد ذلك حق فى وقته الخاص لغير القيام بحقوقها ..

وهذا هو دستور الحكم الأفلاطونى كما شرحه الفيلسوف اليونانى فى كتابه الموسوم باسم « الجمهورية » .. وقد اشتهر فى العالم القديم والعالم الحديث باسم « جمهورية أفلاطون » .

ولقد كان « لطفى السيد » يعيش فعلاً على وفاق هذا الدستور ، وكان — من زمن بعيد — يعهد فى زراعة أرضه وتثميرها إلى بعض أقربائه ، ولا يتعرض لتفصيلات حسابها ، مكتفياً بما يقدمه وكيله عليها من حساب مجمل عن غلاتها ونفقاتها . وكانت طريقته فى تدبير نفقات البيت كطريقته فى تدبير حساب ضيعته ، وهى الضيعة التى أبى أن يملكها كلها حين أراد أبوه أن يختصه منها بخمسمائة فدان ، لا تدخل فى تقسيم الميراث بينه وبين إخوته . فأبى ذلك وأصر على الإباء ولم يقبل من الميراث غير حصته التى يستحقها مع سائر الورثة على سنة المساواة ..

يفكر للكون كله

طال حديث اللغة والمجمع يوماً حتى وصلنا إلى نادى « محمد على » . وكان النادى على مقربة من المجمع اللغوى ، إذ كان مقره بأول شارع قصر العينى ، فدعانى إلى إتمام الحديث فى مجلسه المختار بالنادى حيث كان يقضى أوقات الفراغ ويتناول أحياناً طعام الغداء أو العشاء .

وحضر إلى النادى صديقه الدكتور « بهى الدين بركات » ، فعلم منه عرضاً أنه ينوى السفر إلى عزبته لبعض أعمال زراعية تستدعى حضوره ، فسأله مصطنعاً الجد كعادته فى توجيه بعض الأسئلة التى يريد أن يستطرد منها إلى مناوشة من مناوشاته الفلسفية :

قال يخاطب الدكتور « بهى الدين » : وهل من حق « الرجل العام » أن يفرغ لخاصة شئونه ؟

ففهم الدكتور مقصده من هذه المقدمة التى تعودها منه – على ما يظهر – كما تعودها محدثوه ، وقال ما معناه :

– وهل العمل فى الأرض محرم فى شريعة الحكمة ؟

قال : أنا لم أقل هذا .

وأردت أن أشترك فى المناوشة فقلت : إنما هو سؤال ليس إلا ..

قال الدكتور « بهى الدين » : أهو سؤال برئ ؟

قال الأستاذ : أما أنه سؤال برئ فلا .. !

ومضى الدكتور « بهى الدين » يتحدث عن العمل الذى يسافر إلى العزبة من أجله ، ومنه مشروعات للتعاون والخدمة الاجتماعية لمصلحة الفلاحين .

فعاد الأستاذ يقول : أما هذا فرخص به للرجل العام ..

وقد كان أقدم زملائه وأصدقائه من أيام الدراسة الثانوية ، عبد العزيز فهمى باشا ، يداعبه كثيراً من هذه الناحية ، ويقول كلما خالفه فى رأى من آرائه الفلسفية أو اللغوية : إنك يا « لطفى » تفكر للكون كله ولا يعنيك أمر الزمن القريب ولا أمر هذه الخلائق الفانية .

وكان أمتع ألوان الحديث بين الرجلين الكبيرين تلك الأحاديث التى كانت تجرى بينهما فى السيارة أثناء الطريق من دار المجمع إلى « مصر الجديدة » ، حيث يقيمان وأقيم على مقربة منهما ، ويتفق كثيراً أن يدعوانى إلى صرف سيارتى ومصاحبتهما بعد انتهاء جلسات المجمع ، ولا سيما الجلسات التى يطرأ عليها بعض الخلاف بينى وبين « عبد العزيز باشا » فى مسائل اللغة أو الأدب .. وحدث ذلك كثيراً أيام المناقشة على كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وهو موضوع شغل صاحبنا القانونى الكبير يومئذ عدة شهور ، ولم يكن يطيق المعارضة فيه .

فقال لى مرة ، وقد أنس من الأستاذ « لطفى » شيئاً من الميل إلى ترجيح رأيى :

– « أوع تطلع فيها يا عقاد على طريقة أستاذنا « لطفى » .. إن « لطفى » ينظر إلى هذه الأمور التى نشتغل بها نظرة الأرباب .. قل له : ما رأيك إذا كتبت العربية غداً بالحروف الصينية ؟ يقل لك على الأثر : وه يجرى إيه » ؟

أحمد لطفى السيد

١

كان فى فكرته « أفلاطونيًا » بجميع معانى هذه الكلمة ، ومن معانيها « الأفلاطونية » التى هى فكرة بغير منفعة أو بغير داع من دواعى الأثرة والأنانية ، كالحب العذرى كما تفهم بالعربية ..

ومن معانيها ، وهو أقرب إلى ما نعنيه فى هذا المقال ، أن الرجل العام ينبغى أن يعيش للمصلحة العامة تطوعاً وحسبة بغير جزاء ، وألا يشتغل بخاصة أموره « الشخصية » لأن الدولة التى يتجرد لخدمتها هى التى تتكفل له بكل وسائل التفرغ لتلك الخدمة ، وليس له بعد ذلك حق فى وقته الخاص لغير القيام بحقوقها ..

وهذا هو دستور الحكم الأفلاطونى كما شرحه الفيلسوف اليونانى فى كتابه المرسوم باسم « الجمهورية » .. وقد اشتهر فى العالم القديم والعالم الحديث باسم « جمهورية أفلاطون » .

ولقد كان « لطفى السيد » يعيش فعلاً على وفاق هذا الدستور . وكان – من زمن بعيد – يعهد فى زراعة أرضه وتثميرها إلى بعض أقربائه . ولا يتعرض لتفصيلات حسابها ، مكتفياً بما يقدمه وكيله عليها من حساب مجمل عن غلاتها ونفقاتها . وكانت طريقته فى تدبير نفقات البيت كطريقته فى تدبير حساب ضيعته . وهى الضيعة التى أبى أن يملكها كلها حين أراد أبوه أن يختصه منها بخمسمائة فدان ، لا تدخل فى تقسيم الميراث بينه وبين إخوته ، فأبى ذلك وأصر على الإباء ولم يقبل من الميراث غير حصته التى يستحقها مع سائر الورثة على سنة الأسرة ..

يفكر للكون كله

طال حديث اللغة والمجمع يوماً حتى وصلنا إلى نادى « محمد على » ، وكان النادى على مقربة من المجمع اللغوى ، إذ كان مقره بأول شارع قصر العينى ، فدعانى إلى إتمام الحديث فى مجلسه المختار بالنادى حيث كان يقضى أوقات الفراغ ويتناول أحياناً طعام الغداء أو العشاء .

وحضر إلى النادى صديقه الدكتور « بهى الدين بركات » ، فعلم منه عرضاً أنه ينوى السفر إلى عزبته لبعض أعمال زراعية تستدعى حضوره . فسأله مصطنعاً الجد كعادته فى توجيه بعض الأسئلة التى يريد أن يستطرد منها إلى مناوشة من مناوشاته الفلسفية :

قال يخاطب الدكتور « بهى الدين » : وهل من حق « الرجل العام » أن يفرغ لخاصة شئونه ؟

ففهم الدكتور مقصده من هذه المقدمة التى تعودها منه – على ما يظهر – كما تعودها محدثوه ، وقال ما معناه :

– وهل العمل فى الأرض محرم فى شريعة الحكمة ؟

قال : أنا لم أقل هذا .

وأردت أن أشترك فى المناوشة فقلت : إنما هو سؤال ليس إلا ..

قال الدكتور « بهى الدين » : أهو سؤال برئ ؟

قال الأستاذ : أما أنه سؤال برئ فلا .. !

ومضى الدكتور « بهى الدين » يتحدث عن العمل الذى يسافر إلى العزبة من أجله ، ومنه مشروعات للتعاون والخدمة الاجتماعية لمصلحة الفلاحين .

فعاد الأستاذ يقول : أما هذا فرخص به للرجل العام ..

وقد كان أقدم زملائه وأصدقائه من أيام الدراسة الثانوية « عبد العزيز فهمى باشا » يداعبه كثيراً من هذه الناحية ، ويقول كلما خالفه فى رأى من آرائه الفلسفية أو اللغوية : إنك يا « لطفى » تفكر فى الكون كله ولا يعنيك أمر الزمن القريب ولا أمر هذه الخلائق الفانية .

وكان أمتع ألوان الحديث بين الرجلين الكبيرين تلك الأحاديث التى كانت تجرى بينهما فى السيارة أثناء الطريق من دار المجمع إلى « مصر الجديدة » ، حيث يقيمان وأقيم على مقربة منهما ، ويتفق كثيراً أن يدعوانى إلى صرف سيارتى ومصاحبتهما بعد انتهاء جلسات المجمع . ولا سيما الجلسات التى يطرأ عليها بعض الخلاف بينى وبين « عبد العزيز باشا » فى مسائل اللغة أو الأدب .. وحدث ذلك كثيراً أيام المناقشة على كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وهو موضوع شغل صاحبنا القانونى الكبير يومئذ عدة شهور ، ولم يكن يطيق المعارضة فيه .

فقال لى مرة ، وقد أنس من الأستاذ « لطفى » شيئاً من الميل إلى ترجيح رأيى :

– « أوع تطلع فيها يا عقاد على مربقة أستاذنا « لطفى » .. إن « لطفى » ينظر إلى هذه الأمور التى نشتغل بها نظرة الأرباب .. قل له : ما رأيك إذا كتبت العربية غداً بالحروف الصينية ؟ يقل لك على الأثر : « ويجرى إيه » ؟

فقال لطفى : « ويجرى إيه » ؟

وعاد « عبد العزيز » يكرر الحديث عن نظرة الأرباب وصديقه يكاد يهم بالتأفف من هذا التكرار ، حتى قال متأثراً :

ألا ترى أنك تسخر منى بهذا الحديث عن الأرباب والنظرات الكونية ؟

فأسرع « عبد العزيز » يرد على صديقه بلهجة جافة ، كلهجة الدائن الذى يخاطب المدين المماطل :

– ما هذا التجنى يا أخى ؟ !

فصرف لطفى موضوع هذه المناقشة قائلاً :

– ليكن حديث أرباب .. دع الأرباب هى التى تحتج عليك هذه المرة !

* * *

معركة ولى العهد

وأشهد أننى ما عرفت خليقة الحلم فى « لطفى السيد » ، ولا فضل هذا الحلم فى دوام الصداقة بينه وبين أصدقائه وأخصهم « عبد العزيز فهمى » ، إلا من أمثال هذه المساجلات التى تنتهى بالجفاء فى الخطاب ، وقد اشتد بعضها حتى بلغ من الشدة أن « يقفل » « عبد العزيز فهمى » التليفون فى وجه صديقه ، على أثر محادثة سريعة كان موضوعها أيضاً ذلك الموضوع الشائك عن الحروف اللاتينية .

روت إحدى الصحف عن الأمير « محمد على توفيق » أنه يستنكر الدعوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية . فثارت عليه ثائرة « عبد العزيز فهمى » وبسط لسانه فيه بكلام حاد على مسمع من أعضاء نادى « محمد على » ، وقد كان الأمير « محمد على » رئيسه يومئذ ، وكان أيسر ما قال فى تلك الحملة خطابه لسامعيه وهم يجتهدون فى تهدئته :

– أتحسبون أننى لا أحترم الأمير « محمد على » ؟ أتحسبون أنه حين يتكلم عن الكتابة بألفاظه الفصيحة « كخذروف الوليد » يستحق منى غير الاحترام ؟ .. كلا .. إننى مطالب باحترام ولى العهد بحكم الدستور !

ثم خرج من النادى تواً إلى قصر عابدين فكتب اسمه فى دفتر التشريفات وجعل مناسبة هذه

فقال لطفى : « ويجرى إيه » ؟

وعاد « عبد العزيز » يكرر الحديث عن نظرة الأرباب وصديقه يكاد يهم بالتأفف من هذا
[ا]لإصرار ، حتى قال متأثراً :

ألا ترى أنك تسخر منى بهذا الحديث عن الأرباب والنظرات الكونية ؟

فأسرع « عبد العزيز » يرد على صديقه بلهجة جافة ، كلهجة الدائن الذى يخاطب مدين
[مما]طل :

– ما هذا التجنى يا أخى ؟ !

فصرف لطفى موضوع هذه المناقشة قائلاً :

– ليكن حديث أرباب .. دع الأرباب هى التى تحتج عليك هذه المرة !

• • •

معركة ولى العهد

وأشهد أننى ما عرفت خليقة الحلم فى « لطفى السيد » ، ولا فضل هذا الحلم فى دوام
[الص]داقة بينه وبين أصدقائه وأخصهم « عبد العزيز فهمى » ، إلا من مثال هذه المساجلات
[التى] تنتهى بالجفاء فى الخطاب ، وقد اشتد بعضها حتى بلغ من الشدة أن « يقذف »
[ع]بد العزيز فهمى « التليفون فى وجه صديقه ، على أثر محادثة سريعة كان موضوعها بعض
[ما] للموضوع الشائك عن الحروف اللاتينية .

روت إحدى الصحف عن الأمير « محمد على توفيق » أنه يستنكر الدعوة إلى كتابة العربية
[بالح]روف اللاتينية ، فثارت عليه ثائرة « عبد العزيز فهمى » وبسط لسانه فيه بكلام حاد على
[مس]مع من أعضاء نادى « محمد على » ، وقد كان الأمير « محمد على » رئيسه يومئذ ، وكان
[م]ا قال فى تلك الحملة خطابه لسامعيه وهم يجتهدون فى تهدئته :

– أتحسبون أننى لا أحترم الأمير « محمد على » ؟ أتحسبون أنه حين يتكلم عن الكتابة بألفاظه
[الف]صيحة «كخذروف الوليد» يستحق منى غير الاحترام ؟ .. كلا . إننى مطالب باحترام ولى
[العه]د بحكم الدستور !

ثم خرج من النادى توا إلى قصر عابدين فكتب اسمه فى دفتر التشريفات وجعل مناسبة هذه

الكتابة فى غير موعد من مواعيد التهنئة أو المعايدة : أنه يسأل « الله » أن يرزق الملك ولى عهد
رشيداً تقر به عيناه !

وسمع « لطفى السيد » بهذه الجملة ، فخاطبه تليفونياً ليرجوه أن يترك الأمير وشأنه على
الأقل فى أحاديث النادى .. فوضع « عبد العزيز » سماعة التليفون بعنف شديد ، ولم يعتذر من
هذا المسلك مع صديقه إلا بعد أيام ، وإن كان على هذا فى سائر أحواله عظيم الإكبار له عظيم
الثناء عليه .

• • •

ولا شك أن كلام القاضى الكبير عن نظرات صديقه الكونية لم يخل من أسلوب الدعابة
التى تبيح بعض المبالغة ، ولكنها – بعد السماح للمبالغة بحصتها فى وصف هذه النظرات – لم
تخل من العدل فى تقرير الواقع إلى حد محدود .

فـ « لطفى السيد » كان ينظر إلى المسائل الفكرية والاجتماعية نظرة محيطة واسعة يوشك أن
تتعادل فيها جميع الجوانب والأطراف ، ولكنه كان من أشد المفكرين اهتماماً بما يعتقد فيه الخير
والصلاح ، وكنا نلمس على محياه أمارات الغم الصامت كلما خولف اعتقاده وجرت الأمور على
غير ذلك الاعتقاد فى الحياة العملية ..

إلا أن الأمر الذى كان يبيح لصديقه أن يحسبه من الأرباب فى تفكيره ، أنه على كل إيمانه
بعقائده العقلية والخلقية لا يرى من المستحيل أن يكون لغيره الحق فى إيمان كهذا الإيمان ، على
خلاف ما يراه بعقله ووجدانه ..

وكان كثيراً ما يقول لمن يحتم أمراً من الأمور : وهل فى هذه الدنيا شىء ضرورى ؟ وهل فى
هذه الدنيا أحد ضرورى ؟ وهل يمتنع غداً أن تتساوى النتائج وتتلاقى الأضداد التى نحسبها
الآن على افتراق بلا لقاء ؟

رأى لـ « سعد زغلول »

وهذه النظرة المحيطة هى سر « ديمقراطيته » فى مسلكه بين الناس ومسلكه بين زملائه فى
العمل ، وإن خالفوه أبعد المخالفة فى الآراء ، ولا أذكر مرة واحدة فى نحو عشرين سنة
قضيناها معه بمجمع اللغة العربية ، أنه حاول بالتصريح أو التلميح أن يؤثر فى اتجاه المناقشة أو
يقاطع صاحب رأى يعارضه وينفر منه ، وإنما كان على الدوام يصغى باهتمام إلى نهاية المناقشة
ولا يشعر المخالفين له بعد ذلك أنه كان معهم على خلاف ..

الكتابة فى غير موعد من مواعيد التهنئة أو المعايدة: أنه يسأل «الله» أن يرزق الملك ولى عه
رشيداً تقر به عيناه!

وسمع «لطفى السيد» بهذه الجملة، فخاطبه تليفونياً يرجوه أن يترك الأمر وشأنه ع
الأقل فى أحديث النادى.. فوضع «عبد العزيز» سماعة التليفون بعنف شديد، ولم يعتذر منهم
هذا المسلك مع صديقه إلا بعد أيام، وإن كان على هذا فى سائر أحواله عظيم الإكبار له عظ
الثناء عليه.

• • •

ولا شك أن كلام القاضى الكبير عن نظرات صديقه الكونية لم يخل من أسلوب الدعا
التى تبيح بعض المبالغة، ولكنها – بعد السماح للمبالغة بحصتها فى وصف هذه النظرات –
تخل من العدل فى تقرير الواقع إلى حد محدود.

فـ «لطفى السيد» كان ينظر إلى المسائل الفكرية والاجتماعية نظرة محيطة واسعة يوشك أ
تتعادل فيها جميع الجوانب والأطراف، ولكنه كان من أشد المفكرين اهتماماً بما يعتقد فيه الحـ
والصلاح؛ وكنا نلمس على محياه أمارات الغم الصامت كلما خولف اعتقاده وجرت الأمور على
غير ذلك الاعتقاد فى الحياة العملية..

إلا أن الأمر الذى كان يبيح لصديقه أن يحسب من الأرباب فى تفكيره، أنه على كل إيمانه
بعقائده العقلية والخلقية لا يرى من المستحيل أن يكون لغيره الحق فى إيمان كهذا الإيمان، على
خلاف ما يراه بعقله ووجدانه..

وكان كثيراً ما يقول لمن يحتم أمراً من الأمور: وهل فى هذه الدنيا شيء ضرورى؟ وهل فى
هذه الدنيا أحد ضرورى؟ وهل يمتنع غداً أن تتساوى النتائج وتتلاقى الأضداد التى نحسب
الآن على افتراق بعد لقاء؟

رأى لـ «سعد زغلول»

وهذه النظرة المحيطة هى سر «ديمقراطيته» فى مسلكه بين الناس ومسلكه بين زملائه فى
العمل، وإن خالفوه أبعد مخالفة فى الآراء، ولا أذكر مرة واحدة فى نحو عشرين سنة
قضيناها معه بمجمع اللغة العربية، أنه حاول بالتصريح أو التلميح أن يؤثر فى اتجاه المناقشة أو
يقاطع صاحب رأى يعارضه وينفر منه، وإنما كان على الدوام يصغى باهتمام إلى نهاية المناقشة
ولا يشعر المخالفين له بعد ذلك أنه كان معهم على خلاف..

لك السماحة الواسعة فى تقدير وجوه الخلاف التى جعلته مرجعاً للمشورة الصادقة بين
قائه وتلاميذه من المشتغلين بالحكم والقائمين بأعمال الوزارات، فقد كان يمحضهم الرأى
جميع جوانبه ويوازن لهم بين جميع احتمالاته، ويتركهم أحراراً فيما يختارون، وإن كان
أحياناً أخرى على باب التيه يحاورون بين مضطرب الأفكار ومفترق الظنون
ديرات، ولا أدرى ممن سمعت – أمن «سعد زغلول» أم من «محمد محمود» – أن
فى السيد» قوى الفكر ولكنه قد يكون فى بعض تقديراته واحتمالاته قوتين متعارضتين،
ف به هذا التعارض دون العمل المستطاع، أو يقف به دون الحماسة لرأى من الرأيين،
د من الحماسة «ذات النظر الواحد» لمن يريد أن يمعن إمعان الجد والعناد فى طريق مقصود
غرض محدود، ولم يكن «لطفى السيد» قط ذا نظر واحد يحجب عن تفكيره سائر
ظار..

فلم يكن من طبعه أن يصادم أحداً أو يصطنع فى الخصومة قسوة ولدداً.. ولكنه كان يثبت
مكانه ويترك لمن يخالفه أن يصطدم به إذا شاء، ولا سماحة فيما وراء ذلك إذا سامته السماحة
يتحول عن مكانه الذى استقر عليه. فهو عند رأيه لا ينحرف عنه وإن أعطاه من الصبر
تكرية ما يدفع عنه شر الضغينة والافتراء..

مصر للمصريين

كان من مبدأ «لطفى السيد» – كما هو معلوم – أن استقلال مصر مقدم على الاعتراف
بالسيادة العثمانية؛ وكان هذا معنى شعاره وشعار زملائه فى الرأى والعقيدة: «مصر
للمصريين».

ووقعت الجفوة بينه وبين الخديو «عباس الثانى» لأن الخديو وجده على غير ما كان يحسبه
حين اختاره عضواً فى الجماعة السرية التى تنشر الدعوة إلى القضية الوطنية فى الديار الأوربية،
واتفقا مع أعضاء هذه الجمعية على سفر «لطفى» من مصر وإقامته بسويسرا سنتين لاكتساب
الجنسية السويسرية والانتفاع بهذه الحماية فى مكافحة الاحتلال، فلم يستحسن «لطفى
السيد» هذه الحيلة ولم يلبث أن تنحى عن الجماعة حين أحس أن الخديو يريد أعضاءها خداماً
لشخصه وأعواناً لسلطته على غير المبادئ الدستورية، وتمت القطيعة بينه وبين القصر بعد ولاية
«لطفى» تحرير «الجريدة» لسان حال حزب الأمة.. فتحمل القصر وحاشيته مع ذويهم رفع
الدعوى الجنائية عليه، واتخذوا من مناداته الصريحة بالاستقلال التام دليلاً «قانونياً» على

« خيانة » السيادة المعترف بها للخليفة العثماني والمتفق عليها في العلاقات الدولية ، بمنطق الأستاذ « محمد رمضان » – قد خرج يمثل هذه الهزيمة من معركة الانتخاب وكان الشاب « طه
المعاهدات التي يفرضها المحتلون ولا يستطيعون « قانوناً » أن يسقطوا العقوبة عمن يخرج عليها سنين « كمؤلاً لهذه الدعاية فكان جوابه للأستاذ : إنني أتقبل التعزية ولكنني أرجو يا أستاذ ألا

وخطر « للطفي السيد » أن يحبط هذه المكيدة بعد أن جهرت بها الصحف الموالية للقصر رفضها .. !
ومنها « المؤيد » الذي كان له وزنه ونفوذه في الصحافة العربية ..

قال « لطفي السيد » مدافعاً عن رأيه : إنه يدعو إلى استقلال مصر ولا ينكص عن هذه الدعوة ، ولكن التمام غير الكمال .. وقد يقال أن الطفل إنسان تام ولكن الإنسان الكامل لا وجود له بين الأطفال ولا بين الكبار ، وكان من حججه التي أعدها للدفاع عن رأيه أن بقاء الخلافة لا يقتضي أن تكون مصر مسلوبة السيادة ولا أن يكون استقلالها ناقصاً غير تام ..

وشاءت المصادفات في دراسات المجمع أن تعرض مسألة الفرق بين التمام والكمال ، وأن أذكر رئيسنا برأيه القديم ، فابتسم وقال : لعله من الوجهة السياسية رأى مقبول . ولكنني لم أندم على شيء ندمي على ذلك التفسير الذي أحبطت به دسيسة القوم .. ووددت لو أنني تركتهم يدعون ما يدعون ولم ألحق مبدأ « الاستقلال التام » بأي تفسير .

وبقي الرجل على شعار « مصر للمصريين » ومبدأ « الاستقلال التام » بغير تفسير .. وكان هو ثالث ثلاثة وضعوا صيغه توكيل الوفد في طلب الاستقلال التام . أما الاثنان الآخران فهما صديقاه « عبد العزيز فهمي » و« سعد زغلول » .. ولولا أنه لم ينتخب عضواً للجمعية التشريعية لكان ثالثهما في زيارة دار الحماية للمطالبة بإلغاء الحماية البريطانية والاعتراف لمصر بالاستقلال التام ، مع إنكار السيادة العثمانية والحماية البريطانية على السواء .

المرشح الديموقراطي

وقصة سقوطه في انتخابات الجمعية التشريعية إحدى أعاجيب الدعاية الانتخابية التي تعرض لها من جراء المناداة بالحقوق الديموقراطية ، إذ كان منافسه يشيع عنه أنه يطلب للمرأة الحق في الجمع بين أزواج أربعة لأنه يطلب لها المساواة الديموقراطية ، ويسألونه : هل أنت حقاً من طلاب الديموقراطية ؟ فيجيبهم بالتأكيد ويعيد لهم الشرح من جديد ..

ومما أذكره أنني ذهبت إلى مكتبه بالجريدة لمؤاساته في هذه الخيبة المؤسفة ، فوجدته قد تلقاها بصبر الحكماء وفكاهة العظة والاعتبار ، وهو لا يخفي إعجابه بذلك « الريفي » الماكر الذي غلبه باسم الديموقراطية ! .. ثم حضر « الشيخ طه حسين » وأنا عنده ، وكان شاباً يلبس العمامة لا يزال .. فإذا بالأستاذ يتبسط معه ويعزيه لأن زميله في ترجمة بعض الكتب –

رفضها .. ! – قد عاش لها وعاش بها عملاً

وهذه الديموقراطية التي نادى بها لطفي السيد – فكرة وقولاً – قد عاش لها وعاش بها عملاً وإيماناً ، وقد كانت هي الطابع الذي طبع عليه بمزاجه قبل أن يطبع عليه بتفكيره ودراسته ، لم تمنعه شيمته التي تتمثل فيها كل خلائق الوجاهة الفطرية أن يكون « أرستقراطياً » بالشكل ديموقراطياً بالموضوع ، إذا جاز هذا التعبير .

كان هذا الرجل الممتاز بشخصيته وخلقه فكرة في حياة ، أو حياة ملكتها الفكرة في خدمة شأنه وعامة عمله وقوله .. وإخالنا نقيمه في مقامه الوطيد بين مفكري العصور حين نقول إنه في عصرنا هذا زميل عريق « لأرسطو » اليوناني ، تجدد مع الزمن في مدرسة الثورة الفرنسية .. مدرسة « فولتير » ، و« روسو » ، و« مونتسكيو » ، وعاش بعدهم فتقبل من حكمة العصر ما كانوا يتنزلون إلى قبوله من حكمة القرن العشرين ، ولكنه لم يزل بعد منتصف هذا القرن العشرين على نمطه السلفي الأفلاطوني ، فكراً في إهاب إنسان .

حول مذكرات عبد العزيز فهمي

بعد وفاة « لطفي السيد » رحمه الله ظهرت لزميله وصديقه « عبد العزيز فهمي » باشا مذكرات عن تاريخ حياته تكلم فيها عن أعمالهما في الحياة العامة وفي حركة الوفد المصري الذي كانا عضوين فيه . واستوقفني خلال المذكرات بعض مواضع للملاحظة والتصحيح ولم يتسع المجال للتعقيب عليها جميعاً ، فاكتفيت بما جاء منها عن مقدمات الحركة وهو كاف للإبانة عن مدى الاختلاف بين الواقع والرواية في سائر المذكرات . وهذا هو التعقيب كما نشرته في صحيفة الأخبار :

قرأنا في مذكرات الأستاذ « عبد العزيز فهمي باشا » فصلاً عن تأليف الوفد المصري وعن الأعضاء الثلاثة الذين قابلوا المندوب البريطاني « سير ريجنالد ونجت » ، قال فيه : « هؤلاء الثلاثة هم « سعد زغلول » و« علي شعراوي » و« عبد العزيز فهمي » .. ومما تجب ملاحظته هنا أن اختيار هؤلاء الثلاثة إنما وقع بطريق المصادفة والاتفاق ، وإلا فإن إخوانهم فيهم من هو أكفأ في النضال المنطقي وأولى بالسفارة مثل رجلنا الكبير « أحمد لطفي السيد » ، ولعل التقدم في السن كان هو السبب الطبيعي الذي أدى إلى اختيارهم » .

هذا ما جاء فى المذكرات بنصه منقولاً عن أحد الأعضاء الثلاثة ، يليه كلام عن المناقشات التى دارت بين « سعد » وزملائه حول الاستعداد لإثارة القضية المصرية أمام مؤتمر الصلح ، يدل كله على ضرورة « التبييض » فى كل كلام يتعرض لمسائل الخلاف فى السياسة لأنه يحتمل السهو والنسيان كما يحتمل التأثر بالميول والخصومات ، ولكننا نكتفى هنا بالفقرة الأولى من هذه القصة كلها لأن الحقيقة فيها أظهر من أن تحتاج إلى المراجعة والمناقشة ، وهى تتعلق بسبب اختيار الأعضاء الثلاثة لمقابلة ممثل الدولة البريطانية دون غيرهم من المشتركين فى الوفد بعد تأليفه :

لم يكن اختيار هؤلاء الأعضاء الثلاثة مصادفة واتفاقاً ولم يكن للتقدم فى السن على سائر الأعضاء ، ولكنهم كانوا هم نواب الجمعية التشريعية بين الأصدقاء الخمسة الذين تألفت منهم نواة الوفد فى المرحلة الأولى ، وهم كما ذكرهم الأستاذ « أحمد لطفى السيد » فى قصة حياته : « سعد زغلول » و« عبد العزيز فهمى » و« على شعراوى » و« محمد محمود » و« لطفى السيد » .. ولم يكن الاثنان الأخيران من أعضاء الجمعية التشريعية ، فتقرر الاكتفاء « بسعد » وكيلاً للجمعية و« شعراوى » و« عبد العزيز » العضوين فيها ليكون للثلاثة صفة الكلاء بالنيابة عن الأمة .

وقد كان الانتخاب للجمعية التشريعية أهم أسباب هذا الاختيار باتفاق الأعضاء ، ولكنه لم يخل من أسباب أخرى لوحظت فيه – كما سمعنا من « سعد » بعد ذلك – ومنها أن « على شعراوى » يمثل أعيان الفلاحين ، وأن « عبد العزيز فهمى » الذى كان نقيباً للمحامين يمثل طائفة المتعلمين ، وأن الأول من الوجه القبلى والثانى من الوجه البحرى ، فهم صالحون لتمثيل الناحيين فى أوسع نطاق ..

ولما تقرر القبض على الزعماء الأربعة ونفيهم إلى جزيرة مالطة ، لم يكن هذا الاختيار أيضاً من قبيل المصادفة والاتفاق فى نظر الجهات الرسمية ، ولكنه كان عند هذه الجهات موافقاً لتقاليد « البروتوكول » فى نظام الأولية ، فكان « سعد زغلول » رئيس الوفد ووزيراً سابقاً ، وكان « إسماعيل صدقى » عضواً يليه فى الأسبقية الوزارية ، وكان « محمد محمود » مديراً من كبار الموظفين ، وكان « أحمد الباسل » يحمل لقب الباشوية ويمثل رؤساء العشائر فى البلاد .

فلم يكن هنالك محل للمصادفة ، ولا لاعتبارات السن ، فى اختيار الزعماء من جانب الوفد أو من جانب السلطات الرسمية .. ولكنه عمل من أعمال النظام متفق عليه ، وقد سها

عن ذلك رجل من أولى الناس بذكر مسائل النظام فضلاً عن كونه أحد هؤلاء ، فكيف بسائر الروايات ؟ وكيف بسائر الرواة ؟ ..

أما بقية الكلام على المناقشات التى دارت عند التفكير فى إثارة القضية الوطنية ، فهى أحوج من هذه القصة إلى التعقيب ، وهى لحسن حظ التاريخ مما يكفى للتعقيب عنه مجرد البيان الوجيز ..

٢

كان حزب الأمة يضم بين أعضاء مجلس إدارته وسائر أعضائه البارزين فئة كبيرة من السروات وأصحاب الجاه والثراء في البلاد . وكانت الصلة الجامعة بينهم كافة أنهم من « غير المرضى » عنهم في قصر الأمير ، وأرادوا أن يتخذوا لحزبهم صحيفة على « أوجه » طراز بين الصحف الأوربية ، وبخاصة صحافة « فرنسا » التي كان معظم المتعلمين من رؤساء الحزب يتثقفون بثقافتها ويفضلون صحفها على صحف « انجلترا » دولة الاحتلال ، فاختلفوا زمنا على اختيار إحدى الصحيفتين الكبيرتين في باريس مثالاً الصحيفة الحزب اليومية ، وهما « الطان » و « الجرنال » .

أما « الطان » فكان المرجح لها عند العارفين بالشئون الصحفية أن ترجمة اسمها « الزمان » تجعلها أصلح للنداء عليها في اللغة العربية .

ولكن « الطان » صحيفة شبيهة بالرسمية وعلى صلة بالدواوين العليا . فليس من الموافق لحزب يسمى بحزب الأمة ويتجنب الاتصال بقصر « عابدين » وقصر « الدوبارة » على السواء أن يتخذها مثالاً لصحيفته القومية .

فانتهى الخلاف إلى اختيار « الجورنال » نموذجاً لصحيفتهم .. و « الجريدة » هي ترجمة اسم الجورنال .

وظهرت « الجريدة » على مثال الجورنال في الصبغة « غير الرسمية » وفي نظام التحرير وترتيب الصفحات ، وأظهر ما كان في هذا النظام فتح صفحات « الجريدة » للكتابة الأدبية فأقلام ناشئة الجيل الحديث ، وربما أفسحت في صفحتها الأولى – إلى جانب المقال الافتتاحي – موضعاً بارزًا لقصيدة عاطفية أو مقال طريف من مقالات الوصف والنقد اللغوي ، وترددت على صفحاتها اسماء « هيكل » و « عبد الرازق » و « طه حسين » و « محمد السباعي » و « شكري » و « المازني » و « القاياتي » وكاتب هذه السطور ، وغيرهم وغيرهم كثيرون .

وكان « اللواء » لسان حال الحزب الوطني ، و « المؤيد » لسان حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية يتقبلان الكتابة بأقلام الناشئين ، ولكنهما يقصرانها على الناحية السياسية ولا يرحبان

بالكتابة الأدبية إلا إذا كانت بأقلام الشعراء والكتاب النابهين من طراز « شوقي » و « حافظ » و « مطران » و « المويلحي » و « المنفلوطي » وأمثالهم بين أدباء الجيل المتقدم ، فاتجه الأدباء الناشئون إلى « الجريدة » ولا سيما الطلبة والموظفون ، إذ كانت الكتابة في السياسة محظورة عليهم ، وكانوا يكتبون فيها أحياناً إلى الصحف عامة – ومنها الجريدة – بتوقيع مستعار .

وكنت أرسل مقالاتي أو مقطوعاتي الشعرية بالبريد فتنشر بعد يوم أو يومين من وصولها ، ولكني تدرت لإحدى المقالات أنها لا تحل عند قلم التحرير محل الترحاب إذا وصلت إليه محولة من مدير التحرير ، فتعمدت أن أسلمها إلى المدير يداً بيد . ولم أجد صعوبة في لقائه عندما قصدت إلى مكتبه على غير ميعاد ..

كانت المقالة على ما أذكر نقداً لكتاب الأستاذ « محمد لطفي جمعة » عن « كلمات نابليون » .. وكان الأستاذ « جمعة » قد نقل بعض هذه الكلمات كما ترجمتها بحروفها ولم يشر إلى هذه الترجمة ، فلما نبهت إلى ذلك في تعليق على كتاب الأستاذ « محمد لطفي جمعه » تذكرت أنه صديق لأكثر المحررين « بالجريدة » . فكان ذلك من دواعي التفكير في لقاء الأستاذ « أحمد لطفي السيد » لتسليمه المقالة ، ولإرضاء فضول الشباب برؤية ذلك « الفيلسوف » الكبير الذي كنا نقرأ له ولا نراه .

واستقبلني مدير الجريدة استقبال الرعاية والترحاب ثم تصفح المقالة على عجل وأمر بإرسالها إلى المطبعة على الأثر ، وهو يقول مبتسماً : ألا تخاف من نابليون يا بني ؟ ! ..

قلت وأنا أعلم أن كلمة الديموقراطية من أحب الكلمات إليه وأكثرها تردداً على لسانه وقلمه : الحمد « لله » على نعمة الديموقراطية ! !

ولفت نظري أن إمام الديمراطية المصرية يلبس « البونجور » ويحرص على السمت الأرستقراطي » في زيه وتقاليد سلوكه المهذب مع زواره ومرءوسيه ، فثبتت في ذهني هذه الصورة ولا تزال ثابتة إلى اليوم .. فإذا ذكرت « لطفي السيد » في غيبته نسيت أذكره إلا وهو يلبس البونجور ، بعد أن رأيته عشرات المرات بالزي « الأفرنجي » المألوف .

وعزز هذه الصورة عندي أني رأيته بعد ذلك يخطب بدار الجريدة وهو يلبسها ، ورأيته وهو يلبسها بديوان الأوقاف ، اذ حضر يوماً لزيارة وزيرها « محمد محب باشا » وكنت في حجرة استقباله ، لأسلم مدير المكتب بعض المذكرات التي تعرض على مجلس الإدارة .

أما أن « لطفي السيد » ديموقراطي المبدأ في تفكيره وسياسته ودعوته الوطنية فلا مراء في ذلك ، ولا خلاف ..

وأما أنه « أرستقراطى » السمت والشارة فى مظهره ووجاهته فذلك أيضاً مما لا مراء فيه ، ولا خلاف .

ولم تطل بى الحيرة للتوفيق بين الحالتين ولا أراهما نقيضين .

لأننى لم ألبث أن شعرت من مراقبته ومراقبة الوجهاء من أبناء الفلاحين أنهم جميعاً ديموقراطيون على هذا المثال ، فهم كلهم ديموقراطيون لأنهم ينكرون سيادة الطبقة التركية واستئثارها بشرف الوجاهة الاجتماعية . وقد كان الوجيه التركى يأبى على أكبر الوجهاء الفلاحين أن يساويه أو يصاهره أو يتخذ من المظاهر الاجتماعية مثل مظهره ، وقد سمعنا الكثير من تعليقات البيوتات التركية على قبول رئيس الوزراء لمصاهرة « سعد زغلول » ، وهو – على وجاهته بين أبناء الفلاحين – علم مشهور من أعلام القانون فى عصره .

قال لى « عبد العزيز فهمى باشا » مرة : أن « لطفى » ديموقراطى الرأى والعقيدة ، ولكنه طول عمره أرستقراطى بين الأرستقراطيين . وحكى لى أنه كان يقتنى جوادًا خاصًا يتنقل به من بلد إلى بلد للتحقيق والتفتيش وهو وكيل للنيابة . ولا يكلف نفسه أن يطلب جوادًا من خيل الشرطة كغيره من وكلاء النيابات . وأنه كان يتحدى عظمة التركى بعظمة الفلاح ، فيلبس قفطان الوجيه الريفى ، وهو فى الدار .

إن « أحمد لطفى السيد » أشهر المنادين فى الصحافة بمبدأ مصر للمصريين ، قد كان ديموقراطيا ليساوى المصريين بغيرهم من أصحاب السيادة فى بلادهم ، وكان أرستقراطيا ليتحدى الأرستقراطيين من أولئك السادة المتغطرسين ، وقد أصهر إلى أسرة رجل كان من أقران الخديو « إسماعيل » فى زمانه ، وهى أسرة المفتش « إسماعيل صديق » .

فليست ديموقراطية « لطفى السيد » إلغاء للعرف الاجتماعى فى آداب الطبقات ، ولكنها ديموقراطية المساواة بين أبناء كل طبقة من المصريين وغيرهم من الغرباء – كل الغرباء فى الأصل ، لأنهم شركاء الطبقة فى المجتمع وأجانب من جميع الأجناس على عهد سيادة المحتلين .

والديموقراطية عن هذه السنة بجميع معانيها هى المبدأ الواسع الذى كان يلحظه هذا الفيلسوف الوجيه فى حقوق الرأى وفى حقوق الطبقة ، فليس إيمانه بتغليب رأى الكثرة مانعا عنده للقلة أن تبدى رأيها وتقابل به آراء الأكثرين من المخالفين .

كان شعار « الجريدة » كلمة الفيلسوف الأندلسى « ابن حزم » ، وهو من قرائه فى مسائل الأخلاق والعقائد واختلاف الطوائف والعبادات .

وكان « ابن حزم » يقول : من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق وإن آلمتها لأول صدمة ، كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكبر من مدحهم إياه .

وقد وضع هذا الشعار تحت عنوان « الجريدة » منذ صدورها فى شهر مارس سنة ١٩٠٧ إلى احتجابها بعد ذلك بنحو ثمانى سنوات ، لأنه كان فى طوال هذه المدة يعلم أن معارضيه بالرأى أضعاف مؤيديه ، وكان أنصار الأحزاب من القائلين بالسيادة العثمانية والمشايعين للحاشية الخديوية والجانحين من الطرف الآخر إلى مشايعة السلطة الفعلية أو مشايعة الاحتلال . كل أولئك الأنصار كانوا أضعاف أنصاره فى حزب الأمة ، وقد تركه شطر كبير من هؤلاء الأنصار فى منتصف الطريق ، وجنحوا إلى ناحية القصر احتجاجا على ما سموه « استبداد محرر الجريدة بسياستها » وفيها ما فيها من مناصبة الأمير .

وهذا الديموقراطى الذى أباح للقلة أن تعلن رأيها فى غير مداراة ولا مواربة ، وهو هو الديموقراطى ، الذى يسلم للكثرة بحقها عند مفترق الطريق ، وعند مفترق الطريق هذا سلم للكثرة من أعضاء اللجنة السياسية بما قررته فى المفاوضات التى أجرتها وزارة « أحمد ماهر » ، وهو على رأى فى تلك المفاوضات غير ما تراه .

ولقد هنأنى فى الصباح الباكر على مقال كتبته بالأهرام مؤيداً فيه خطة الوزارة « الماهرية » ، فلما وافقت اللجنة أخيراً على قرارها سألته فى ذلك ونحن عائدان فى سيارته من المجمع إلى مصر الجديدة ، فقال : إذا كانت كثرة اللجنة وكثرة أهل البلد على هذا القرار فالكثرة لها حكمها الذى لا حيلة لنا فيه .

وذكرته يومئذ – مازحاً – بمخالفته للزعيم « سعد زغلول » بعد مفاوضات « عدلى ملنر » ، فقال : بل هذا – أيها الأخ – من ذاك .. فقد خالفت « سعداً » ، ولكنى لم أخالف كثرة الوفد فى النهاية .

على أن المبالاة بالعرف الغالب لم تكن شيئاً هيناً فى تقديرات هذا السرى الفيلسوف ، فقد كان يولى ذلك العرف فوق حقه من المبالاة ، إلى جانب تقديراته الفكرية أو تقديراته المنطقية .. فلم تزل رعايته للتنكر مع المراسم والتقاليد أرجح عنده من هذه الرغبة له إلى غير الجانب الموافق لتلك المراسم والتقاليد .

وليس من التناقض أن يكون « لطفى السيد » الفيلسوف كذلك ، وهو الثائر على الجمود والرجعية بلا مراء ، فإنه فى ثورته يقف إلى جانب مجتمع كبير ، ولا يقف إلى جانب الشذوذ

والانفراد ، وإنما كان إيمانه بمبادىء الحرية على قواعد الثورة الفرنسية إيماناً أيده مع الزمن أضعاف من خالفوه .

* * *

لقد كانت لهذا الثائر تقاليده التى يثور عليها ويعلن الحرب على أنصارها ..

ولكنه لم يكن يحاربها إلا من أجل تقاليد أخرى يسالمها ويقرها ويعمل على إقرارها ..

وإنما كان يفضل بعضها على بعض بشفاعة الواقع ، أو بشفاعة « قانون » التقدم كما آمن به الثائرون العلميون فى إبان القرن الماضى ، وثبت عليه بقيتهم إلى هذه الأيام من القرن العشرين .

* * *

لقيته بمكتبه وهو مدير لدار الكتب لتجديد رخصة الاستعارة ، وقدم زميله العالم الجغرافى « رأفت بك » مدير المتحف العرقى التابع لدار الكتب فى بناء واحد .. فحيا تحية مقتضبة يلوح عليها شىء كثير من الامتعاض والابتئاس ، والتفت إليه الأستاذ « لطفى » يسأله : كيف حال متحفك وآثارك يا « رأفت بك » ؟ .. قال « رأفت بك » ولم يفارقه امتعاضه وابتئاسه : إنها أثر بعد عين .. شباب هذا العصر لا يحفلون بماض ولا حاضر .. لا يقرأون .. لا يدرسون .. افتقدهم فى متحف آثار أو معرض فنون فلا تجدهم ولا تسمع خيراً عنهم ، ولكنهم موجودون ليلاً ونهاراً بين المراقص . والقهوات ، والبارات .. زفت وقطران .. زفت وقطران .. ألا يسمع هؤلاء الشبان بأحوال أندادهم فى البلاد الأوربية ؟ ألا يسمعون بأندادهم من الأوربيين فى بلادنا ؟ .. ألا يعرفون المفازة والغابات ومصاعد الجبال التى ينطلق إليها الشباب يستجلون فيها جمال الطبيعة وينشدون فيها صحة الجسد والذوق ؟

فنظر إليه الأستاذ « لطفى » مليا ، وقال له معاتبا فى لهجة لا تخلو من التأنيب اللطيف : « الله » .. ومالك منفعلاً ثائراً هكذا يا سيدنا البك ؟ ..

فهدأ « رأفت بك » ثم قال بصوت كصوت الصدى يحاكيه فى لهجته : عفواً يا سيدنا البك ..

قال الأستاذ « لطفى » : يغضبنى ذلك أكثر مما يغضبك ، ولكن الحق على من فى هذه التقاليد الرثة ؟ .. أرأيت هناك شاباً يخرج إلى المفازة والغابات وحده ؟ .. ألا يخرج الفتى ومعه الفتاة أو تخرج الفتاة ومعها الفتى ؟ .. ألا يعرفون الحب بينهم قبل أن يعرفوا حب الجمال فى السهول والجبال ؟

وشاركت الأستاذين فى الحديث قائلاً : وهل يبتعد الفتيان عندنا عن البنت حيث يذهبون إلى المراقص والبارات ؟

قال الأستاذ « لطفى » : وماذا يصنعون ؟ إنهم يسرقون الحرية فى المرقص والبار ، وإن نصيبهم من الحرية المشروعة لا يزيد عن نصيب الفتيات فى الخدور .

وهنا نلتقى « بالجنتلمان » الديموقراطى فى مجلسه وفى تفكيره .. إنه لم يستطع أن يجيز لزميله ذلك « الانفعال » الممنوع فى قانون « الأتكيت » .. ولم ينتصر للثورة على التقاليد الرثة إلا لأنه ينتصر لتقاليد أخرى لا تزال فى ثوبها القشيب .. ولكنها ، على أية حال تقاليد لها شفاعة من « قانون » التقدم المتفق عليه . وقد ظل الفيلسوف السرى على إيمان بهذا التقدم المتفق عليه حتى نهاية حياته ، وحتى بعد تعديل ذلك القانون بقانون آخر ينسخ منه مادة مرفوضة كلما أقر منه مادة مقبولة ، وهو قانون التطور الذى لا يقول بالتقدم المطلق المطرد فى كل سبيل ، ولا يستلزم أن يكون كل حديث فى عصرنا أصلح من كل قديم فى ماضى العصور وخاصة فى مسائل الأخلاق والآداب .

وكلما أباح فيلسوفنا لنفسه أن يمضى مع « ابن حزم » فى شجاعة الرأى ومخالفة الإجماع ، عاد إلى رأيه المخالف فلم يقبله إلا لأنه قانون الغد المتفق عليه سلفاً ، لو سارت الأمور حيثما ينبغى أن تسير . وقد قال فى ذلك من نصائحه للشباب : « كل ما تفكر فيه أو تلفظه أو تفعله انظر هل ترضى أن يكون قانوناً للعالم أولاً .. فإن رضيت فافعله فى غير خوف ، وإن لم ترض فلا تفعله أبداً » .

* * *

وقد رأيت « أحمد لطفى السيد » مديراً للجريدة ومديراً لدار الكتب ومديراً للجامعة وعضواً بمجلس الشيوخ ووزيراً ورئيساً للمجمع اللغوى ورئيساً للجمعية الخيرية ، فلم تحجب عنى خصلة من خصلته فى وظيفة من هذه الوظائف المتلاحقة .. وهما السمت الوجيه والديموقراطية الصادقة ، وكانت « ديموقراطيته » أجمل ما تكون فى مجال الرأى ومباحث التفكير ، وقد شهدناه نحو عشرين سنة فى هذا المجال بعد أن عملنا معه عضواً بمجمع اللغة العربية ثم رئيساً للمجمع بانتخاب أعضائه ، فكان أقدر رئيس عرفناه فى مجمع من مجامع البحث العلمى دانت له ديموقراطيته بغير كلفة ، ودان لها زملاؤه احتراماً لحق الحرية الفكرية ،

واحتراماً لرئاسته الأبوية.. تلك الرئاسة التي كان لها سند من العطف المتبادل أقوى من أسناد المراسم والتقاليد.

وكان رحمه « الله » يشترك فى المناقشة ويورد الشواهد فى أثنائها من محفوظاته الكثيرة ، وأولها القرآن الكريم وفى جملتها قصائد الشعراء الأقدمين من الجاهليين والمخضرمين والأمويين والعباسيين ؛ وربما حفظ للمحدثين كما يحفظ للأقدمين ، ولكنه يقصر شواهده فى مقام الاحتجاج بالسند المقبول ، على الأولين دون الآخرين.

وكان إجماع الأعضاء على توقيره وحبه يريحه كثيراً من كلفة الرجوع إلى النظام فى رعايته لسنة المساواة التامة بين الأعضاء عند إبداء الآراء ، ولكنه كان يعمد إلى الصمت الوديع كلما احتدم النقاش وحميت وقدة الخلاف وتكلم من يتكلم ورد عليه من يرد واعترض عليهما من يعترض دفعة واحدة ، تختلط فيها الأصوات وتحار معها الأسماع.

ويميل الرئيس إلى أقرب الأعضاء إليه يسأله مستسلما هل آمنت معى بأننا فى المجمع اللغوى ويتفق أن أكون إلى جواره فأقول : بغير شك يا أستاذنا.. وتسكين الغين فى هذه الساعة !.

ويعود النظام تواً فى لمحة عين. وقبل أن يحوجه الأعضاء الى دق الجرس ، لأنهم يفهمون من همسته فى أذن جاره أو انطوائه على صمته أنه يدق لهم أبلغ الأجراس !..

وقد عرفناه من قبل ، ومن بعد ، على صورته التي لا تتغير ولا يختلف مظهر منها عن مخبر ، لأنها صورة المفكر الذى تتجلى أعمق أفكاره فى مسالك حياته ، والذى يعيش لفكره وبفكره وعلى وفاق فكره : ثائراً محافظاً على قدره ، وديموقراطياً فى قرارة طبعه ، يزيده من الديموقراطية ولا ينقصها عنده أنه لم ينسها قط وهو فى سمت العلية وفى عزوف الحكيم الفيلسوف.

٣

كان « لطفى السيد » من المرحبين بالظاهرة الأدبية التي تمثلت فى فن « المنفلوطى » ، أو فى أساليبه الإنشائية ، عند ظهورها فى عالم الصحافة وبعد جمع المقالات فى كتاب « النظرات » ، لأن المقالة الإنشائية كانت « قالباً لفظياً » لا عناية فيه بالمعنى قبل « المنفلوطى » ، وقبل « محمد المويلحى » فى فصول « عيسى بن هشام » على التخصيص ، فكانت كتابة « المنفلوطى » على عهد « الجريدة » التي كان يحررها « لطفى السيد » ظاهرة ملحوظة بين المنشئين.

وقد كتب فى تقريظ مقالات « النظرات » يقول :

« من الكتاب من هو ضنين بشخصيته لا يدعها تتلاشى فى بيئة الكتاب ، لا يتكلف تقليد شيخ من أشياخ الكتابة ولا يكتب للكتابة.. بل لا يكتب إلا إذا قامت بنفسه أغراض واضحة يجب أن يبرزها للناس فى الثوب الذى يناسبها على تفصيل « مودة » الأذوق الحاضرة وحسبما يقتضيه الفصل الزمنى للأفكار. وكتاب هذا الصنف قليلون عادة فى كل أمة وفى كل جيل ، إلا أن كتاباتهم على قلتها هى المرقى الوحيد للأمم والعلل الأولى التي تدفعها إلى الأخذ بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح. وهى خير اللغات وأبقاها ... »

ثم ينتقل من هذا التمهيد فيقول عن أسلوب « المنفلوطى » بين هذه الأساليب :

« من أشياخ البيان عندنا السيد « مصطفى المنفلوطى ».. أكاد لا أجد له فى طريقته مثيلاً بين كتابنا ، فهو يمتاز بالمساواة ، وقل من يعرف المساواة. يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص فلا يلبس معنى بالألفاظ الذى لا يكاد يشاركه فيه معنى آخر ».

والمساواة والخصوص فى هذا السياق كلمتان من تعبيرات « لطفى السيد » ، لم يكن معناهما غريباً عن التفسير عند استخدامهما بمعنى الذى أراده.. فقد أراد بالمساواة أن تكون العبارة اللفظية مساوية للغرض الفكرى الذى تؤديه ، وأراد بالخصوص أن يكون اللفظ على قدر معناه. أو يكون باصطلاح العرف الحديث كثوب « التفصيل » وليس كالثوب المجهز لكل لابس على التقريب بعد القص والتوسيع.. وقد يصح أن يقال عن أسلوب المساواة والخصوص أنه هو أسلوب « القصد » بمعنييه : معنى الاقتصاد ومعنى الإرادة ، لأن أسلوب القصد هو الأسلوب المحكم الذى لا فضول فيه ، وهو الأسلوب الذى يؤدى به الكاتب لفظة

لأنه يقصده بذاته وفاقاً لغرضه ولا يقصد غرضاً سواه ، ولولا أن كلمة القصد أقرب إلى الإحكام والتقدير منها إلى التسوية والتنسيق لكان فيها الغنى عن كلمتى المساواة والخصوص .

والتفات « لطفى السيد » إلى هذه « الخاصة » فى الأسلوب الإنشائى لم يكن بالأمر الغريب من كاتب « القصد المحكم » فى اللفظ والمعنى ، لأن تحديد ما يريد بالكلمة كان هو طبيعة عقله الغالبة على تفكيره وتعبيره ، بل على تقديره للأمور وتقديره للأعمال .. فلم يكن للعمل عنده شأن أكبر من شأن المطابقة للكلمة والمطابقة للفكرة التى تدل عليها ، وكانت حياته لفكرته هى الحياة الأولى التى تتلوها بعد ذلك كل حياة عملية تعنيه ..

وكانت مرانة عقله على تحديد عباراته تشغله للتسلية والرياضة كما تشغله للجد والتدبير ، كأنه الجبار الرياضى الذى يداعب صحبه بالضغط على أكفهم عند المصافحة أو بالشد على ظهورهم عند المعانقة ، يوهمهم أنها ملاكمة ومصارعة وليست بمصافحة وعناق .. وكذلك كان « لطفى السيد » يصنع بتحديد معانى الألفاظ كلما طابت له الدعابة مع صاحب أو زميل ، بين يدى عمل من أعمال الفكر والنظر أو أعمال الإدارة والتنفيذ .

دخل إلى مكتبه بوزارة الداخلية وكيل الوزارة يتأبط ملفات الحركة الإدارية فبادره قائلاً :

-.ماذا تتأبط يا حسن[1] ... خيرًا ؟!

قال حسن : نعم خير إن شاء « الله » ... الحركة الإدارية !

قال « لطفى السيد » متجاهلاً : حركة ؟ ... وهل هذه حركة فى الزمان أو فى المكان ؟

ربما كان الكلام على حركة الزمان والمكان أول كلام من نوعه ورد على مسمع وكيل الداخلية الحائر فى أمره بين يدى هذا الفيلسوف الوزير ، فعاد يقول : بل هى حركة التنقلات بين المديرين ووكلاء المديريات والمأمورين وموظفى الإدارة على العموم .

قال الفيلسوف : وهل هى حركة بغير مقتض ؟ ولماذا يتحركون ؟ هل طلبوا منك أن تحركهم ؟

ثم انقضت هذه الحادثة كما شاء الوكيل أن يقضيها وكانت فكاهة الليلة فى مجلس رئيس الوزراء « محمد محمود » !

• • •

(١) حسن رفعت « باشا » أقدم وكلاء الداخلية فى عهده .

وعاد إلى مصر مع ثلاثة أعضاء من « الوفد » لمراجعة الأمة فى المقترحات البريطانية ، فقابله الصحفيون على الميناء وسأله أحدهم : هل أنتم قادمون بمهمة سياسية ؟ فكان جواب الصحفى القديم على الصحفى الناشئ :

– ماذا تعنى بالسياسة : دبلوماسية أو بوليتيقية ؟

وحاول صاحبنا أن يخلص من الورطة بقوله :

– أعنى الاثنتين !

قال الفيلسوف : ليس لنا مهمتان ، ولسنا سفراء فتكون لنا مهمة دبلوماسية ، ولا وزراء فتكون لنا مهمة بوليتيقية ! .. ولقد ذهب الصحفى الحائر فكتب هذا اللغز الفلسفى كما استطاع ، وبدّل فيه وعدّل كما أراد ..

• • •

ولما ألف أصدقاؤه « الأحرار » الدستوريون حزبهم كان هو معارضاً لهذه التسمية ، وظل معارضاً لها بعد تأليف الحزب بزمن طويل ، وإنما كان اقتراحه أن يسمى الحزب باسم « الحريين الدستوريين » وحجته فى تفضيل هذه التسمية أن كلمة حريين هى التى تقابل كلمة « ليبرال » بالفرنسية والإنجليزية ... وإلا فماذا تسمى المحافظين خصوم الأحرار ؟ هل نسميهم « بالعبيد » وهم لا يقنعون بالحرية وحدها دون السيادة على العالمين ؟ !

ولم يكن يكرثه أن يداعبه إخوانه من ظرفاء الحزب قائلين : أهلاً بالحرى .. سلامًا على الحرى .. ذهب الحرى .. جاء الحرى ... ولا لزوم للتسمية مع هذا التحديد .

قال « لطفى السيد » فى قصة حياته :

« نشأت من الصغر ميالاً إلى العلوم المنطقية والفلسفية . وقد نمت نظرى فى « أرسطو » أنه أول من ابتدع علم المنطق وأكبر مؤلف له أثر خالد فى العلوم والآداب .. ولما كنت مديرًا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض أصدقائى فى وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الأوروبية .. ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة « أرسطو » فلا جرم أن آراءه ومذهبه أشد المذاهب اتفاقاً مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الأقرب إلى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية ... » .

والحق أن « لطفى السيد » كان « أرسطياً » قبل أن يعرف « أرسطو » أو يفكر فى ترجمته ، لأن تكوين عقله المنطقى هو الذى حبب اليه منطق « أرسطو » حين أطلع عليه ، وحبب إليه صاحب المنطق حتى كان يتحدث عنه متبسطاً فيسميه « سيدنا أرسطو رضى الله عنه » .. وقد استفاد من أرسطو ما كان سيستفيده من مراجعة عقله بغير اصطلاحات المنطق وألفاظه « المخصوصة » على حد تعبيره ، فإن الفكرة المحددة كانت ديدناً طبيعياً عنده ولم تكن من الدروس التى تكتسب بالتعلم ، وقد كان حرصه على حد الفكرة أشد وأكمل من حرصه على حد العمل ، لأنه عرف بالتجربة أن نتائج الأعمال قد تختلط بينها وقد تتناقض المقدمات والنتائج فيها ، لكثرة العوامل المنطقية وغير المنطقية التى تحيط بها . ولكن حدود الفكرة فى ذهنه لم تكن تلتبس بين معنى ومعنى ، ولم تكن تخرج عن حدود المساواة بين أغراضها وعباراتها ، وقد كانت كلمة « يجرى إيه » تجرى على لسانه - كما لاحظ صديقه « عبد العزيز فهمى » - عند التسوية بين نتائج الأعمال ولو كانت فى ظاهرها على أبعد ما تكون من التناقض والاختلاف ، ولكن « يجرى إيه » كانت تنقلب إلى « يجرى كل شئ » إذا حدثت التسوية بين كلمة وكلمة لا تتساويان فى النتيجة المنطقية ، لأن حدود المنطق واضحة أمامه بمقياس الشعرة وبغير لبس ولا اختلاف بين أقرب النتائج وأشدها شبهاً فى ظاهرها .

- وقد ذكرت فى غير هذا المقال أن أستاذ الجيل كان يتجنب التصريح برأيه أثناء مناقشات المجمع اللغوى تورعاً منه عن التحيز إلى جانب من جوانب المناقشة ، ولكنه كان فى اللجان التى تعد القرارات للفصل فيها يشترك فى المناقشة ولا يترخص فى رأيه عند المعارضة بين اقتراحه واقتراحات غيره ، بل أذكر فى جلسة من جلسات اللجان أن قضينا نصف الوقت فى الخلاف على كلمتى المفكرة والمذكرة ، أيهما أصلح لترجمة عنوان المفكرة بين اليومية والقائمة والمدونة والمذكرة ، فكانت معارضته لكلمة « المفكرة » طويلة فى غير هوادة ، واستغرقت نحو نصف الوقت كما تقدم .. لأنه - كما قال - لا يفهم كيف ينسب التفكير إلى المفكرة وكيف يكون الخلط بين مدلول التفكير ومدلول التذكير .

• • •

فى أوائل عهدى بالصحافة قرأت مقالات لبعض رحالين السياسيين حكموا فيها على إحدى الأمم الشرقية حكمهم الذى يداخله الهوى كما يداخل أحكام الساسة على العموم .. ثم قرأت نقداً للرحلة ولأمثالها من الرحلات يدور على فكرة واحدة ، وهى أن رحلة الأسابيع المعدودة فى أمة من الأمم - كبيرة كانت أو صغيرة - لا تكفى للحكم عليها .

وقرأت النقد كما قرأت الرحلة فوافقت الناقد فى تخطئته لكثير من أحكام كاتب الرحلة ، ولكننى عدت إلى نفسى أسألها : أمن الحق أن الأمم لا تعرف من سياحة أسابيع بين ربوعها ؟ وهل إقامة السنين تكفى من ليس لديه مقياس صحيح لعلم بأحوال الأمة التى تام فيها ؟ .

وظلت هذه الخاطرة تشغلنى زمناً طويلاً حتى انتهيت منها إلى الرأى الذى أعتقده اليوم وهو : أن العبرة بالمقياس ومن يقيس ، وليست العبرة بطول الوقت أو قصره عند فقدان المقياس الصحيح ، وصح عندى أن شيئين اثنين قد يعينان الناظر على العلم بنصيب الأمة والفرد فلا يصعب الوصول إلى تقدير هذا النصيب فى بضعة أيام ، فضلاً عن الأسابيع .

هذان الشيئان هما : تقدير الكلمة وتقدير الوقت ، فلا شك فى تقدم الأمة التى تعرف للكلمة قيمتها وتعرف للوقت قيمته ، ولن تكون الأمة التى تستخف بالكلمة أو تستخف بالوقت على نصيب من التقدم أو من قوة الخلق وسلامة الفطرة ، ولو أعجبتنا جميع ظواهرها الأخرى .

وليس من الصعب أن تعرف نصيب الأمة من تقدير الكلمة وتقدير الوقت بعد يومين تقضيهما بين أبنائها ، ففى عناوين الدكاكين ونداءات الباعة ومواعيد المواصلات ومواعيد الزيارات مادة كافية للقياس الصحيح فى جميع الحالات .

وقد درجت - منذ وقرت فى نفسى هذه العقيدة - على قياس العظماء وغير العظماء بهذين المقياسين : ما قيمة الكلمة عند هذا العظيم أو عند هذا الأديب أو عند هذا الإنسان كائناً من كان ؟ وما قيمة الوقت عنده فيما يعنيه ؟ ولا أعرف أننى أخطأت تقدير إنسان أمكننى أن أعرف قدره بهذين المقياسين .

وكذلك تعرف قيمة الكلمة على حسب معدنها المأثور عند من يقدرها ويحرص عليها ، فإذا كان هناك تفاوت بين عظيمين يقدران الكلمة ويحرصان عليها فمعدن الكلمة هو موضع التفاوت بين ذينك العظيمين .

ولقد خطر لى يوماً أن أقابل بين « لطفى السيد » وبين أناس ممن عرفتهم من أبناء جيله وهم : « سعد زغلول » و « عبد العزيز فهمى » و « محمد محمود » ، فظهر لى مرة أخرى أن الكلمة هى الرجل كما قيل ..

كانت الكلمة عند « سعد زغلول » كائناً عضوياً يكاد ينضح بالدورة الدموية ، وكان هو يفهمها هكذا من كلام غيره كما كان يفوه بها من كلامه على غير تعمد منه . فلا يسمعها

السامع إلا أحس أنه سيحضر معها أثرها « الحيوى » انفعالاً نابضاً فى نفس المخاطب بها فرداً كان أو جماعة .

وكانت الكلمة عند « عبد العزيز فهمى » « حيثية » فى حكم قضائى ، يعنيه منها قبل كل شىء ماذا تقرر من الحكم وماذا تدفع من وجوه الأشكال أو الاعتراض ، وقد يسمع الكلمة فلا يستريح إليها لأنه يحس أن هناك اعتراضاً قد يرد عليها ، وأن يتضح له هذا الاعتراض لأول وهلة ، ثم يعرف السبب فلا يلبث أن يبدل الكلمة المقبولة بالكلمة المعترض عليها ، وله على ذلك قدرة المرانة على التمييز بين النصوص وقدرة الاطلاع على كتب الأدب والقانون .

وكانت الكلمة عند « محمد محمود » ، بل كانت كلمات اللغة كلها ، تصريفاً لكلمة واحدة هى كلمة « الكرامة » أو الوجاهة ، وربما التقى فى هذا التصريف قاموس السيد الصعيدى وقاموس « الجنتلمان » .

أما « لطفى السيد » فالكلمة عنده « حد منطقى » فى قضية كاملة ، ولا التباس عنده بين حد وحد من الوجهة المنطقية الصميمة ، وإنما يعرض لها اللبس حين تتعرض للنزاع بين المنطق العقلى والمنطق « السيكولوجى » أو منطق الوعى الخفى والوجدان العاطفى ؛ لأنه – على تسليمه الدائم بجوانب الضعف الإنسانى – لم يكن من طبيعة عقله أن يسمح للضعف أن ينتقل إلى كفة الميزان فى موازنته بين الحقائق الفكرية ، وربما جاء من هذا العزل بين منطق الفكر ومنطق النفس أن روح الفكاهة فى كتابته تختفى وراء الرأى الممحص والتقدير المحكم بالقياس الصحيح .

* * *

ولقد كان يستطيب « القفش الحلو » كما سماه فى بعض مقالاته ، ولكنه لم يكن سريعاً إلى « لقط » النكتة ، ولم تكن له تلك الضحكة العميقة التى تملأ الأفواه كما تملأ الصدور .. وقد يشترك المجلس كله فى الضحك ولا يشاركهم فيه ، فيحمل الخطأ على نفسه ويقول معتذراً : لا مؤاخذة ! إننى بطىء فى فهم النكتة ! ..

ومما أذكره نماذج شتى من النكات « البلدية » التى كانت تضحك جلساءه ولا تضحكه ، ومنها حديث أطرفنا به الأستاذ « عبد الوهاب خلاف » – رحمه الله – عن صاحب له ولنا من الشيوخ المعممين المتحنين الذين لا يعطون المشيخة ولا اللحية كل حقها من التزمت والحشمة ، وكانت مناسبة الحديث « دردشة » عارضة على حد تعبير رئيسنا فيما ينال قبل

انعقاد جلسات اللجان الخاصة بالمباحث اللغوية فى موضوع من الموضوعات ، وكان موضوع الجلسة تعريب المصطلحات الموسيقية أو تهذيبها .

وقال الأستاذ « عبد الوهاب » عن ذلك الشيخ المرح أنه شوهد وهو يتأبط ذراع الموسيقى المعروف « سامى الشوا » فسئل :

– ما الذى يجمع هذا على ذاك ؟ وما الذى يقرن بين زمرة الأولياء وزمرة الطرب والغناء ؟

قال الشيخ غير متلعثم :

– وَلِمَ لا ؟ ... هذا شيخ « كمان » !

وشوهد الشيخ فى إحدى سهراته وأمامه كأس من الوسكى فسأله الزائر الطارئ مستنكراً :

– أما تستحى لهذه العمامة فوق هذه اللحية التى وخطها الشيب !

فقال كذلك غير متلعثم :

– والله : هذه أيضاً (بلاك آند هوايت !)

وكان يقول للمازحين من أصحابه كلما ذكَّروه بوقار اللحية :

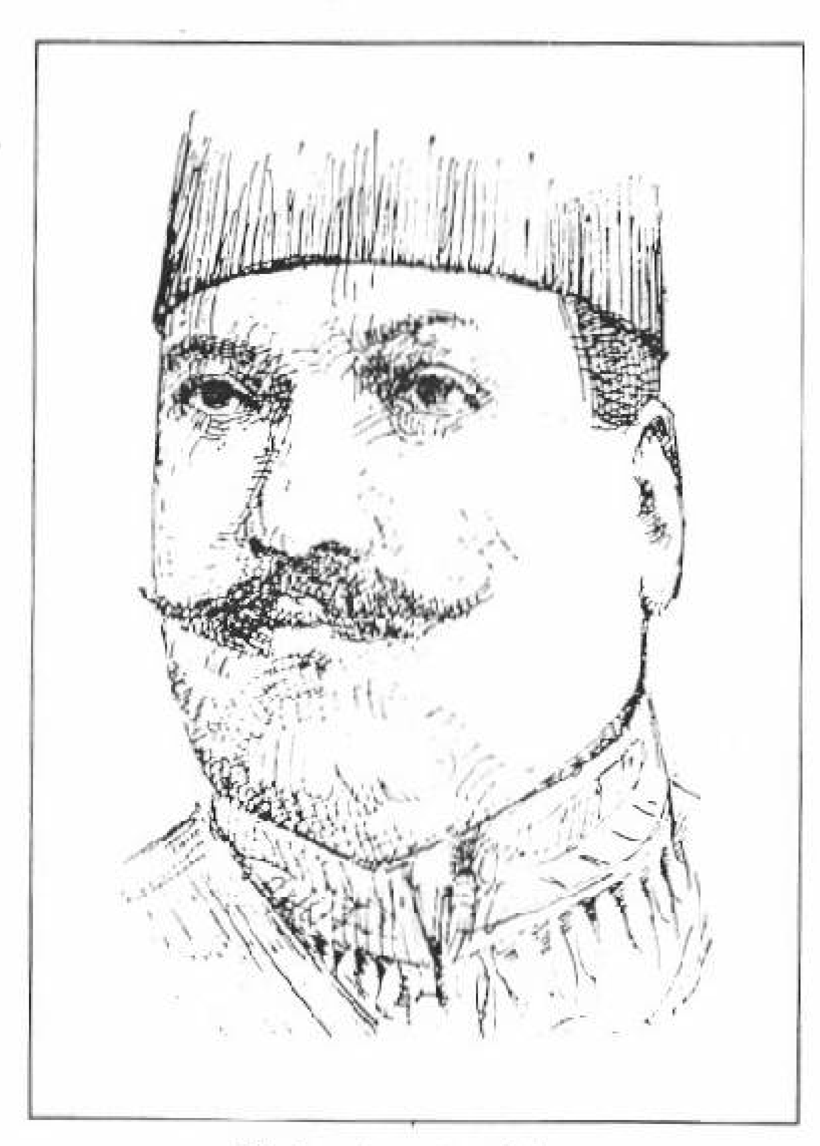
– إنها لا تربينى ... أنا الذى أربيها !

وقد كان الرئيس – خلال هذه الدردشة – يبتسم ولا يضحك ، ويعود فيلقى اللوم على تقصيره هو فى هذا المجال .

وعلينا أن ننصفه من نفسه فى هذا اللوم ، لأن النكتة الجناسية فى الواقع ليست من أجود النكات ولا من أصدق ألوان الفكاهة ، وليس بالمستغرب من العقل المنطقى ولا من صاحب القلم الحريص على « ألفاظ الخصوص » ألا يأنس إلى لعب الجناس « اللفظى » وألا يشغل باله بعد استيفاء شروط العقل بحواشى المشابهات فى الآذان ، وقد مرت بنا فيما نقلناه من تقريظه لأسلوب « المنفلوطى » كلمة من الكلمات الجناسية يتحاشاها فى مكانها من يتق باله إلى مشابهاتها ، ولكنها لم تكن مما يتحاشاه « أرسطو المصرى » فى لغة الجد والتحقيق ..

إنه يقول عن كتّاب الخصوص :

« إن كتابتهم – على قلتها – هى المربى الوحيد للأمم والعامل الأولى التى تدفعهم إلى الأخذ بكل نوع من أنواع الرقى والنجاح »



ميرزا محمد مهدى خان

وكم من نكتة جنامية فى هذه « العلل » لمن يشاء أن يحكم « بقافية » فى لغة التفكير والتعبير؟

إلا أن الإنصاف الذى يعفى فيلسوفنا من اتهام نفسه بالتقصير فى مجال النكتة، لا يمنع المنصف أن يلاحظ أن نصيب الروح الفكاهية فى كتاباته قليل، يشكو الحرمان من جور الجد المطبق عليه.

• • •

وبعد .. فإن الكلمة عند « لطفى السيد » هى موضوع مقالنا، ولكننا ذكرنا فى عرض المقال مقياساً آخر للأمم وللرجال غير مقياس الكلمة وهو مقياس الوقت .. فلا ننسى أن نضيف هذا المقياس إلى ذلك المقياس، ولا نرانا بحاجة إلى كلمات كثيرة لنقرر أن الكفة سنبقى على رجحانها فى الحالتين :

لقد تولى « لطفى السيد » رئاسة مجمع اللغة وهو يقارب التسعين. فلم يتخلف عن المجمع يوماً واحداً وهو قادر على الخروج من داره. ولم تأت الساعة الحادية عشرة فى يوم من أيام حضوره وهو بعيد من كرسيه بقاعة الجلسة. ولا تتم الدقيقة التاسعة والخمسون وبدء بعيدة من جرس التنبيه !



ميرزا محَمد مهّدِي خَان

زعيم الدولة ورئيس الحكماء

☐ نشرت في صحيفة «الدستور» سلسلة من الفصول عن شعراء الفرس النابهين معتمداً فيها على قصائدهم وأخبارهم المترجمة إلى اللغة الإنجليزية .. وحدث في صيف سنة ١٩٠٩ أن شاه الفرس أراد أن يلغي الحياة النيابية فنشبت الثورة في البلاد ، واضطر إلى النجاة منها بنفسه فبايعت الأمة ولي عهده .. وهو في نحو الحادية عشرة من عمره . ونقلت الأنباء البرقية عنه أنه بكى حين بويع بالملك بين تلك الزعازع المرهوبة ، فكتبت يومئذ مقالاً في صحيفتي «الدستور» و «مصر الفتاة» وجهت فيه الخطاب إلى الشاه الصغير . وقلت في مفتتحه «أنت في الشرق .. بين أمة الشعر والشعور» .. ثم قلت : «إنك إن لم تضمر لهم سوءاً ولم تحمل عليهم ضغناً . فالعرش أوثر من المهد ، وحجر الأمة ألين ملمساً من حجر الأم ، وأنت مع ذلك أسعد أسلافك ، لأنك أول من رفعته إيران إلى عرشها بيدها ، وأيمن شاه لأنك وليت الحكم في العهد الذي سيذكر التاريخ أنه أول عهد وافق نهضة الإسلام من جديد .»

ولقيني غير واحد من صحبي بعد نشر هذا المقال وهم يقولون لي : «إن مقالك قد أعجب الدكتور «مهدي خان» وهو يحب أن يراك» .

فمن هو هذا الدكتور «مهدي خان ؟» .

لقد كانت القاهرة يومئذ تموج بالتيارات السياسية ، بين ظاهرة وخفية .. كانت كأنها مرصد الحوادث في الشرق الإسلامي كله ، فكان فيها دعاة من العرب ، ودعاة من الترك ، ودعاة من الفرس ، ومن آسيا الوسطى على اختلاف شعوبها ، ومنهم من يعمل للحرية والتجديد ، ومنهم من يعمل في خدمة المستبدين ، بل في خدمة الاستعمار ..

وكان الدكتور «مهدي خان» في ذلك الحين علماً من الأعلام المشهورة بين أولئك الدعاة .

كان يعرف في بلاده باسم «الدكتور ميرزا محمد مهدي خان زعيم الدولة ورئيس الحكماء» . وكان مولده في أوائل القرن التاسع عشر ، وكان قد ناهز التسعين حين لقيته ، وكان نموذجاً صادقاً لثقافة القرن التاسع عشر في زمنه وفي وطنه ، لأنه تعلم الطب في فارس ثم

حضر دروساً مختلفة

أحياناً ، ويكتب

بالفرنسية .. ولهذا

ولست على يقـ

كانت تصادر أحيا

لدولة العثمانية تنقل

القيصرية .

وكان شديد الـ

إيران ..

ولم ألقه على أثـ

وعرفني إليه صديقنا

كان من أسباب

خاصة ، وقد تحققـ

وغيره من شعراء القـ

تارة ، وعن رغبة

وكان للرجل فضـ

ميسوراً لكل راغب

رشدى باشا » وثلا

شوقى » ، والأستاذ

على أنني مدين ...

في أيامها ، وهي مسألة المطبعة العثمانية التي يتوقف على العلم به تقدير أناس يحسبون الآن من أبطال الحرية والدعوة الوطنية .

فقد كنت أرى الرجل كلما زرته في مكتبه شديد الحذر على أوراق صحيفته ، وعلى أسماء المشتركين فيها من القيمين في إيران وروسيا على الخصوص ..

وكنت أعيب عليه هذا الحذر ، وكان يقول لي : إنك يا بني لا تعلم أنها مسألة خطرة على حياة المئات .. ومن يدري ؟ فقد تتعرض لما نعرض له أصحاب المطبعة العثمانية من حيث لا نعلم وذلك غاية ما نخشاه .



أحمد فؤاد

فــؤاد " الصَّــاعِقَة "

☐ إذا كان سبب من أسباب السمعة مانعاً للكتابة عن أحد ، فهذا الكتب الصحفى أوّل الناس بالسكوت عنه ..

ولكنه أحق الصحفيين بالكتابة عنه إذا كان تاريخ « الأدوار الكتابية » فى حياة الصحافة عندنا موجباً للكتابة عن صاحب الدور ..

فقد كان « أحمد فؤاد » صاحب صحيفة « الصاعقة » الأسبوعية أشهر الصحفيين من أبناء جيله فى تمثيل ذلك الدور الذى عرفناه فى صحافتنا بعد ظهور الصحف السيارة عندنا وانتشارها فى أواسط القرن التاسع عشر .. فإذا وجب أن تختصر أسماء الصحف التى يصح أن نطلق عليها عنوان « صحافة الهجاء الاجتماعى » فى اسم واحد – فاسم « فؤاد الصاعقة » هو ذلك الاسم الذى لا يزاحمه شريك مثله فى هذه الصناعة ..

كان الناس يعرفون اسم « فؤاد الصاعقة » ولا يعرفون اسم « أحمد فؤاد » إذا انفرد بغير هذه القرينة .. وقد يكتفون باسم « الصاعقة » ولا يزيدون ، فيعرف قرّاء الصحافة من يريدون ..

وقد كان « فؤاد الصاعقة » ممثلاً فى المجتمع المصرى لدور واحد على صورتين : صورة تظهر فى محيط الأدب الشعبى وهى صورة « الأدباتى » المتجول بين بلاد الريف والحضر ..

وصورة « مفصحة » من هذا الأدباتى وهى صورة الأديب « الأريب » المحتال لمعيشة فى لغة المقامات ، واسم « أبو زيد السروجى » فى مقامات « الحريرى » عنوان عليه .

وإذا أردنا أن نترجم هذه الصناعة بالأسلوب الاقتصادى لتفسير الأدب والتاريخ ، فالصحفيون من طائفة « أحمد فؤاد » هم « محصلو ضريبة الوجاهة والهيبة » فى المجتمع الجديد .

ولنا أن نتخيل أن هذا المجتمع سلطان من السلاطين الأقدمين كان له خدامه على طريقته ، وكان لهؤلاء الخدام نصيب من التزاماته وجباياته المقررة على رعاياه ، فإن هؤلاء الأدباتية « يخدمونه بالرقابة على أصحاب الجاه والهيبة فيحيلهم بتحصيل الضريبة لحسابه أو لحسابهم من جميع هؤلاء ، هرباً من تكلف المغارم والوفاء بحق الجزاء الصريح .. لأن المجتمع نفسه

وأصحاب الجاه والهيبة فيه : أولئك الجباة المسلطون عليهم ، كلهم جميعاً غير صرحاء .

على أن « الوظيفة » هذه لم تكن مخجلة لأصحابها ، ولا كان أصحابها يكتمونها ويدورون حولها ..

جلس أحدهم بين زمرة من الكتاب والفضلاء يتحدث عن صديقه السرى الذى يستدنيه منه ويسومه أن يجاريه بتعاطى المخدرات وشم « الكوكايين » وكان يومئذ بدعة « أولاد الذوات » المتبطلين من رواد السهرات .

قال الأدباتى « السروجى » الحديث : « ولكن من ذقنه فتل له .. كان - بسلامته - يريد منى أن أشم له الكوكايين لأعينه على السهر . ولكننى كنت أسهر بغير كوكايين وأجمعه عندى إلى ساعة الحاجة فى آخر الليل .. تلك الساعة التى توصد فيها أبواب الصيدليات ومخابئ العقاقير الممنوعة ، وتحلو فيها الشمة الواحدة بأضعاف سعرها فى جميع الأسواق السوداء وأبدى لصاحبنا الغيرة على خدمته والتحرق على شمة أو شمتين معه قبل انقضاء السهرة ، فلا يقنعنى فى الجرام الواحد أقل من ثمن عشرة جرامات ، وأخرج من هنا وفى جيبى حصيلة الأسبوع من الكوكايين المدخر لتلك الساعة ، ثم أعود إليه ببقية « العشرة الجنيهات » قروشاً معدودات .. ولم أصرف من الورقة نصف مليم » !

وتحدث صحفى آخر عن كلمة غمز بها بعض الوجهاء وفهمها ذلك الوجيه وفهم المقصود منها ، فأرسل إليه خمسة جنيهات ولمح هو من الوسيط أن الحكاية قابلة للمساومة والزيادة جنيهين أو ثلاثة جنيهات ..

ثم اعتدل الصحفى الأدباتى : وهو يقول فى زهو وخيلاء : ولكن فشر .! محسوبكم « برى فكس » .. كلمته واحدة لا يقبل المساومة عشرون جنيهاً على داير المليم ، وإلا فالذى قرأه الباشا غمزاً يقرأه الناس جميعاً تصريحاً على المكشوف .. وعينك ما تشوف إلا النور .. لقد جاءتنى الجنيهات العشرون قبل مغيب الشمس فى ذلك المساء .

كان هذا الصحفى يلقب بيننا « بالزبرا » أى حمار الوحش ، وكان بعضهم يتلطف فيسميه الفنان لأنه من أسماء الحمر الوحشية ، فلما سمعنا منه هذه القصة صاح الأستاذ « أحمد صبرى » المصور المعروف متهكماً متبرماً وهو يلوح له بيديه فى وجهه : لا « والله » .. من الآن فصاعداً .. حمار وكفى .. ولا زبرا ، ولا فنان ، ولا يحزنون !

على هذا المثال كان « الصحفى الأدباتى السروجى » يؤدى وظيفته فى بقايا المجتمع من القرن

التاسع عشر ، وكان محصوله من هذه الوظيفة ضريبة المجتمع على الوجاهة والهيبة بحسب براعته فى التحصيل .

وكان « فؤاد الصاعقة » أبرع هؤلاء الجباة فى استغلال وجاهة الوجيه وهيبة المهيب شفوياً وتحريرياً بغير عناء ، وهو عالم بحدود العرف والقانون مع كل طبقة من تلك الطبقات ..

كان له جعل من المصروفات السرية يصيبه حيناً ويفقده حيناً ويطلبه فى جميع الأحيان ، وكان « عبد الخالق ثروت باشا » و« حسين رشدى باشا » ممن عودوه المنحة بعد المنحة من هذه المصروفات .

وانقطعت عنه منحة « ثروت باشا » ، وهو لا يزال رئيساً للوزارة ، فتربص به فى ساعة اجتيازه ببار اللواء ماشياً على قدميه كعادته فى أكثر الأوقات ، وتعمد أن يجلس ذلك اليوم بين رهط من كبار رجال وزارتى العدل والداخلية ، فما هو إلا أن عبر « الباشا » بهم وهو يعرفهم جميعاً حتى وثب « فؤاد الصاعقة » وراءه ، ووقف على قارعة الطريق يناديه : يا سى « عبد الخالق » .. يا سى « عبد الخالق » !

فهرول أولئك العلية إلى داخل البار ، وعاد إليهم مقهقهاً وهو يقول : ليس بينى وبينه تكليف ! ..

وقال أحدهم وهو يلطمه على فمه : ولا بينى وبينك تكليف يا ابن ..

ولمح « رشدى باشا » عند محطة الرمل بالإسكندرية بعد اعتزاله الوزارة . فوضع ذراعه تحت إبطه ونظر إليه فى غبطة من الهدوء والتبسط وهو يمازحه قائلاً : لا صاحب دولة الآن ولا صاحب عطوفة .. ولا حجّاب على الباب ولا حرّاس فى الطريق .. كلانا سواء يا « حسين » ! .. فدفعه الباشا عنه بتلك البساطة الظريفة التى عرفت عنه .. وقال له كأنه يرد المزاح بمثله : لكن أنا عندى فلوس يا ابن ...

وكانت صحيفة « الصاعقة » أسبوعية كما تقول رخصتها أو يقول عنوانها ..

ولكنها فى الواقع لم تكن أسبوعية ولا يومية ولا شهرية ولا سنوية ، إذ كان لابد من تحديد الموعد بوقت معلوم ..

وإنما تصدر كلما وجدت « الضحية » التى تؤدى ضريبة الجاه والهيبة : سواء من هذه الضريبة ثمن الثناء أو ثمن الهجاء أو ثمن النجاة من التهديد والوعيد .

ويحدث كثيراً أن تقع المعاملة مع هؤلاء الضحايا بالجملة ، كما حدث فى رثاء بعض الأعلام

من المشاهير .. فإن رثاء العلم المشهور لم يستغرق غير كلمات فى بضعة أسطر ، ثم عقب « فؤاد » بعد هذه الكلمات متسائلا : أيجوز فى شرعة القدر أن يموت مثل هذا ويعيش أمثال فلان وفلان .. إلى آخر القائمة المطولة من أسماء المغضوب عليهم والمطالبين بسداد الاشتراك ، عن عددين فى السنة ، أو بضعة أعداد !

وقد يصدر العدد من أجل عنوان واحد يتكرر على الصفحة بجميع البنوط :

لا تبيعوا أقطانكم إلا بماتى ريال !

لا تبيعوا أقطانكم الا بماتى ..

لا تبيعوا أقطانكم ..

لا تبيعوا ..

لا .. لا ..

ويبلغ من يعنيه الأمر أن الأعلان سيعاد ويعاد مع مضاعفة الأجور فى كل مرة .. فيسرع من يعنيه الأمر إلى السداد ..

أما من كان يعنيه الأمر فى قصة بيع القطن ، فهو رجل من أصحاب المزارع والمحاصيل كانت له مساهمة فى صناعة القلم على أسلوب المقامات وما جرى مجراها ، وكانت مداهنة « الصاعقة » له سبباً مضافاً إلى سبب الطمع فى ماله ، أو فى ضريبة الجاه والسمعة من يديه ، فحسب عليه تلك النصيحة الفاشلة التى ضيعت على الفلاحين محصول العام زلة يهدده بها كلما نقم منه واحتاج إلى جدواه .

وقد يؤجر «فؤاد الصاعقة» على التحرش بالأدباء والكتّاب ممن لا مال لهم ولا جاه ، فيعرف قراء « الصاعقة » ذلك كلما طلعت لهم الصحيفة بفصل من فصول الكاتب المغضوب عليه .. يتبعه تهديد للمشتركين المتخلفين بمواصلة النشر والإعادة من أمثال هذه الفصول !

وربما أخذ التوقيع الذى يوقع به الكاتب مقالاته فترجمه من عنده على هواه .. فتوقيع « ك . ك » هو توقيع « كامل كيلانى » بالحرفين الأولين من اسمه ، ولكنه عند « فؤاد الصاعقة » إما « كلب كليب » .. وما كاهن كذاب .

ولم تبلغ الجرأة بأحد مبلغ هذا « الأدباتى السروجى » فى مخاطبة الأمراء والرؤساء .. فقد انقطعت عنه المعونة الشهرية من ديوان المعية الخديوية ، فكتب إلى الأمير ، مباشرة ، خطاباً يقول فيه : إن كان بعضهم يظفر بعطايا الأمير لأنه ينظم فهو حقيق بهذه العطايا لأنه ينثر ..

وإن كان لعيب من العيوب ، فهو - أى « فؤاد الصاعقة » - يضم إليه بحمد « الله » على تلك العيوب ، وعلى شرمنها ، وزيادة عليها .. ثم يمضى فى تعداد عيوبه غير مقتصد فيها ، كأنه عيوب ضحية من ضحاياه ..

واسم « الصاعقة » نفسه مثل من أمثلة الشهادة على نفسه فى مقام المقابلة بينه وبين غيره ..

كان « فؤاد الصاعقة » يدين بالأستاذية للمويلحيين الكبير والصغير ..

وكان المويلحيان أستاذين فى ذلك الجيل للكتّاب من مدرسة « النقد الاجتماعى » على الأسلوب المهذب فى لفظه ومعناه ..

فأخذ تلميذهما اسم « المصباح » وحوله إلى « الصاعقة » .

وأخذ أسلوب « النقد » وحوله إلى أسلوب « الهجاء » .

وارتد على الأستاذين بالتهديد والوعيد ، وحاول أن يتقاضى منهما ضريبة الابتزاز والأتاوة .. فعلّمه المويلحى درساً قال له فيما بعد أنه قد فاته أن يتعلم منه مع الهجاء .. هجاء الألف والباء ..

أرسله إلى الآستانة برسالة يغتم فيها قيل والهيلمان ، من سعدن « آل عثمان » ..

فلما وصل إلى الميناء كان فى استقباله مدير الشحنة السرية بدلاً من مدير التشريفات بالمابين ، وقضى فى السجن ما شاء المويلحى الكبير أن يقضيه هناك ، قبل أن يشفع له ويدفع الشبهة عنه ..

ولقد سمعت من هذا « الأدباتى السروجى » وصية تدل على طريقته فى تقاليد هذه الصناعة ..

كان يقول لى كلما لقينى بدار البلاغ أو الأهرام : أنا أعلم أنك لا تخافنى كما يخافنى فلان وفلان .. وكل ما أرجوه منك ألا تجهر بذلك أمام هؤلاء .. ودعنا نأكل عيشنا معهم ، يرزقنا « الله » وإياك ..

ومرة واحدة لقينى جالساً إلى بعض زملائنا الصحفيين على قهوة بجوار البنك الأهلى ، فهتف بى كالمعاتب الناصح : كله إلا هذا يا أستاذ .. أن الكاتب الذى يلقبه « سعد زغلول » بالجبار لا يجلس على القهوات .. دعهم يحسبونك من مردة الأساطير ، يتلو أحدهم الطلسم كلما خطر له أن يراك .

الفهرس